

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الفكرية

مكتبة

الأمسية

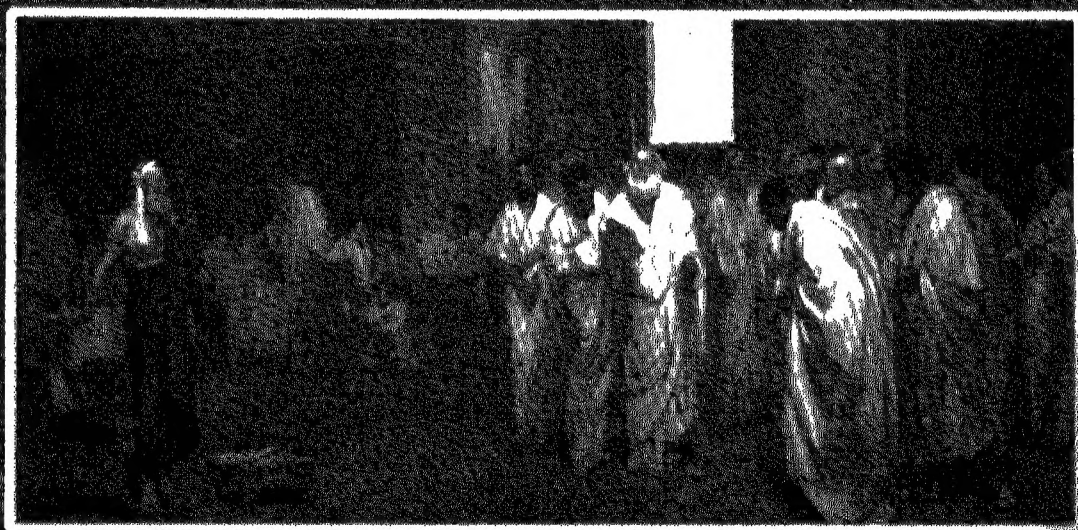
1999

الأمبراطورية الرومانية

م. عبد الحليم السور

مراجعة: د. محمد صقر خفاجة

ترجمة: رمزي عبده جرجس



الطبعة الأولى: ١٩٩٩

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي حكي

القاهرة

الامبراطورية الرومانية

الامبراطورية الرومانية

تأليف : أ . ب . تشارلز ورث

ترجمة : رمزي عبده جرجس

مراجعة : د. محمد صقر خفاجة



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

الامبراطورية الرومانية

تأليف : أ. ب. تشارلز ورث

ترجمة: رمزي عبده جرجس - مراجعة : محمد صقر خفاجة

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

هذا الكتاب
مسلّم إلى المكتبة
ومسوّى رقمي بالبريد

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلفها شبابتنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

هذه ترجمة كتاب :

The Roman Empire

تأليف

M. P. Charlesworth

مقدمة المؤلف

يهدف هذا الكتاب إلى عرض بعض جوانب الحياة وما يجرى فيها ووصف بعض الأفكار والأحوال التي كانت سائدة خلال القرون الثلاثة الأولى من هذا النوع من الحكومات التي اصطلح الناس على تسميتها بالإمبراطورية الرومانية . ولقد أغفلت كثيراً من الموضوعات مثل التفاصيل الخاصة بالنظرية الدستورية ونظم الإدارة المدنية والاقتصاد ، لأنني لا أعرفها كما يجب . ولقد حاولت أن أقدم للقارئ المثقف العادي صورة بجملة ، تضم نصوصاً مقتبسة وفيرة حول ما كان يدور في خلد سكان الإمبراطورية وما كان يجرى على ألسنتهم . فإذا ما اكتشف هذا القارئ بعض الصلات التي تربطه بهؤلاء السكان في حياتهم ومشاكلهم اليومية ، وإذا ما اكتشف في نفسه هوى وميلاً إلى هذه الفترة باللغة الأهمية ، فسي أن أكون بذلك قد حققت ما أنشده .

وليس ينسى أن أعرب هنا عما أدين به من فضل عظيم لأولئك الأصدقاء الذين قدموا لي يد العون في نواحي عدة وهم الأستاذ ف . ا . آدكوك F. H. Adcock وعميد براسينوز والكولونيل ت . موريس T. Morris والأستاذ ا . د . نوك A. D. Nock والأستاذ ا . ا . رتشموند I. A. Richmond ، بيد أن من يعرفونهم عن كثب يمكنهم تصور مبلغ تقديري لهم . كما ينبغي أن أسجل هنا أولاً وقبل كل شيء ، عميق امتناني للدكتور ن . ه . بينيز N. H. Baynes لاهتمامه بي وتشجيعه لي بهمة لا تعرف الكلل خلال السنوات الطوال التي قضيتها

— ٦ —

في التفكير في هذا الكتاب وتأليفه . وإن لا أنكر أنه كان بالوسع أن يظهر
هذا الكتاب في ثوب أتم بهاء ورواقاً ولكنني مع ذلك آمل أن يكون جديراً
ببعض ذلك الفضل العظيم ، الذي أسبغته عليّ هؤلاء الأصدقاء الذين ذكرتهم
أو أولئك الذين أهديت كتابي إليهم .

م . ب . تشارلز وورث

١٩٥٠

تمهيد

منذ ألف وثمانمائة سنة مضت ، كانت جميع الأراضي التي تتاخم البحر الأبيض المتوسط ، وكثير غيرها من المناطق التي تقع فيما وراء ، تنعم في ظل حكومة واحدة بالسلام وسيادة القار . والنظام والرخاء . وكانت إيطاليا نفسها ، وشبه جزيرة أيبيريا وساحل شمال إفريقيا ومصر وسوريا وتركيا واليونان جزءا في هذه الإمبراطورية العظيمة ، بيد أنه إلى جانب هذه البلاد ، كانت هناك شبه جزيرة البلقان وجانب كبير من المنطقة التي تشغلها الآن رومانيا والمجر ، ثم فرنسا وسويسرا والنمسا وألمانيا الجنوبية وهولندة (جنوب نهر وال) وإنجلترا وويلز بالإضافة إلى الأراضي الواطئة في اسكتلندة — كل هذه قد أخذت بنصيبها في السلام الذي كان سائداً والثقافة التي انتشرت .

وفي مثل هذه الإمبراطورية الشاسعة المتباينة الأجزاء التي تضم أشتاتاً من الشعوب واللغات والتقاليد ، لم يكن هناك أدنى شك فيمن تكون له السيادة ، تكون للبواطين الرومان الذين استطاعوا أن يقهروا في بضعة قرون ، هذه الدول المختلفة جميعها ، الواحدة تلو الأخرى ، حتى عرفت المنطقة جميعها باسم « نفوذ حكم الرومان ^(١) » (Imperium Romanum) .

ولكن على الرغم من أن روما كانت صاحبة السيادة ، بلغتها وقانونها وديانتها وعاداتها ، على هذه الرقعة المترامية من الأراضي ، إلا أن الأجناس من دونها ، لم تكن تلتقي منها عنتاً أو مهانة . فقد نظر الرومانيون الفاتحون إلى اليونانيين ذوى التراث الحريق ، نظرهم إلى نظراء لا يقلون عنهم مرتبة ،

(١) رغم أن عبارة « الإمبراطورية الرومانية » المألوفة ، تعد سهلة المأخذ ، فهي لا تؤدي معنى صحيحاً ، إذ أن كلا من اللفظتين اللاتينية imperium والعربية « إمبراطورية » تحملان في الواقع معان مختلفة .

وأهم من ذلك أن اليونانيين أنفسهم بانوا ، بمضى الزمن ، على أنهم استعداد لأن يعتبروا الرومان أنداداً لهم ، بعد أن كانوا ينظرون إليهم شذراً ، ويسمونهم « البرابرة » وسارت الأمور على هذا النحو حتى أن سكان الإمبراطورية الشرقية الذين كانوا يتكلمون اليونانية ، كانوا يشعرون بفخر عظيم ويسمون أنفسهم « بالرومايوى » Rhomaioi أى بالرومانيين « Romans » . وكانت توجد أجناس أخرى غير هذه ، فقد انتشر الكلتيون إبان هجراتهم في منطقة شاسعة في أوروبا الوسطى ، وخضع الكلتيون الغربيون في إسبانيا وفرنسا للحكم الرومانى ، في حين أن نظرائهم في الشرق كانوا عنصراً هاماً من عناصر سكان أراضي نهر الدانوب . وكان من اليسير على الرومان ، بث الحضارة والتقاليد الرومانية في هؤلاء الكلتيين الذين كانوا بمثابة غزاة يحكمون شعوبا وطنية عريقة في كثير من الولايات ، وذلك لأن الكلتيين انحدروا من سلالة هندية أوروبية ، ولأنهم كانوا يتكلمون لغة لها صلة باللغة اللاتينية . ولكن الحال يختلف عن هذا بالنسبة للأجناس الأخرى ، فكان سكان تراقيا Thracians في شرق شبه جزيرة البلقان وفريجيا Phrygians وكبادوكيا Cappadecians في آسيا الصغرى والسوريون والمصريون الوطنيون (تميزا لهم عن الجمهور اليونانى الكبير الذى استقر بمصر إذ ذاك) كانوا جميعاً أصعب قياداً من غيرهم في تمثل الحضارة الرومانية . ورغم كل ذلك ، وعلى الرغم من أنه كان يحق للرومان أن ينظر إلى هذه الشعوب باعتبارها شعوبا لا تحتل سوى مرتبة دنيا من مراتب الحضارة ، فلم تظهر قط فكرة تدل على العنصرية كالفكرة الحديثة التى تقول بوجود « جنس سيد » . فلم يكن لدى روما ما تواجه به هذه الشعوب جميعها التى اتصلت بها ، سوى تجربة واحدة ، وهى أنها دائماً ترحب بمنح هذه الشعوب ، حقوق المواطنة ، إذا ما أبدت استعداداً للتعاون المثمر معها ، دون النظر إلى الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين .

والحقيقة أن براعة الحكم الروماني تظهر في أن القائمين به قد أدركوا منذ أقدم العصور الحكمة من منح حقوق المواطنة تقديراً لمن كان يبذل جهداً متصلاً في سبيل نيلها ، ويعاون روما على أداء رسالتها . وقد يختلف الباحثون في تعريف هذه الرسالة غير أنه يحق لنا أن نقسم في هذا المجال عن الصورة التي كان يرسمها الرومان لأنفسهم . تروى الأساطير بما تنطوي عليه عادة من نغمة وطنية طنانة ، قصة رومولوس Romulus مؤسس روما وملكمها الأول ، سليل الإله مارس Mars ، الذي طرح في البرية وما زال طفلاً ، ورضع هو وأخوه التوأم من ثدى ذئبة ، وبذلك انحدر الرومانيون من سلالة هذه الآلهة ، فانتصروا بالصرامة والجلد والاستبسال في القتال . غير أن الأساطير قد حفظت لنا ذكرى أحد المشرعين العظام والمفسرين للحكمة الإلهية ، وهو ملك روما الثاني ويدعى نوما Numa . وهكذا نشأ الشعب الروماني وانحدر من سلالة الأشداء الكادحين ، الراغبين في القتال في استماتة دفاعاً عن حقوقهم ، إذا ما استلزم الأمر ، لكنهم يحترمون القانون ولا يعتمدون على حقوق غيرهم . وقد أنعمت عليهم الآلهة — وكبيرهم جوبيتر Jupiter — بالفتوحات المطردة والنصر المؤزر ، تقديراً لشجاعتهم النادرة وعزمهم وتصميمهم وورعهم أولاً وقبل كل شيء ، فاتسعت رقعة ملكهم ، واشتدت قوتهم وازداد ثراؤهم وعظم نفوذهم . فبثت الدولة الرومانية التي كانت مجرد بلدة صغيرة على نهر التيبر Tiber ، أن أصبحت ، ولم تمض سوى قرون معدودة ، تضم إيطاليا جميعها . وفي هذه الأثناء نشرت روما ألوية القانون والتسامح على القبائل التي قهرتها ، كي تنال نصيبها من السلام الروماني . وكان شعب هذه الجمهورية ينتخب بنفسه حكامه الذين يسمون قناصل Consules أو برايتوريس Praetores ، والذين خولت لهم سلطة الحكم imperium وكانت هذه السلطة مطلقة (إلا في حالة الحكم على أحد المواطنين بالإعدام) وجرت العادة أن يشغل هؤلاء الحكام بعد انتهاء خدمتهم المقاعد الشاغرة في مجلس الشيوخ (Senate) الذي أصبح بدوره حصناً للحكمة

والحنكة السياسية . وضمت روما ، شيئاً فشيئاً ، خلال القرنين الأول والثاني قبل الميلاد ، البلاد الواقعة في الشرق والغرب فدانت لها إسبانيا واليونان وآسيا الصغرى ، وكانت ترسل الحكام أو الحكام السابقين لتولى مقاليد الحكم في هذه «الولايات» provinciae (وهي لفظة كان يقصد بها أصلاً منطقة نفوذ الحاكم لا مساحة الأرض وحدودها) وتمنحهم سلطة كسلطة القنصل consul أو البريتور praetor تسمى (imperium proconsulare) ، وكانت هذه السلطة المخولة للحاكم تجعل منه حاكماً مطلقاً لا معقب على قضاائه . ومع أنه لم يكن ليمارس هذه السلطة إلا داخل ولايته ، إلا أنه كثيراً ما أساء استخدامها . وفي القرن الأول استطاع قائدان بارزان : بومبي Pompey الكبير ويوليوس قيصر Julius Caesar أن يضما إلى الإمبراطورية أجزاء من أراضي آسيا الصغرى وسوريا كما ضما بلاد الغال Gaul الخصب . بيد أن سلسلة من الحروب الأهلية قد نشبت خلال القرن ذاته وهددت باستنفاد قوة الرومان من الرجال ، وأندت بخلق حالة من الفوضى وإضعاف مستوى حياة الرومان الأدبية والدينية . وقد تحقق خلاص العالم الروماني من هذا الخطر المحدق على يد ابن يوليوس قيصر (١) الذي بدأ بهزيمة خصمه

(١) ولد جايوس اكتافيوس Gaius Octavius في روما في ٢٣ سبتمبر سنة ٦٣ ق.م. وكانت أمه ابنة أخت يوليوس قيصر . وفقد أباه في حداثة فكفله زوج أمه لوكيوس ماركوس فيليبوس L. Marcus Philippus . وفي سنة ٤٤ ق.م. كان يدرس في أبولونيا التابعة لمقاطعة إيليريا Illyria عندما علم بأنباء اغتيال قيصر . فعاد إلى روما على الفور ، حيث علم بنياً بقبيلة جوليا Julia له . ولهذا السبب اتخذ اسم جايوس يوليوس قيصر اكتافيانوس Gaius Julius Caesar Octavianus . كما علم أيضاً باختياره ورثا لقيصر . ولكن ماركوس أنطونيوس والزعماء الجمهوريين أنكروا عليه وراثته ، إلا أنه حظى بتأييد قوات قيصر المتيدة وشرق طريقه بأن استعان بجميع الطامعين في الإمبراطورية دون أن يقف إلى جانب أى منهم . وما كان قيام الحكومتين الثلاثيتين في عامي ٤٣ و ٣٧ ثم اندحار بروتس Brutus وكاسيوس Cassius في موقعة فيليبى Philippi عام ٤٢ إلا مراحل مهت لا تتصارع اكتافيوس في موقعة أكتيوم عام ٣١ ق.م. وأصبح اكتافيوس منذ ذلك التاريخ ، في نظر بني وطنه ، مخلص البلاد وأملها الوطيد في السلام (المترجم)

ماركوس أنطونيوس *Marous Antonius* والملكة المصرية كليوباترا ، ثم استعاد وحدة الإمبراطورية ، ووطد السلام وبعث الأمل في استتباب الأمن وفي إقامة حياة جديدة لجمهور المواطنين الذين أنهكتهم الحرب وذهبت بروحهم المعنوية . كان من الممكن أن يروى مثل هذه القصة أى مواطن روماني عادى ، عاش عام ٢٧ ق . م . مثلاً . غير أن تغييرات كبيرة قد طرأت على الجمهورية في ذلك العام . كان المواطنون حتى ذلك الحين يقومون في مجموعهم بانتخاب حكامهم ، وكان مجلس الشيوخ يعمل (اسمياً) عمل الهيئة الاستشارية لهؤلاء الحكام . غير أنه لم يحدث قط أن قام ثمة توازن بين الجمعية الشعبية وبين مجلس الشيوخ ، كما أن الاضطرابات الدائمة والحروب المتصلة التي اجتاحت الأجيال الثلاثة الماضية ، أوعزت بأن نظام الحكم أصبح في حاجة إلى من يمسك بناصيته ويتحكم في قياده . وقد قام قيصر الصغير بهذا الدور فعلاً . فقسمت إدارة الإمبراطورية جميعها بينه وبين مجلس الشيوخ ، وإن بقيت بعض المناطق (وبخاصة الممالك الشرقية) خاضعة لحكامها بما يشبه الاستقلال الاسمي ، وأطلق عليها اسم « الممالك التابعة » . وكان هذا حال ممالك تراقيا *Thrace* وكبادوكية *Cappadocia* وإسرائيل *Judaea* تحت حكم هيرودس *Herodes* الأعظم وكذلك مملكة الألب التي كان يحكمها الأمير الصغير كوتيس *Cottius* . وقد أثمر هذا النظام المبكر في البداية ، لأنه أتاح للبلوك أن يهدثوا من المشاعر القومية وأن يحولوا دون قيام حركات مناهضة لروما ، وأن ينشروا أساليب الحياة المتمدينة الحديثة ، غير أن هذه الممالك ما لبثت أن اندججت شيئاً فشيئاً في نظام الولايات .

واقد زعزعت الحروب الأهلية المتلاحقة الرهيبة ، التي نشبت ثلاث منها خلال الفترة بين عامي ٩٠ و ٣٠ ق . م ، زعزعت أركان المجتمع الروماني ، فعمت الفوضى ، وزايلت الثقة النفوس ، واستولى على قلوب الناس يأس لا يعرف مداه . وكان علاج هذا الأمر ، هو قيام حكومة تتصف بالصرامة

والعدل في آن واحد ، وإعداد جيش قوى قادر على القتال في ظل قيادة سليمة ، وتأمين الناس على ممتلكاتهم من الأرض أو المتاع ، وضمان حرية الانتقال وهذا ما حققته بالفعل للعالم الروماني حياة قيصر الصغير الطويلة . فقد تولى مقاليد الأمور في الفترة ما بين سنة ٣١ ق . م . و ١٤ م . (أى ما يقرب من ٥٠ سنة) . وكان للإمبراطورية أن تتنفس الصعداء في النهاية ، وأن تنعم باستقرار الأحوال بها من جديد ، وأن تهرأ من علالها ومن ثم تسنى لها أن تأمل في استتباب الأمن والسلام اللذين قدر لها أن تستمتع بهما . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعتبر قيصر الصغير مؤسس الإمبراطورية الرومانية ، ولكنى أود هنا قبل أن أتناول بالدراسة الأوجه المختلفة للحياة في ظل الإمبراطورية خلال ثلاثة قرون ونصف من حياتها ، أن أقدم عرضاً موجزاً لتاريخها السياسي في خطوطه الرئيسية ، وسوف لا أذكر في هذا الموجز سوى الأسماء البارزة والأحداث الهامة .

لم يكن لأوغسطس Augustus — فسوف أدعو قيصر الصغير من الآن فصاعداً بالاسم الذى خلع عليه عام ٢٧ ق . م . — لقب من الألقاب التى يحملها الحكام ، بالرغم من السلطات الواسعة المتعددة التى كانت قد خولت له . فلقب عائلته هو قيصر ولقب تمييده أوغسطس Augustus ، كما كان يلقب أيضاً بلقب إمبراطور Imperator باعتباره قائداً أعلى ، غير أن الصفة الوحيدة العامة التى كانت تطلق عليه هي «الرئيس» Princeps . وكانت السلطات المخولة له محدودة زمنياً من الوجهة الرسمية ، ويتحتم دائماً طلب تجديدها ، كما لم يكن لديه أى ضمان فيما يختص باختيار خليفة له عند موته ، ولكنه كان بطبيعة الحال حريصاً على أن يخلفه في منصبه وريث من صلبه . بيد أن السلسلة المتصلة من الكوارث العائلية المفجعة التى نزلت خلال السنوات الخمس والأربعين من حكمه ، لم تلبث أن انتزعت منه ذلك الأمل . أما عن تiberius ، ريبه المتقدم في السن ، الذى خلفه في النهاية عام ١٤ ، فرغم قدرته على الحكم ، كان يفتقر إلى دربة أوغسطس

ومكاته . أما جيوس Galus (كاليجيولا) Caligula الإمبراطور الذى خلفه ، فقد كان مصابا بجنون العظمة وما لبث أن أدت به نزواته إلى اغتياله ، ثم جاء كلوديوس Claudius ليتبوأ عرش روما من بعده ، بيد أن هذا الأخير مع أنه كان يكن شيئا من الاحترام لتقاليد الأولين وبالرغم مما كان عليه من الخسكة السياسية ، إلا أنه لم يكن يتمتع بالقوام الذى يليق برئيس الإمبراطورية Princeps ، أما ريبه نرون Nero الذى خلفه عام ٥٤ ، فقد أثار غضب النبلاء لاضطهاده إياهم ، وأثار سخط الجيش والشعب بإعراضه لإعراضا تاما عن الاهتمام بشئون الجيش وبشفقه الكبير بالفن اليونانى والحضارة اليونانية . وكان انتحار نرون فى شهر يونية من عام ٦٨ بمثابة خاتمة مفاجئة لسلالة أوغسطس ، ولم تكن نتيجة ذلك سوى نشوب الحرب الأهلية .

أما فسباسيان Vespasian الحاكم الذى خرج من هذا الصراع مظفرا ، ليقم أسرة مالكة جديدة ، فإنما يمثل شيئا آخر مختلفا جد الاختلاف . لقد انحدر عن أصل ريفى عريق مهيب ، فنشأ باسلا كفتا ، ميالا إلى البساطة ، نزاحا إلى الفكاهة والظرف ، وبث فى المجتمع الرومانى روحا جديدة ، وأحاله إلى مجتمع طابعه الاتزان وحب الادخار والقدرة على العمل . ولكنه رغم ما بذل من جهد كبير فى تنظيم الإمبراطورية على نحو جديد ، إلا أن ولده الحدث دوميشيان Domitian جلب على نفسه السخط والكراهية لاستبداده ورييته . وهكذا هوت أسرة مالكة أخرى فريسة للاغتيال والقتل (عام ٩٦) .

غير أن آراء جديدة حول ما ينبغى أن يكون عليه رئيس الإمبراطورية ، لم تلبث أن ظهرت فى الأفق منذ ذلك الحين . شرع أهل الفكر فى المطالبة بضرورة التخلي عن مبدأ اختيار الإمبراطور من أسرة واحدة ونادوا بأن يتم الاختيار من بين جماعة المواطنين بأسرها ، على أساس مدى لياقة كل منهم وقدرته على تولى الحكم ، وكان لتطبيق هذا المبدأ أن حكم البلاد ، مدة تقرب

من مائة عام ، نفر من الحكام المحنكين المخلصين المستنيرين . ولعل ما يميز الرومانيين عن غيرهم من الشعوب ، ويصور جانباً بارزاً من حياتهم أن الإمبراطور القائم بالحكم ، إرضاء لإحساسهم بأهمية الرباط العائلي ، كان يقبى من يختارونه من بينهم ، فبرزت إلى الوجود أسماء لامعة : تراجان Trajan وهادريان Hadrian واثنونينوس بيوس Antoninus Pius وماركوس أوريليوس Marcus Aurelius . بيد أنه بما يؤسف له أن ماركوس الذى يعد في تاريخ روما الطويل أوفر من تقلدوا المناصب العامة نشاطاً وأعظمهم إخلاصاً في العمل ، قد رجع إلى مبدأ الوراثة من جديد بأن ترك الخلافة لابنه كومودوس Commodus الذى كانت شخصيته وميوله على النقيض تماماً من شخصية أبيه الفيلسوف وميوله . ومرة أخرى ، في عام ١٩٢ سمعت روما بمصرع أحد الأباطرة ، ومرة أخرى واجهت خطر نشوب حرب أهلية ، ثم ما عثمت أن جابهت حقيقتها المروعة سافرة .

← أما الرجل الذى كانت له الغلبة على خصومه ، ألا وهو سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١) الذى كان مواطناً رومانياً من أبناء إفريقية ، فقد كان يمثل بوضوح انحطاطاً ظاهراً عن مرتبة النبلاء المثقفين الأكفاء الذين ظهروا في القرن الثاني . وقد كان لتدريبه على المجامعة (كما تقول إحدى الروايات) واقعياً في نظراته إلى الأمور ، بينما حملته خبرته العسكرية على الإيمان بالأساليب التعسفية ، وربما كان سبتيميوس يدرك جسامة الخطر الكامن على الحدود ، غير أنه قد بالغ ، دون شك ، في الاهتمام بالجانب العسكري ، وبذلك خرج خروجا تاماً عن التقليد الروماني السليم الذى كان يقضى بالاهتمام بكل من التدريبيين المدني والعسكري على حد سواء . كما أحال العرش ، عن طريق مصادقته لممتلكات أعدائه وخصومه على نطاق واسع ، إلى كنز آخر ومطمع للطماعين ، ساعة أن كان البرابرة يحشدون قواتهم للهجوم على الأراضى الغنية المسالمة التى بدت إذ ذاك أمام أنظارهم ، فكان على الجليل

التالى أن يقين - وبئس ما تبين - النتائج التى تترتب على تولى العسكريين الذين يفتقرون إلى الخبرة المدنية ، مقاليد الحكم . وكان انتصاف القرن الثالث نذير أزمة مروعة فى حياة الإمبراطورية ، إذ تدفقت أعداد غفيرة من القبائل البربرية ، فى ظل قيادات حاذقة فى أغلب الأحيان ، عبر الدانوب ، كما شق القوطيون (Goths) طريقهم صوب الجنوب منحدرين من موطنهم فى السويد إلى البحر الأسود ، بل وتوغلوا أيضا فى بحر إيجه . واستطاعت بلاد فارس الواقعة على الحدود الشرقية ، تحت قيادة أسرة مالكة جديدة من أمراء الساسانيين شديدى البأس ، أن توقع الهزيمة بالفرق الرومانية فى معركة سافرة ، بل تمكنت من أسر الإمبراطور فاليريان Valerian أيضا . واستفحلت الأخطار التى تهددت الإمبراطورية من الخارج ، بقيام ثورات وفتن فى الداخل ، ولكن من العجيب جداً أن هذه الإمبراطورية الممزقة الأوصال ، المتسداعية البناء لم تصب فعلاً بانحيار تام . والفضل فى بقائها يرجع فى الواقع إلى استماتة الأباطرة الرومان من أمثال قليب Philip وديكيوس Decius وجالينوس Gallienus فى الدفاع والدود عنها ، ويرجع أولاً وقبل كل شئ إلى « المتقدين » العظميين والجنديين الباسلين أوريليان Aurelian وكلوديوس الثانى Claudius II إذ عمدت روما إلى تعديل معدات جيوشها وأساليبها الحربية إلى إدخال التحسينات عليها مستفيدة ، كما هى عادتها دائماً ، من خبرات أعدائها . فأمكن صد البرابرة ووقف زحفهم ، وسد الثغرات فى خطوط الدفاع وإعادة الطمأنينة إلى قلوب الأهلى الواجفة ونشر ألوية الوحدة عليهم من جديد . ولو أن هذا العمل كان عملاً مجسداً فذاً ، إلا أن ثمنه كان باهظاً . خلال القرون الثلاثة التى تلت تولى أوغسطس الحكم ، انتقلت السلطة العليا شيئاً فشيئاً من يد طبقة النبلاء الرومانيين إلى يد الطبقات الأرستقراطية فى إيطاليا وفى الولايات ، ومن هؤلاء إلى القواد العسكريين فى الولايات ، وهؤلاء القواد يمثلون عادة فئة غير مثقفة تتصف بالوحشية والفظاظة ، ولكنها تتميز بأن اليأس لا يتطرق قط إلى نفوس بنىها ، وأنها

لا تثني عن الدفاع عن قضيتها . ووقع العرش في النهاية ، في عام ٢٨٤ في يد حاكم إداري عسكري من ليريا ، هو دقلديانوس . فقسم الإمبراطورية رغبة منه في مجابهة مقتضيات الموقف الجديد ، إلى أربعة أقسام ، وبذلك أصبح يشارك ثلاثة أشخاص آخرين في الاضطلاع بأعباء القتال والحكم ، وكان عهده فاتحة مرحلة جديدة هامة في نظام الحكم في الإمبراطورية (انظر الفصل التاسع) .

وإذا تساءلنا ، كما يحق لنا ، عما أقام صرح الإمبراطورية المتداعى خلال فترة السنوات الخمسين العصيبة التي مرت بها بين عامي ٢٣٥ و ٢٨٥ ، فعلى أن نذكر هنا عوامل ثلاثة على أقل تقدير . - الأول والأهم هو الوعي التدريجي العميق — وقد دعاه الرومانيون باسم *disciplina* — وهو الوعي الذي نما وتطور خلال العصور المختلفة ، والذي أمد المواطنين الرومانيين ، سواء في المسائل المدنية أو العسكرية أو الدينية ، بدرية كبيرة وبث في نفوسهم الثقة في قدرتهم على حسن التصرف حيال الظروف المحيطة بهم . والعامل الثاني هو وحدة الشعور ، التي لا شك في وجودها ، والتي كانت تربط بين المواطنين بعضهم البعض ، على اختلاف أوطانهم وقبائلهم . إذ كانت روما تمنح الأمم المغلوبة حياة متمدينة منظمة رعية ، كما كانت تقطع لهم الوعود بمنحهم حقوق المواطنة الكاملة في نهاية الأمر . وعلى العكس من هذه المزايا التي انفرد بها الرومان ، لم يكن لدى البرابرة الفزاة نظام جديد ، يمكنهم أن يلوحوا به لمواطني الولايات ، لغراء لهم بالخروج عن ولائهم لروما . والعامل الثالث هو الاعتقاد الراسخ والشعور العميق بأن هذا السكان الهائل المتسق للإمبراطورية ، التي صمدت لموادي الزمن واطردت في القوطال هذه القرون ، لا بد وأن مرجعه رضا الآلهة عنها ، وأن هذا هو الشيء الوحيد الثابت الخالد في عالم شهد ضعف كثير من الدول وانهارها ، فلا شك بعد ذلك أن روما لن تقهر أبداً . فإدام

مواطنوها يتبعون أساليب الحياة ، ومناهج التدريب ، التي خلفتها لهم ، وما داموا مستمسكين بوحدتهم قائلين حتى ولائهم للإمبراطور ، وما داموا يراعون الطقوس الدينية ، ويهتمون بأدائها ، فيقينا أن الآلهة ستظل راضية عنهم ، وبذلك تصبح روما بحق جديرة بالتسمية التي شرع الناس فعلا في مناداتها بها أى « المدينة الخالدة » (*urbs aeterna*) . ويظهر أن أحداث القرن الثالث عشر قد أثبتت ذلك بالبرهان القاطع ، فعلى الرغم من أن الموقف كان خطيرا للغاية ، فإن قدرة الآلهة وشجاعة مواطني روما قد دعما صرح الإمبراطورية المتداعى . وما إن أوشك القرن الثالث على الاقتراب من نهايته ، تحت حكم دقلديانوس ، حتى تجدد الأمل وكثر الحديث عن الإصلاح والتجديد *Restauratio, Renovatio* . ولعل ذلك انطوى من ناحية على عاطفة لا يقرها المنطق والعقل ، إلا أنه كان من ناحية أخرى تفكيراً عملياً سليماً . فإن مدينة صمدت لأحداث الزمن طيلة عشرة قرون — إذ احتفل الإمبراطور فيليب عام ٢٤٧ بذكرى العيد الألفى لقيام روما احتفالا مهيبا — لا يمكن أن تقهر في يسر ، ولقد أيدت حقائق التاريخ الناصعة مثل هذا الشعور الوطنى العميق .

الفصل الأول الإمبراطور شخصه - مركزه - معاوله

لعله من الممكن أن نرجع تاريخ قيام الإمبراطورية الرومانية إلى شهر يناير سنة ٢٧ ق . م ، أى عندما طلب مجلس الشيوخ من القنصل القائم بالرياسة: جايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس O. Julius Caesar Octavianus أن يضطلع بقدر أعظم من الواجبات ، وذلك بأن يتولى شئون الولايات الواقعة في بلاد الغال وإسبانيا وسوريا ، كما قلده المجلس قيادة القوات المسلحة في تلك البلاد . ولكن هذا الرجل لم يلبث — مع تطور الموقف عاماً بعد عام — أن أصبح بالفعل القائم بالحكم في الولايات المتاخمة للحدود ، والمناطق المضطربة القلقة في الإمبراطورية ، عن طريق مندوبين يسمون Legati يختارهم بنفسه ، وبات أيضاً القائد الأعلى Generalissimo للجيش الرومانية ، ومن ثم أصبح كافة الجنود والضباط العاملين يقسمون يمين الولاء أمامه لا أمام رئيس الجمهورية . وفصلاً عن ذلك ، فإن لقب التشريف « أوغسطس » Augustus الذي خلع عليه في الشهر عينه ، رفع من شأن مركزه وقدره ، لأن لفظة أوغسطس كانت تعني شيئاً قد خصص وكرّس لخدمة الآلهة وليكن معبداً أو آنية خاصة بالطقوس الدينية أو طقساً مقدساً ، وبذلك أحاطه هذا اللقب بهالة ترتفع به عن مستوى البشر إن لم تكن تضفي عليه صفة الألوهية . على حين أن مجلس الشيوخ قد احتفظ بحكم تلك الولايات التي كانت غالياتها تتاخم البحر الأبيض وتتميز بانصياعها ولسلس قيادها . وكان المجلس يعين سنوياً ، من بين أعضائه ، قناصل

أوبرايتوريس سابقين حكاما لهذه الولايات عادة لمدة عام ، أو ثلاثة أعوام على أكثر تقدير . وهكذا قام هناك ما يشبه التوازن بين سلطات مجلس الشيوخ وسلطات أوغسطس ، فجلس الشيوخ كان يدير الولايات الداخلية المستقرة التي يسودها السلم بينما كان أوغسطس يضطلع بحكم المناطق المتاخمة للحدود والبلاد الأشد اضطرابا ، وكان يحى هذه وتلك بالقوات الخاضعة لإمرته ، المرابطة في تلك المناطق .

بيد أن هذا التوازن لم يكن إلا توازنا ظاهريا ، ذلك لأن أوغسطس لم يكن قائدا أعلى لحسب ، بل كان في مقدوره التدخل تدخلا فعالا في كل مرفق من مرافق الدولة . فعلى الرغم من أنه تخلى عام ٢٣ ق . م . عن منصب القنصلية ، إلا أنه منح السلطة البروقنصلية *Imperium Proconsulare* المعهودة التي تخول له حكم الولايات ، وإن كانت هذه السلطة *imperium* قد وضعته أيضا في مصاف نواب القناصل *Proconsuls* ونواب البريتوريس *Propraetors* (لا أكثر من ذلك) فإنه قد نص صراحة على أن هذه السلطة أرفع من مثيلاتها . وثمة ثلاث حقائق أخرى ، وهى استحواذة على سلطة التربيون ، وتمتعه بالسلطة المعروفة بالـ *auctoritas* ووجوده في روما ، أكدت جميعها عظيمته وعلو شأنه دون منازع . ذلك لأن سلطة التربيون جعلت في مقدوره أن يعترض ، إذا ما اقتضت الضرورة ، على أى إجراء ، كما خولت له حق العفو في القضايا التي يفصل فيها خارج إيطاليا ، أما تمتعه بالـ *أكتوريتاس* فعناه أنه كان يقام لمشورته وآرائه وزن كبير ، وأن من الحكمة ألا يحاول الحكام عصيانها ، كما كان أوغسطس في العادة يخور كل ما يدور في روما ، فهو دائما رهن الإشارة ، قابض على دفة الأمور دوما . وبمضى الزمن ، لم يجد لعاقل أن يتجاسر على معارضة رئيس الإمبراطورية ، الذى كانت تستند مكاتته السامية إلى سلطاته الدستورية الواسعة ، والذي كانت تخضع لإمرته ثلاثون فرقة تقريبا .

وهكذا نرى أنه وإن كان قد قدر أن يشارك أوغسطس مجلس الشيوخ في الاضطلاع بمهام الحكم في الإمبراطورية الرومانية ، فلم يكن هناك أدنى شك فيمن كانت له السيادة من الشريكين . بيد أن الحاجة لم تدع قط إلى إثارة الخلاف حول هذه المسألة ، ذلك لأن أوغسطس الذى يعد أيضا العضو الأول في مجلس الشيوخ ، لم يكن محبا للظهور ، كما أنه عمد دائما إلى إخفاء سلطاته عن الناظرين ، فكان يؤثر أن ينظر إليه على أنه مواطن يعيش بين إخوانه المواطنين ، وكان يتجنب الظهور — حيثما كان — بمظاهر الآبهة والسلطان ، كما أنه وضع نفسه قريبا من الناس ، وكان بطبيعته وديعا متواضعا ، وقد أثار دهشة الكثيرين من زوار روما ما كانت عليه دأره من بساطة ورقة حال .

ومع أنه سعى جاهدا لكي يظهر فقط في ثوب المبرزين أقرانه ، إلا أن مظاهر التكريم والتميز التي أحيط بها دعمت وأبرزت مكانته الرفيعة السامية . فأمام داره المتواضعة ، علق لإكليل من أغصان شجرة البلوط ، وهو الوسام الذى يمنح عادة لمن أبدى شجاعة في إنقاذ حياة أحد المواطنين ، وكان يعلو واجهة الدار سقف هرمى ، يجعلها قريبة الشبه بالمعابد الدينية . كما قام مجلس الشيوخ والشعب عام ٢٧ بإهدائه درعا ذهبيا يحمل نقشاً يقول : « إن هذه الهدية قد قدمت لتكون شاهدا على شجاعته ورحمته وعدالته وورعه » . ومنذ ما يقرب من أربعة قرون مضت شغل الفلاسفة والمفسكرون بالتأمل في الفضائل التى ينبغى أن يتحلى بها الحاكم المثالى ، بيد أن هدية الدرع هذه ما لبثت أن أعلنت للبلا أن الحاكم المثالى قد حل في هذه الساعة واللحظة ، الحاكم القوى الجبار عن رحمة ، والعاقل المنصف في معاملاته ، والصادق الصالح أمام الآلهة والناس . كان الإقدام والشجاعة صفتين لازمتين للقائد الرومانى . وإذا كان أوغسطس على رأس الجيش فإن القواد من دونه يستمدون القوة منه ، ويظفرون بالانتصارات بشجاعته ، والحقيقة أن النصر كان حليفه دائما حيثما ذهب ، ولا غرو فإن تمثالا ذهبيا لإلهة النصر

كان يقوم دوماً في حجرة الإمبراطور الخاصة . بالرحمة والعدل فضيلتان لازمتان لأى حاكم . أما الورع ، أو ما كان يعرف عند الرومان باسم *Pietas* فالمتصور به العلاقة الصحيحة بين الآلهة والناس . وإن بقاء روما على قيد الحياة ليتوقف دوماً على سلامة الصلة بين الآلهة — بين تلك الكائنات العلوية غير المرئية التى تقوم بحماية الدولة — وبين المواطنين المرتبطين على الأرض ، إذ لا يتم توطيد السلام الإلهي *Pax Deorum* ، إلا إذا آمن المواطنون الرومانيون قاطبة بألهتهم الرومانية وعبدوها وأقاموا لها الطقوس الواجبة على أكمل وجه . وكان الإمبراطور — كما يستدل من لقبه « أوغسطس » — بمثابة وسيط بين الآلهة والناس ، كما كان مثلاً يحتذى فى الورع . وقد تولى أوغسطس ومن جاء بعده الرئاسة العليا للكهانة فى الدولة الرومانية ، وكانوا جميعاً رعاة لعذارى الإلهة فستا *Vestal Virgins* ، اللاتى كن يقمن بإذكاء النيران التى لا تطفأ فى معبد إلهتهم التى تمثل إلهة موقد الدار الرومانية فستا *Vesta* . وهكذا كانت الديانة الرومانية والإمبراطور الرومانى ، مرتبطتين ببعضهما البعض أوثق ارتباط .

إن الشجاعة والرحمة والعدل والتقى ، وإن كانت بالطبع صفات الحاكم المثالى ، فإنها أيضاً ترسم الفضائل التى يجب أن يتحلى بها أى فرد من عامة الناس ، محب للقتال ، عادل لطيف المعشر ، والحاكم ليس بإله بل مواطن مبرز بين إخوانه المواطنين . وعلى الرغم من أن تغييرات كثيرة طرأت خلال القرون التالية ، إلا أننا نرى أن قسطنطين *Constantine* قد تقبل — بعد مضى ثلاثمائة وخمسين سنة على هذا التاريخ — فى رضا بالغ هدية الدرع الذهبى والفضائل الرومانية المنقوشة عليه . أما الشرق اليونانى الذى ألف قيام الملكيات الكبيرة ، فقد كان ينظر إلى أوغسطس نظرة واقعية ، إذ كان يعده ملكاً وينادى به كذلك ، ويتنظر من الأباطرة أن يعلنوا ويبرهنوا على حبهم لبني البشر *Philanthropia* واستعدادهم لتقديم يد المساعدة للرعايا الذين يخضعون لحكمهم ، وورغبتهم فى

العمل لصالحهم ، ومن هنا جاء اللقب الشائع Euergetes أى «المحسن» الذى يطلق على الأباطرة . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان هناك ميل كبير إلى اعتبار الإمبراطور ، وهو لا يزال على قيد الحياة ، إلها (theos) أو إلى مساواته بالإله المحلى كسواوة نيرون بإله الشمس فى جزيرة رودس . أو تشبيهه هادريان بالإله زيوس الأولمبى Zeus of Olympia الذى يعبد فى الإغريق قاطبة . أما فى روما وإيطاليا فكان من المتعذر اعتبار أى إمبراطور على قيد الحياة بين آلهة الدولة لأن مجلس الشيوخ كان وحده صاحب الحق فى إضافة آلهة جديدة إلى مجموعة الآلهة الرومانية ، ومجلس الشيوخ إن هو إلا ذخيرة للعادات والتقاليد . وهذا هو السبب فى مشاعر السخط والنفور التى لقيها كالجيولا ونيرون ودميشيان وكومودوس لمحاولة كل منهم الخروج على هذا التقليد بدرجات متفاوتة .

كما اختفت بشكل ملحوظ ، منذ بداية النظام الرئاسى أيضا ، الآلهة والعظمة التى كانت تصاحب عادة الملكيات القديمة . فأوغسطس ، رغم احتفائه بحرس خاص من الجنود الجرمانيين ، ورغم أنه كان يظهر فى المناسبات الرسمية بصحبة اثنى عشر حاملا للعصى liitores ، كان حريصا على تجنب المباهاة والظهور ، وقد رأى ذات مرة أن يدخل المدينة ليلا حتى يوفر على الأهلىن مشقة الاحتفال به والاحتفاء بمقدمه ، كما كان يظهر بشخصه فى المحاكم العامة عند استدعائه إليها ، بل إنه طلب من شاك خجول أن يمد يده بشكواه فى جسارة لا أن يفعل ذلك يقدم فلساً لفيل ، ولقد أمّنت هذه المكانة وهذه الشعبية أغسطس على حياته ، فاقطعت عادة تفتيش الزوار قبل الدخول عليه . غير أنه لم يعد هناك مفر بعد تزايد سلطات رئيس الإمبراطورية ، وتطورها ، واستقرار النظام نفسه واستلغاته الأنظار ، من أن تزداد مظاهر الآلهة والرواق . فكان نيرون ، بما عرف عنه من شغف بالمتظاهر وولع شديد بتسليط الأضواء على شخصه ، أول من أدخل نظام الجوقات التى تدرب تدريبا محكما على التهليل لمقدمه وتحيته بهتافات قصيرة فى

نغمات إيقاعية ، كما لم يكن هناك مفر من أن تتأصل بجذور هذه العادة شيئاً فشيئاً حتى يصبح من المقرر في أواخر القرن الثاني ، أن يتقدم موكب الإمبراطور دائماً ، حملة المشاعل وحلة الشموع والفتية الذين يلوحون بالمباخر ، وسط الحتاف والدعاء للذين يرتفعان على أنغام الموسيقى . وإن العرض المهيب الشديد التعقيد والمراسيم التي تقام في أثناء المآتم الإمبراطورية العظيمة (كما وصفها المؤرخ اليوناني هيروديان Herodian) لتصور لنا بعض ما كان يجري في هذه الاحتفالات الضخمة والمهرجانات الكبيرة ، يقول هيروديان : « وعلى مذبح عظيم الارتفاع وقد تماشل من الشمع ، مكسو بملاءات موشاة بالذهب وأغطية ثمينة نادرة ، يلتف حوله رجال ونساء من عليبة القوم في لباس الحداد ، وبعد انقضاء أيام سبعة ، تقل التمثال في موكب حافل يضم جوقات الفتيات والفتيان الذين يشدون له الترانيم الحزينة الباكية ، تقل إلى الفورم Forum ومنه إلى « ميدان مارس Field of mars » ، حيث أقيم بناء خشبي يرتفع إلى أربعة طوابق ، مزين بالأكسية الموشاة بالذهب والتماثيل العاجية والنقوش والرسوم . وكان المذبح مقاماً بالطابق الثاني ، وقد غمر بالمطور والتوابل والأعشاب ذات الرائحة الزكية ، كما أخذت كوكبة من الفرسان في التحليق حول المحرقة في سير بطيء . وفي النهاية عندما أشعلت النيران في المحرقة ، أطلق نسر من الطابق العلوى لخلق مرتفعاً في الفضاء حاملاً روح الإمبراطور الراحل إلى السماء . »

وكان من الطبيعي أن يصحب هذا الميل إلى مظاهر الآبهة والعظمة ، اهتمام متزايد بمظاهر التقديس في شخص الإمبراطور . فباعتباره رئيس الدولة ، لم يكن هناك بد من أن ينظر إليه على أنه يمثل الجمهورية ويمتثل مكانة خاصة بالنسبة للآلهة (انظر الفصل الثامن) ، وثمة تقليد كان يقضى بأن تقام احتفالات عظيمة كل مائة عام (Ludi Saeculares) ، لإيداناً بانقضاء عهد من العهود وببدء قرن جديد في ظل عناية الآلهة ورعايتهم . وقد أقيمت مثل هذه الاختفالات

بصورة رسمية توحى بالرهبة تحت رعاية أوغسطس ، وذلك عام ١٧ ق . م .
 لتكون إيداناً بانقضاء فترة الحروب الأهلية المروعة ، وما جرته من اضطراب
 وفوضى ، وفاتحة لعهد جديد يسوده السلم والنظام والعدل . وكان اسم أوغسطس
 على رأس القائمة التي ضمت أسماء من حضروا الحفل . ولكنه ما إن توالى
 السنين وتلاحقت الأعوام ، حتى أخذ الإمبراطور وزوجه — وهذا هو
 الأهم — يلعبان دوراً كبيراً في شئون البلاد ، فكانت تقام من أجلهم الصلوات
 الثابتة للدعاء بسلامتهم وبصون دورهم وأسرهم . والواقع أن الأمر قد ذهب
 إلى أن أصبح الإمبراطور يتمثل في نفسه ، رويداً رويداً ، جلال الشعب
 الروماني ، ويحمل سمة القوة والإرادة الإلهيتين اللتين صارتا — بصورة تدعو
 إلى الإعجاب — هيئة روما ودعمتا سيادة تلك « المدينة الخالدة » كما أصبحت
 تدعى . وما من شك في أن أى فرد ، بغض النظر عن مدينته أو موطنه ،
 وبغض النظر عن الآلهة الوطنية التي يتعبد لها — لابد وأن يتعرف على قوة
 إلهية *Numen* تعمل عملها في الإمبراطور الحاكم ، ذلك الإنسان الذي يحظى
 برضاء الآلهة وينعم ببركتهم ، ولا يختلف في ذلك اثنين ، أما الإمبراطور ،
 فسواء أكان يقيم في قصره في روما أم كان يطوف بولاياته ، فهو يمثل في شخصه
 المنظور الكريم الجبار ، تلك القوة الإلهية التي تقيم دعائم مدينة روما وتحفظ
 كيان شعبها . وما لبثت أسرة أوغسطس وعائلته أن اكتسبت بمضى الزمن
 صفة القدسية فأضحت *Divina domus* (١) وأصبح الانحدار من أوغسطس
 بمثابة سند وتكأة لتولى العرش ، وعلى الرغم من أن الأسر المالكة التي تربعت
 على عرش الإمبراطورية من بعده ، وهي أسر فلافيوس *Flavius* وأنتونينوس
Antoninus وسيفيروس *Severus* ، لم تكن تمت بأية صلة لأسرة أوغسطس
 الأولى ، فإنها منحت لقب أوغسطس واتخذت اسم قيصر ، وبذلك أضفت على

(١) الترجمة الحرفية « بيت مقدس » ، مجازاً « عائلة أو أسرة مقدسة » .

نفسها مثل ذلك البريق وتلك الاحقية الشرعية التي كانت ترتبط بذلك الاسم الكبير . وإذا كان الإمبراطور يمثل بصورة ظاهرة ما هو خفي من قوة روما العتية السرمدية فإنه شاركها بدرجة ما في مثل ما كان لها من خلود ، ومن ثم أصبح من الممكن بمضى الزمن أن يخاطب هكذا : « يا صاحب الخلود ، » أو باللقاب مأخوذة عن تلك الفضائل التي يتوق العالم إلى أن يراها ممثلة في حكامه ، مثل « يا صاحب الرحمة ، و « يا صاحب الحكمة ، و « يا صاحب الجلالة ، و « يا صاحب الغبطة ، . ولقد جنحت هذه الألقاب ، وكثير غيرها — التي بقي لنا منها لقب واحد على أقل تقدير — جنحت إلى تمجيد الحاكم باعتباره المصدر الأوحده للحق والقوة .

ورغم كل ما سبق ، فإنه لا يحق أن يعامل الإمبراطور أو يخاطب — وهو على قيد الحياة — على أنه إله (deus) ، وذلك باستثناء بعض الحالات الشاذة المذهلة مثل جنون كاليجيولا ، أو غرور نيرون واستعلائه أو استبداد دوميشيان الشديد أو الهوس الديني الذي أصيب به إللاجابالوس Elagabalus ، هذا ورغم الإيمان بأنه قد وهب من قبل الآلهة ، وأنه يمضى على هديها ، ورغم أنه من الممكن أن يقابل بمظاهر التكريم التي تقارب في الشبه — ولا تماثل — تلك التي يحاط بها الآلهة . ولن تعتبر معاملة الإمبراطور على النحو السالف ، سوى خروج سافر على كل ما جرى عليه الرومان منذ القدم . بيد أنه كان يعد من اللائق عند وفاة الإمبراطور أن يضمه مجلس الشيوخ إلى قائمة من تعبدهم الدولة رسمياً ، اعترافاً بما حققه من أعمال مجيدة وما جلبه من خير عجم ، وتقديراً لخدماته ، (meritum) وكانت هذه هي الجائزة التي نالها أوغسطس وكلوديوس وقسباسيان وتيتوس ونيرفا وتراجان وهادريان وأسرة انتونينوس وبيرتيناكس Perinax وسبتيميوس سيفيروس Septimius Severus وكثيرون غيرهم . واحتفظ بعضهم بهذه القدسية خلال عدة قرون ، فذكرى أوغسطس المؤله Divus Augustus ، باعتباره

مؤسس الإمبراطورية ، ظلت ثابتة متأصلة في عقول شعبه وأفئدتهم ، وكذلك الحال مع تراجان أيضا ، والحال مع ماركوس أوريليوس Marous Aurelius (الذى سادت عبادته حتى القرن الرابع تقريبا) غير أنه قد قدر لواحد أو اثنتين منهما أن يطويهما النسيان ، أو يخليا موضعيهما الآخرين ، وهذا ما حدث لكلوديوس الذى طفت على عبادته ، فيما يبدو ، عبادة بيرثينا كس . وقد أمر أحد الأباطرة ، ويرجع أنه ديكوس Desius ، رغبة منه في إذكاء المشاعر الوطنية ، وتذكرا للشعب بمفاخر الماضي ، وذلك قبيل الاحتفال بمرور ألف سنة على تأسيس روما ، أمر بأن تضرب مجموعة من النقود التذكارية لإحياء ذكرى الأباطرة المؤملين ، من أوغسطس إلى سيفيروس الإسكندر Severus Alexander ، تمثل أحد عشر إمبراطورا ، كما أننا نسمع أيضا في وقت متأخر عن قائمة منتخبة من الأباطرة المختارين لعبادتهم ، ولدينا ما يؤكد أن فيسباسيان وتراجان وهادريان وماركوس أوريليوس وسبتيميوس سيفيروس ، وعلى رأسهم أوغسطس ، قد احتفظوا بمكاتبتهم أبدا .

كان هذا هو وضع الإمبراطور : فإن مهام إدارة هذه الرقعة المترامية التي تحتلها الإمبراطورية قد قسمت بين مجلس الشيوخ (ص ١٨) الذى كان يعصت إلى ولاياته بحكم من بين الموظفين السابقين يختارون بالقرعة (بحاشيا للتحويل والرشوة) وبين الإمبراطور الذى كان يختار لحكم الولايات الهامة رجالا من مرتبة أعضاء مجلس الشيوخ ، ويختار فرسانا لتعيينهم في المقاطعات القليلة الأهمية ، وكان كل من هؤلاء الحكام يتقاضى مرتبا مجزيا ثابتا ويبقى في منصبه حسبما يرى الإمبراطور . وهكذا نرى أن حكام الولايات كانوا يمتدنون في الأصل من بين أفراد الطبقة التي كانت تمثل الثراء والعلم والخبرة الإدارية الطويلة ، ألا وهي طبقة الشيوخ . ولما كان في وسع الإمبراطور ، لا أن يوصى بانتخاب من يشاء لتولى المناصب العامة لحسب (ومعنى ذلك أن مثل

هؤلاء كانوا يفوزون بالتزكية (بل كان يحول له أيضا ، كما جرت العادة ، الحق في خلق أسر جديده من النبلاء ، وأن يضم إلى مجلس الشيوخ أعضاء من أصول غير عريقة وإن كانوا ممن يشهد لهم بالجدارة والتفاني في الخدمة ، فإذا ذلك أصبحت طبقة مجلس الشيوخ تستمد أعضاءها الجدد ، بصورة مطردة ، من بين الطبقات الدنيا ، وبذلك أمكن سد الثغرات التي تحدثها أرزاء الحروب الأهلية وبلاياها . وأصبح أيضا في وسع أبناء هذه الطبقة أن يدخلوا ، عند بلوغهم الثامنة عشرة من العمر ، في سلك الوظائف العامة التي تتناوب فيها فترات العمل في الوظائف الإدارية الصغيرة مع فترات الخدمة العسكرية ، فيتمسك لهم بذلك أعداد أنفسهم لتولى المناصب العليا .

ذلك لأن الترقى أصبح في النهاية وفقا على من هم على استعداد بالفعل للاضطلاع بالأعباء الملقاة على عاتقهم . ولو انتقلنا إلى ما بعد هذا التاريخ بحيلين أو ثلاثة فإننا نجد أن الأمل قد يداعب الجندي العامل نفسه ، الذي يتميز على أقرانه شرفا ومرتبة ، في أن يرى أبناءه وقد ارتقوا إلى مرتبة الفرسان أو ربما يتجاوزون هذه المرتبة أيضا ، والمعروف أنه كان من الميسور ترقية الفرسان إلى مناصب عليا . ومثال ذلك أنه قد حدث من جراء الحرب الأهلية التي نشبت عام ٦٩ ، أن ظهرت لجوات بصفوف الطبقة الأرستقراطية الحاكمة ، فاضطر فئسيان إلى أن يختار من بين طبقة الفرسان من يتولون قيادة فرقته ، فضلا عن ذلك فإنه أعاد النظر خلال عامي ٧٤ و ٧٥ ، باعتباره رقيبا ، في قائمة أعضاء مجلس الشيوخ ، فضم إليها عددا كبيرا من الأعضاء الجدد ممن برهنوا . بتفانيهم في خدمتهم العسكرية (والقتال إلى جانبه) على حماسهم وجدادتهم ، والحقيقة أن كانت هناك دورة متصلة : فتنة أسر تأخذ في الارتفاع شيئا فشيئا ، وفي تدعيم مركزها إلى أن تنضم في النهاية إلى الطبقة الأرستقراطية ، في مجلس الشيوخ ، تلك الطبقة التي كان يرغبها الجميع ، وبذلك

تمحل محل الأسر العريقة التي انقطعت ذريتها أو هوت مكانتها . وقد حدث في القرن الثاني أن ادمت إجدى الأسر ، وهى أسرة أكيليوس جلابريونيس Acilii Glabrones أنها من سلالة أينياس Aeneas ، غير أنه لا يرجح وجود أسر كثيرة من هذا القبيل . ولم يشهد القرن الثاني أحداً من سلالة أوغسطس يشغل منصباً بارزاً ، وربما كان هذا هو الحال أيضاً بالنسبة لأسرة فلافيوس ، ولكن هذه الأسر العريقة قد أفسحت مكانها لأسر كبيرة ارتفع شأنها بين أهل الولايات . ومن ثم انحدر كل من تراجان وهادريان وانتونينوس وماركوس أوريليوس من أسر كبيرة عظيمة النفوذ كانت تقطن إسبانيا وجنوب فرنسا ، كما لم يعد الإمبراطور ، في ذلك الحين ، لينتدق في ضم يونانيين من بلاد آسيا الصغرى إلى مجلس الشيوخ وفي أن يبعث بهم لتولى قيادة الفرق الرومانية أو لحكم الولايات التي كانت لهم بها دراية خاصة . ولم يكن هؤلاء اليونان لينالوا حقوق المواطنة أو ليظفروا بالانضمام إلى مجلس الشيوخ ، إلا بعد مرورهم بامتحان صير ، ذلك لأنه لم يكن من السهل قط كسب رضا الإمبراطور أو مستشاريه . ولعل من أعظم ماحققته الإمبراطورية أنها لم تكتف بالسماح لغير الرومان بنيل حقوق المواطنة من أجل الخدمات التي يؤدونها ، وتقلد هؤلاء الرومان الجدد المناصب العامة ، بل لقد وفقت أيضاً إلى اختيار التوقيت الزمني المناسب لقبولهم في الطبقة الممتازة المسئولة كان يقوم — كما رأينا — بأعباء الحكم في كل من الولايات التابعة لمجلس الشيوخ وتلك التابعة للإمبراطور ، أناس على قدر كبير من الحكمة وفي مرتبة أسرية رفيعة ، ولعله من الغريب حقاً أن هؤلاء الحكام ، كانوا لا يبعثون إلى الولايات التي كانت لهم بها خبرة سابقة في أثناء توليهم قيادة القوات هناك ، ولو أن ما حدث في بريطانيا بعد استثناء بارزا لا يتفق والفكرة السالفة ، يد أنهم كانوا يشدون رحالهم إلى الولايات بمجرد أن يتم تعيينهم ، مستندين إلى خبرتهم في القيادات العسكرية والمناصب المدنية ، مصطحبين معهم أيضاً أصدقاءهم

من كانوا يعتمدون على خبرتهم ودرايتهم فيتخذونهم أعواناً مقربين لهم .
ويصبحون معهم ، فضلا عن هؤلاء ، هيئة إدارية وتنفيذية تتألف من ثلاثين
شخصاً ، وضابطاً أو اثنين من الضباط برتبة قواد مائة وموظفين للبراسلات
ومحاسبين وكتبة ، وخداما وحشما ، وطائفة أخرى من الموظفين ممن يمكن تسميتهم
باسم موظفي الشرطة ويطلق عليهم باللاتينية *speculatores, questionarii* وكان
لهم في الولايات السلطة على المواطنين الرومانيين المقيمين بها ، وعلى سكانها
الوطنيين أيضاً ، ولكن كان عليهم أن يراعوا وجوب احترام الحقوق والامتيازات
والعادات السائدة في المدن القديمة الشهيرة مثل أنطاكية *Antioch* وأفسس
Ephesus وميليتس *Miletus* وطرسوس *Tarsus* . وكان أعيان المواطنين
في الولايات يقومون بدور المستشارين القانونيين للحاكم ، عند النظر في القضايا ،
كما كان للوطنيين الرومانيين ذلك الحق الشهير المعروف باسم «البياذ بقيصر» ،
وفيما عدا هذا الحق ، فقتضاء الحاكم مطلق . وكان من بين واجبات الحاكم القيام
بمحاملات التفتيش ، وحضور الاحتفالات العامة والمراسيم المدنية حيث يسهب
الخطباء في الغالب في خطبهم ويكثرون من الإشارة إلى مفاخر الماضي وأجداد
العصر الغابر ، ويمعنون في إطراء الحاكم وتملقه ، وهو في ذلك مكره على الإنصات ،
حريص على ألا تبدر منه بادرة سأم أو ملال . وكان عليه أن يتبين وجه الحق
وسط حشد من الخطباء المفوهين البارعين ، كما كان عليه أن يدرك بالفطرة
السليل إلى مواجهة المواقف الدقيقة وإلى تجنب نشوب ثورات شعبية ، وتحاشي
الآخطار المحدقة بشخصه أيضاً ، فإن حاكماً لا يحظى بحب الجماهير ، تحدته نفسه
بالخروج في بعض الولايات بلا حراسة مشددة ، هو ملق بنفسه في التهلكة .
وقد وجد موظفو الإمبراطورية في كافة الأباطرة ، حتى الفاسدين منهم ، قضاء
قساة يأخذون بالشدة كل من أساء التصرف ، ويروى أن تيبيريوس *Tiberius*
قد استدعى أحد عمال الخراج للشول بين يديه ، فما كان من عامل الخراج هذا

وقد استولى عليه الذعر والهلع إلا أن أثر تجرع السم على أن يواجه قضاءه المحتوم. بيد أن الشواهد تدل على أن إدارة الولايات في القرنين الأول والثاني ، كانت في مجموعها إدارة محكمة أمينة ، ولو أن ما حدث في ولاية اليهود يعد الاستثناء الصارخ الوحيد لهذه القاعدة ، أما عن حسن اختيار الأباطرة لولايتهم ، فهناك الدليل : لقد بلغ تيربوس يوليوس سيفيروس *Tiberius Julius Severus* ، اليوناني الأصل الذي ولد في كبادوكيا *Cappadocia* ، في عام ١٥٠ تقريباً ، من ذبوع الصيت لمدائه وحكمته في إدارة مقاطعته في بيثينيا *Bithynia* ، درجة بقيت معها ذكره عطرة يلهج بها الشعب مدة تجاوزت الثمانين عاماً .

وكان أمام أهل الولايات سبلاً مختلفة للإفصاح عن مشاعرهم ، سواء انطوت على سخط أو رضا ، فكان في وسع المجالس البلدية في المدن التي يزخر بها الشرق أن تصدر قرارات التقدير والتكريم ، بينما كان في مقدور الأهالي عند اجتماعهم بالمسارح أن يبلغوا الحاكم توا بشكواهم أو مطالبهم . أما في الولايات الغربية ، فقد أدخل أوغسطس تقليداً يقضى بعقد مؤتمر عام ، يجتمع مرة كل عام في عاصمة الإقليم ، ودعم خلفاؤه هذا التقليد من بعده ، فكانت تقام في هذه المؤتمرات التي كانت تعقد في أحد المعابد أو حول مذبح موهوب « لروما وأوغسطس » المراسم الدينية التي تتركز حول ديانة الإمبراطور ويؤديها كاهن معين يتبع عقيدة « روما وأوغسطس » ، وذلك مرة كل عام ، ولكنه ما إن تلت هذه المراسم حتى يشرع الرؤساء والأعيان المجتمعون ، في مناقشة المسائل ذات الأهمية بولاياتهم وربما تقدموا ، إذا ما دعت الحاجة ، بشكاوى ضد الحاكم أو ضد تابعيه .

ولعل أعظم نفع عاد به الحكم الروماني على الإمبراطورية الرومانية الشاسعة ، هو تطبيق نظام عالمي موحد لنشر العدالة ، يقوم على أسس راسخة من قانون عريق مر بأعقد التجارب ، ألا وهو القانون الروماني الذي نما وتطور على مر

العصور . وهو وإن كان رومانيا قلبا وقالبا ، إلا أن طابعه الرومانى الخالص نفسه هو الذى قضى بضرورة الاعتراف بأهمية ما أقره العرف وجرت عليه التقليد لدى غير الرومانيين من الشعوب والأمم . وعلى ذلك فقد كان فى وسع الحاكم أن يتخفف من حربية القانون استنادا إلى العادات المحلية كما يفسرها أقطاب الأهلىن فى البلاد ، وبذلك ظل النظام كله مرنا طيعا لا جفاء فيه . كتب أحد الأباطرة إلى قائد من قواده يقول : « وإن كنت فى شك فعلىك باتباع القانون المحلى للمدينة » . وكان من المبادئ الرومانية السليمة أن العادة هى أفضل مفسر للقانون *Optima est legum interpretis consuetudo* . وقد قام الأباطرة والمشرعون بعمل مجيد فى سبيل نشر المساواة والتعاطف الإنسانى والعدالة . وإليك بعض الأمثلة القليلة : كان للسيد فى الأزمنة القديمة أن يترك عبده المريض طريح معبد أسكليبيوس *Asclepius* ، أملا فى أن يشفيه الإله ، فماذا لو لم ينعم عليه الإله بالشفاء ؟ لم تطق نفس الإمبراطور كلودىوس الكريمة السامية هذا النسكران الفاضح لواجب إنسانى مقدس ، فقضى بأن يعتق هذا العبد لساعته ، لو منّ عليه بالشفاء . وسار هادريان شوطاً آخر فقضى بأنه من الممكن أن توجه إلى السيد تهمة القتل . لو لقي العبد المطروح حتفه ، كما لم يتردد هادريان فى أن يحكم بالنفى على سيدة ثرية عاملت عبدها بقسوة ووحشية . وكان القانون فى القرن الأول يقضى بأن المرأة الحرة التى تتصل بعبد سيد آخر (مع رضا ذلك السيد) تظل حرة بينما يعتبر ابنها عبدا ، ولكن هادريان أعاد قانون القبائل (*Ius Gentium*) « بعد أن تأثرت نفسه بالإجحاف الذى ينطوى عليه الأمر ولجأفة القانون للنطق بـ *inelegantia iuris* » فقضى بأنه ما دامت الأم حرة فإنه ينبغى أن يكون ولدها حرا . كما أن المشرعين لم يقصروا اهتمامهم بالشروح فحسب بل ابتدعوا أفكارا جديدة مثل فكرة النية . فقيل : « إنه يتحتم النظر عند الفصل فى الجرائم ، إلى النية لا إلى النتيجة » . وقد يكفىنا للدلالة على ذلك مثال واحد : كان القانون يقضى فى عهد الجمهورية بأنه إذا

ما استأجر شخص من شخص آخر قطعة من الأرض لقطع الأحجار فيها ، فقد يحدث أن يقطع الأول الأحجار منها بالطريق المشروع وأن يعدها للنقل ، فإذا به يفاجأ باعتراض الأخير على هذا العمل بحجة أنه لم يسمح للأول بنقل أحجاره بالعربات على أرضه ، وهنا لابد من أن يسقط في يد المستأجر ويعجز في ظل هذا القانون عن اتخاذ أى إجراء ضد المالك . غير أن عقلية أو لبيان Ulpian الراجحة تبين ما ينطوى عليه هذا التصرف من ظلم وسوء قصد ، فأصلح هذا الخطأ بأن جعل من حق مستأجر الأرض الطعن في احتجاج المالك . وعلى هذا القياس أيضاً ، فإن أزال شخص أو طمس عن جهل أو بطريق الخطأ ، حداً حجرياً ، فيمكن أن توقع عليه عقوبة مخففة ، أما إذا كان فعل الإزالة مقصوداً فيجب أن يتناسب العقاب مع مرتبة الجاني ، ودرجة ذكاته . فقد يحكم على الثرى أو النبيل بالنفي ، بينما يقضى بالجلد أو الحبس الجنائى مدة سنتين ، على من هم أدنى مرتبة وأقل شأنًا ممن كانوا مجرد أداة لتنفيذ أوامر رؤسائهم . وكان من الواضح أن هناك ميلاً متزايداً إلى حماية الفقراء الضعفاء من الأغنياء الأقوياء ، وما يثير العجب أن الفوارق الطبقة بين من هم في المراتب الدنيا ومن هم في المراتب العليا لم تسفر فيما يبدو إلا عن معاقبة أهل المراتب العليا بأشد العقوبات . ولم يكن يسمح لأى شخص بأن يستغل مركزه لإلقاء الرعب في قلب خصمه ، وإذا ما أعلن متقاض أنه قد تعذر عليه إيجاد موكل عنه ، فإنه يتعين على القنصل أن يوفر له من يقوم بالدفاع عنه ، لأن القاعدة تقول : « ولا ينبغي أن يغلب شخص على أمره نتيجة لما يتمتع به خصومه من نفوذ ، لأن ذلك لن يعود على الحاكم إلا بالخزي والعار » .

بيد أنه مهما بلغت نصوص القانون من إحكام ، فإن النجاح في تطبيقه تطبيقاً صحيحاً يتوقف دون شك على طبيعة الأشخاص الذين يوجهون السياسة . فعلى الرغم من أن العقوبات التى كانت تفرض على المواطنين الرومان لم تكن

بالعقوبات الصارمة ، كما كان في وسعه أيضاً أن يروغ منها بأن يعمد إلى التنى
الاختياري قبل صدور الحكم بإدائته ، فإنه لم يكن من سيتيل ، في عهد الأباطرة
المتخوفين أو المهوريين ، إلى تجنب القسوة والعنف ، عند النظر في قضايا الخيانة
العظمى ، ولما لم يكن لدى الدولة مدعون عموميون فقد تحتم عليها أن تعتمد على
المبلغين العاديين ، وكان من حق المبلغ إذا ما أفلح مسعاه أن ينال حصة من
ممتلكات المتهم المصادرة . لقد كان الأباطرة من أمثال أوغسطس أو تراجان
أو انتونينوس ، آمنين متساهلين ، بيد أن إمبراطوراً متخوفاً متخاذلاً مثل
كلوديوس ونيرون أو حاكم عقد العزم على سحق كل معارضة مثل دوميشيان
أو سبتيميوس سيفيروس لنى مقدوره أن يتسبب في أقدح الأضرار ، بتشجيعه
المبلغين وإقراره لاتهامات تافهة باطلة . ونتيجة مثل هذه الاتهامات أمام مثل
هذا الضرب من الحكام ، مؤكدة معلومة ، فهى الموت مع ما يترتب على ذلك
من مصادرة ممتلكات المتهم . ولكن يجب علينا أن نفطن إلى أن الاتهام
بالخيانة العظمى لا يوجه في العادة إلا للأثرياء أو النبلاء البارزين في روما ،
أما في الولايات فيندر أن يوجه مثل هذا الاتهام إلى أحد ، وقد تنطوى
العقوبات وبخاصة بالنسبة للطبقات الدنيا على شيء كبير من الصرامة والقسوة .
فإذا ما صدر الحكم بإدانة واحد من ذوى المكانة الرفيعة ، فقد يحكم عليه بالنفى
أو بالإبعاد عن البلاد ، وغاية الأمر أن تضرب عنقه (وفي وسعه أن يتجنب
هذا المصير بالانتحار) . أما أفراد الطبقة الدنيا فعاقبتهم أدهى وأوخم ، فقد
تكون عقوبة من تثبت إدائته منهم ، الجلد أو الأشغال الشاقة التى تقضى في
المناجم والمحاجر ، بل قد يصلب أيضاً . كما كان القانون صارماً إلى أقصى الحدود
بالنسبة لمن ينادى أو يمارس طقوساً مبتدعة أو طقوساً سحرية ، فقد يحكم على
من يمارسونها بقتال الوحوش المفترسة في الملاعب العامة ، أما الكهنة أنفسهم
فقد يقضى عليهم بأن يحرقوا أحياء . وتقضى الشرائع في بعض الأحيان
وحيث تسود القوانين العتيقة البالية ، بتطبيق عقوبات بشعة مثل فض بكارة

العدارى قبل الموت ، أو دفن المذنبين أحياء ، وقد يحدث ، حين تنتشر موجات الرعب بين الجماهير ، أن يصير مجلس الشيوخ على تنفيذ تلك العقوبة البشعة ذات التاريخ السحيق ، التي كانت تقضى بقتل جميع المييد في الدار التي اغتيل فيها سيدهم .

إن مثل هذه الضروب من الجور والقسوة ، كانت قائمة بالفعل ، ولا يمكن الصّح عنها ، ولكنه مسخ للحقيقة أن تزعم أن هذه كانت الطبيعة البسّانة للأشياء . ولنا أن نتذكر جيداً أن عادة إعدام المجرمين شتقاً أمام الجماهير ، وعرض ذلك كما لو كان مشهداً شعبياً لم تتوقف إلا بعد القرن الثامن . وخلاصة القول ، أن العدالة الرومانية والقانون الروماني إنما يثيران إعجابنا من حيث إنهما يتسمان بروح عامة من الإنصاف والمرونة والسّاحة . فكانت العدالة الرومانية ملكاً للدواطين جميعاً ، لا يمكن إنكارها عليهم ، وإن هذا هو المعنى الذي تطوى عليه عبارة المساواة أمام القانون *aequum ius* . فقضى القانون الروماني بضرورة اطلاع المتهم على التهمة المنسوبة إليه ، وبأن يواجهه أيضاً أصحاب الاتهام . « ليس للرومانيين عادة أن يسلبوا أحداً اللوت قبل أن يكون المشكوك عليه مواجهة مع المشتكين فيحصل على فرصة للاحتجاج والشكوى ، (أعمال الرسل ٢٧ : ١٦) . كما كان محظوراً أن ينتزع مزارع أو عامل مشغول بجمع محصول أرضه أو كرمه ، من مصدر رزقه ويقنّاد إلى المحاكم . وقضى القانون بالألا يكون للنفوذ المحلي أو الأهواء الشخصية أى اعتبار . كما نص على أفضلية الشهادة الشفوية على الأسانيد المكتوبة وحدها ، لأن على الحاكم ألا يعتبر بما يدلى به ، قدر ما يعتبر بشخصية المتحدث نفسه ومدى ما هو عليه من صدق . وقضى بأن تحترم التقاليد والعادات الوطنية على الدوام . وإنا لتلّس هنا نظاماً للعدالة يتصف بالمرونة والحزم في آن واحد ، ويتسم بالإحكام وروح التّسامح أيضاً ، ولأنه لمن أعظم ما يحمّد من معالم القرنين الثاني والثالث ، ما أبداه

الآباطرة ومستشاروهم القانونيون من رغبة في إلغاء النصوص القاسية الشاذة من القانون ، والحث على وضع شروح إنسانية له .

غير أن القصاص والعدل لم يكونا يمثلان سوى ناحية بعينها — وإن كانت أهم النواحي فيما يبدو — مما يضطلع به الحاكم وما يقوم به من واجبات . إذ كان عليه أن يعمل على حماية مصالح الشعب الذي ترك في رعايته ، وأن يحول دون وقوع الجور على أهل الولاية أنفسهم من جانب الدائنين الرومانيين أو الموظفين المالين أو جماعة الضرائب . كتب تيبريوس إلى حاكم اشتط في الجلباية يقول : « الراعي الصالح هو من يحجز صوف غنمه لا من يسليخ جلودها » . وعليه أن يحصى ولايته من قطاع الطرق وأن يطارد اللصوص والمجرمين ، وأن يعمل على ألا يتوقف النشاط التجارى أو يقف دولا ب العمل في المدن نتيجة المظاهرات والاضطرابات ، وأن يتوق المجاعات (انظر الفصل السابع) وأن يضطلع بألف عبء وعبء آخر . وما من شك في أن بعض الحكام لم يثبتوا جدارتهم في القيام بالمهام التي نيظت بهم ، بيد أن غالبيتهم العظمى فيما يبدو قد بلغت مستوى لا تقا من الكفاءة ، وبعضهم ظل شعبه يذكره بالفضل زمناً طويلاً (راجع ص ٣٠) . ويعد النجاح الذي لاقاه الحكام في تدير شؤون مقاطعاتهم ، خلال القرنين الأول والثاني ، مصداقاً على امتياز النظم الرومانية التقليدية ، الخاصة بالتدرب على الإدارة المدنية . ولكن نجاحهم يدل من جهة أخرى على أن الهيئات الاستشارية المختلفة التي كانت تحيط بالإمبراطور ، والتي لم يصل إلينا من أخبارها إلا القليل ، كانت تضم رجالاً يتمتعون بقدرة فائقة على اكتشاف المواهب الخفية وعلى الحكم الصادق على شخصية وقدرات الشبان الذين يتقدمون لشغل وظائف الدولة .

وتحقق التعاون بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ ، منذ عهد نيرفا ، إذ أصبح مجلس الشيوخ يمثل أرفع مواطني الولايات شأناً ، ومن ثم فقد بات كما يقول هيو لاسٲ Hugh Last ممثلاً للرأى العام ، في الإمبراطورية . ولم يطرأ أى

تعديل جوهرى على طريقة التجنيد والتدريب المعهودة ، حتى تلك الفترة المشثومة التى تحدد بأواسط القرن الثالث ، حين جر النظام الجديد إلى وقوع انقسام حاد بين الوظائف المدنية والوظائف العسكرية . بيد أن هذا التغيير لم يأت طفرة بل سبقه ما مهد له منذ زمن بعيد ، فقبل قرن مضى، رغب هارديان فى أن يمنح طبقة الفرسان Equites وظائف مدنية بحتة ، بأن أدخلهم فى سلك الخدمة المدنية فى الدولة . وما لبثت أن ظهرت عام ٢٥٠ حاجة الإمبراطورية إلى رجال ذوى عزم وتصميم ، لا رجال من القابعين خلف المسكاتب ، وقد أدرك جاليانوس Gallienus هذه الحقيقة ، وسارع إلى العمل بموجبها . ولهذا السبب يغلب فى التاريخ القديمة أن يظهر جاليانوس فى ثوب بطل الرواية المجرم بيد أن الحقيقة هى أن عهده كان كثيباً مظلماً محفوفاً بالمخاطر ، فإن النظام الذى وضعه أوغسطس بات (بعد مضى ما يقرب من ثلاثمائة عام من النبو والتقدم) فى أشد الحاجة إلى تعديل شامل كياً يواجه الموقف الذى كان قائماً على الحدود والذى كان يختلف جد الاختلاف عن الموقف الذى كان سائداً فى العهد الذهبى لسلام أوغسطس paxaugusta .

ذلك لأن سلام أوغسطس هذا ، الذى يمثل ذلك العهد الذى شهد فيه الناس نهاية الحروب الأهلية ، ومطلع عهد جديد ، سادت فيه العدالة واستتب النظام وعمت فيه الحرية ، وأتيح فيه للدولة الرومانية أن تمضى قدماً من جديد فى رعاية الآلهة الرومانية وبركتهم ، بعد أن نالت رضاهم ، هذا السلام كان فى واقع الأمر نعمة كبرى ظاهرة للعيان ، عمت سكان الإمبراطورية قاطبةً سواء أكانوا مواطنين رومانيين أم كانوا من أهل الولايات . وقد قدر لهذا السلام الذى حققه أوغسطس أن يدوم مدة تزيد على مائتى سنة (لم تقطعها سوى حرب أهلية واحدة لم تستغرق زمناً طويلاً) وقدر له أيضاً أن تعم خيراً مساحة شاسعة من العالم الغربى . ومؤسس هذا السلام ، هو دون أدنى شك -

ذلك المواطن العظيم المبرز ، أوغسطس ، « أبو الوطن (pater patriae) » .
وقد حدث في أخريات حياته أن كان مارا بشعر بتيولي Puteolis ، فتقدم إليه
بحارة وركاب إحدى السفن القادمة من الإسكندرية والتي لم تكن قد رست
في الميناء إلا منذ فترة قصيرة ، تقدموا إليه عندما علموا بوجوده ، وهم في
أبهى حللهم تتوج رؤوسهم أكاليل الزهر ، وأطلقوا البخور ولهجوا بالدعاء
له ، مثنين عليه صارخين :

« بك نعيش

بك نجوب البحار

بك ننعم بحريتنا وثرورتنا ،

كانت هذه لفظة صادقة واعترافاً بالفضل جيلاً ، وكان أوغسطس جد
جدير به . لقد حطم يوليوس قيصر الكثير ، بيد أن ابنه أقام صرحاً ثابتاً
الأركان ، وقد صرح مرة مجاهراً : « أود لو مت أن أحمل معي أملاً في أن
تبقى دعائم الدولة التي أرسيتها ثابتة لا تتزعزع من موضعها » . وكان أن تحقق
له أمله . فالواقع أن الأساس قد أرسى بصورة تضمن له الثبات والدوام ، كما
أنه رغم أن تغييرات وإضافات أدخلت على بنيانه العلوي ، إلا أنه ظل
راسخاً لا يتزعزع . ولعله يمكن القول بصورة أخرى أن الكيان الذي
خلقه أوغسطس كان يمثل كائناً حياً متكاملًا قادراً على النماء والتطور .

الفصل الثاني الدفاع البحري والأسطول

إن الواجب الأول لحاكم أى شعب هو أن يوفر لهذا الشعب أسباب السلامة والأمن ، بأن يخصص لحمايته العدد الكافى من القوات ، بينما يعمل ما من شأنه الحيولة دون تحول هذه القوات المسلحة عينها إلى خطر يهدد الشعب الذى تقوم بحمايته . ويوضح هذا الرأى على نحو ما ، أحد المبررات التى نحولت لأوغسطس تولى مثل هذه السلطات الواسعة ، فقليل إن تقليد القيادة العليا لقائد واحد ، هو السبيل الأمثل إلى تنسيق الدفاع عن الملك ، ومنع الطموحين من القواد من تزعم الثورات والفتن . وعلى ذلك ، فقد تولى أوغسطس (وكل من خلفه من الأباطرة) القيادة العليا للجيش الرومانى والقيادة العليا للأسطول الرومانى الذى لم يكن على شئ كبير من الضخامة . وكان من واجباته الدفاع عن الإمبراطورية ، وتزويد القوات المقاتلة بالسلاح والعتاد وتوفير أسباب إعاشتها والقيام برسم خطة انتشارها ، فضلاً عن إخضاعها لسيطرته ، واتخاذ الحيلة أيضاً خشية أن تخضعه لسيطرتها . وإن قيام الجيش بمسؤولياته فى الدفاع طيلة هذه المدة ، وعلى هذا القدر من الكفاءة ، ليقم — إلى حد ما — الدليل على ما كان عليه قواده من مقدرة وسعة حيلة . ويمكن أن ننتبه فى تاريخ الجيش الرومانى ، أربع حقب على وجه التقريب .

بدا أول الأمر كما لو أن تقدم شعب قتي سليم البنية ، لا يعرف حدوداً يقف عندها . إذ يقول جوبيتر فى ملحمة فرجيل Virgil عن روما : « نطاق حكم لا يحده

زمان أو مكان *Imperium sine fine dedi* . ولو أن هذه العبارة تكشف عن عظمة وسؤدد ، إلا أنه لم يكن هناك مفر من أن تنشأ عوامل معوقة . فالجيش القائم إن هو إلا عبء مالى ثابت . ومثل هذا العبء يستلزم الاضطلاع به على نحو ما . ثانيا : هناك أطباع القواد وانتصاراتهم التى لا يحق أن تخلق منافسين للإمبراطور يمتازونه سلطانه ، كما لا يجب أن يسمح لمجد ما أن يطغى على مجد رئيس الإمبراطورية ومجد أسرته . فللإمبراطور وحده ولأفراد أسرته دون سواهم أن يقوموا بالحملات المظفرة وهم آمنون على أنفسهم . ثالثا : رغم أن السعى فى سبيل الظفر بالمجد الحربى كان من بين التقاليد الرومانية الثابتة ، إلا أن حاجة الإمبراطورية — لما كانت عليه من وهن وضعف عام ٢٧ — كانت هى الخلاص من الحرب وضمان قيام حكومة رشيدة ، أى الحاجة إلى السلم والعدل . ورغم ذلك فقد تمت الإمبراطورية نموا مطردا مدة تقرب من ١٥٠ سنة ، حتى وفاة تراجان . صحيح أن عهد أوغسطس شهد تفهيرا عظيما : إذ تحتم سنة ٩ ميلادية الجلاء عن الأراضى الواقعة بين الألب والرين ، وهى الأراضى التى كانت تحتلها الفرق الرومانية والتى كانت تعسكر فيها صيفا خلال مدة تقرب من عشرين عاما ، بعد هزيمة منسكرة لحقت بفرق رومانية ثلاث على يد الجرمانين ، كما أن أوغسطس نصح فى شيخوخته ، بعدم إحراز فتوحات جديدة . غير أن القدر كان أقوى من نصح أوغسطس ، ففى خلال القرن الذى أعقب وفاته ، دخلت منطقة الدانوب ضمن حدود الإمبراطورية ، وضمت إلى الإمبراطورية الأراضى التى تشغلها الجزائر ومراكش فى الوقت الحاضر ، وحالف الرومانيون التوفيق فى احتلال بريطانيا ، وأمكن الاستيلاء على نطاق جديد من الأراضى الجرمانية ، وما لبث أن توج تراجان هذه الفتوحات بضمه داكيا (وموضعها الآن ترانسيلفانيا Transylvania على وجه التقريب) وأرمينيا Armenia وبلاد ما بين النهرين . وكان من الطبيعى أن يصحب هذا التوسع الإقليمى توسع فى الجيش اللازم لحماية الفتوحات الجديدة ، فزاد عدد

فرقه من خمس وعشرين فرقة تقريباً كحد أدنى إلى ثلاثين فرقة على الأقل .
وذلك في عهد تراجان .

بيد أنه قد حلت بعد ذلك فترة تدبر وروية . فقد تخلى هادريان (١١٧-١٣٨) فعلاً عن فتوحات سلفه في أقصى الشرق ، وساد الاعتقاد إذ ذاك بأن الإمبراطورية قد بلغت حدودها الطبيعية (إن لم تكن قد تجاوزتها) ، وأن الوقت قد حان لأن يبحث حكامها عن خطوط ثابتة وحدود مرسومة . وجدير بالملاحظة أن هادريان الذي يوصف دائماً بميله إلى التوفير ، احتفظ — كما هو مؤكد — بموقعين أمامين أحدهما في الشمال الغربي والآخر في الشمال الشرقي ، أى في بريطانيا وداكيا . وبدى منذ ذلك الحين في تخطيط الحدود بإقامة سلسلة من المواقع الدفاعية الصناعية ، من الأحجار أو الطين — مثل الأسوار والجسور والخنادق — ونشر القوات بدقة وعناية على طولها . وبالرغم من ذلك فقد أخذت قوات البرابرة قرابة عام ١٧ في إثبات وجودها ، ولذلك قرر ماركوس أوريليوس بعد سلسلة متصلة من الحملات أن ينشئ مقاطعتين إضافيتين في الشمال وهما ماركومانيا Marcomannia وسارماتيا Sarmatia اللتان كان ينتظر أن تندخلا بذلك كلا من تشيكوسلوفاكيا وبوكرانيا Bukovina في خطة الدفاع عن الإمبراطورية ، ولكن وفاته عام ١٨٠ قضت على المشروع . وتنتهى هذه الحقبة على وجه التقريب بالإمبراطور سبتيميوس سيفيروس الذي تكهن بالآخطار المحدقة بالإمبراطورية فحارب بارثيا Parthia حماية لحدوده الجنوبية والشرقية ، وقاى لى يحول دون وقوع بريطانيا في أيدي جيرانها في الشمال . وبات كل شيء مهوولاً الآن باستبسال الجيوش وثباتها وبما يتوفر للخطط الدفاعية من دقة وإحكام .

أما الفترة الثالثة وهى التى تمتد من سنة ٢٢٠ إلى سنة ٢٨٥ ، أى إلى ما يزيد عن نصف قرن ، فإنها لم تعد فترة سعى وراء المغامرات ، بل كانت الإمبراطورية خلالها تقاىل قتالاً مريراً من أجل بقائها . فقد عاث البرابرة

الشماليون فسادا في الأراضي الغنية المسالمة التي تقع إلى جنوبهم ، وتوغل القوطيون الغربيون Visigoths حقيقة في إسبانيا ، كما أوقع الجوثيون الهزيمة بالرومان برا ، بينما أشاعت أساطيلهم التي أنشأوها مؤخرا الدمار والخراب في مدن البحر الأسود ومدن شمال بحر إيجه . وفي نوبة من الخوف والذعر ، سارعت المدن التي ظلت منذ زمن طويل خالية من الحصون إلى إقامة أسوار مرتجلة ، كما أصبحت روما نفسها بعد قرون نعمت فيها بالأمن ، في حاجة إلى التحصينات ، تلك الحاجة التي أوفى بها أوريليان بإقامة سور عظيم . وفي الولايات ذاتها ، نشبت الثورات بزعامة بعض المدعين لأحقيتهم في العرش . وبدا كما لو أن انهيار الإمبراطورية التام أصبح وشيك الوقوع في غضون سنوات قلائل . أما أن روما قد ظلت على قيد الحياة ، فالفضل في ذلك يعود إلى الأباطرة المقاتلين ، واستماتهم في القتال ، وإلى الصفات الرفيعة التي كان يتحلّى بها الجيش الروماني ، كما يرجع أيضا إلى الحقيقة المسالمة في أن أهل الولايات أنقسهم كانوا حريصين على البرهنة على انتصارهم لروما ، وعلى إثبات جدارتهم بحقوق المواطنة التي نالوها على يد كراكالا Caracalla عام ٢١٢ (انظر الفصل التاسع) . وهكذا اجتازوا الأزمة بفضل الشجاعة الرومانية^(١) Romana virtus . غير أن محنة السنوات الحسنة قد لغنت الرومان دروساً قيمة ، ووعت روما هذه الدروس خلال الفترة الرابعة ، وكان من أثر ذلك ، التغديل الذي أجرى على كيان الإمبراطورية ونظمها عام ٢٨٤ ، حين نال دقلديانوس الإليري السلطة العليا ، فأجرى تغييرا شاملا وإصلاحاً تاماً للنظام العسكري كي يتفق ومقتضيات العصر ولكي يتسنى له استيعاب أساليب جديدة . بيد أنه يحسن أن نرجح الحديث عن هذا الإصلاح إلى موضع آخر .

(١) هذه الكلمة تعني بمجموعة الفضائل الرومانية من بالة وسمو وشجاعة . . . الخ (المترجم)

ولنعد من هذه المعجالة إلى الجيش نفسه . ثبت في النهاية خطأ واحد من الافتراضات التي كان يعمل بموجبها الحكام الأوانل الذين كانوا جد متفائلين ومؤدى هذا الافتراض أن البرابرة كانوا أشد غباء وغفلة من أن يتبينوا فيما توحيد صفوفهم والقيام بهجمات من جهات عدة في وقت واحد . ولكن هذا الافتراض بدا منطقياً معقولاً في مبدأ الأمر ، فقد كان في استطاعة ماركوس أوريليوس ، في زمن متأخر كالقرن الثاني ، أن يواجه الخطر في نقطة ما بأن يحسر القوات عن نقطة أخرى من نقط الدفاع بصفة مؤقتة .

حرصت خطط الدفاع الرومانية منذ البداية على أن تجنبني أعظم الفائدة من استخدام الطرق الداخلية ، وما زاد في نفع هذه الطرق مد تلك الشبكة الرائعة من الطرق الاستراتيجية الرومانية (انظر نهاية هذا الفصل وما بعدها) بالإضافة إلى طرق المواصلات البحرية الآمنة في البحر المتوسط الذي تم تطهيره كلية من القرصنة . ونظراً لأن مهمة إقامة جيش كبير تتطلب تكاليف باهظة ، فقد كان على أوغسطس أن يكتفى بأقل عدد من القوات ، بالقدر الذي لا يعرض سلامة الدولة للخطر ، وكان عدد الفرق الرومانية في أول الأمر ثمانياً وعشرين فرقة تقريباً ، زيدت في عهد هادريان إلى اثنتين وثلاثين فرقة ، أما في عهد سيفيروس فقد تطلب اتساع رقعة الإمبراطورية تكوين خمس وثلاثين فرقة ، بينما ازداد عدد الفرق بحلول عهد دقلديانوس إلى حد كبير .

وكانت صفوة الأسلحة في مثل هذا الجيش الكبير هي ، دون شك الكتائب التسع التي تؤلف الحرس البريتورى Praetorian Guards الذي كان يمثل حرس الشرف الملازم للقائد الأعلى ، وإن كان لا يعد حرساً خاصاً له ولقد وجد أوغسطس ، في سعيه لتكوين حرسه الخاص ، ضالته المنشودة في فرقة خاصة من القوات الجرمانية . روعى في اختيارها قوة أفرادها وولاؤهم أما فرق الحرس البريتورى فقد كانت تقوم بالحراسة ليلاً ونهاراً على مقر

الإمبراطور سواء في روما أو في الخارج ، وكان الإمبراطور هو الذى يبلغ كلمة السر إلى قواد هذه الفرق . وكان الحرس البريتورى يخضع فى الأصل لقيادة ضابطين برتبة « بريفيكتوس » *praefectus* ، وكانت ست كتائب منه ترابط فى نقط مختلفة تنتظم كافة أنحاء إيطاليا ، بقصد المحافظة على الأمن إلا أنه فى عهد تيسريوس *Tiberius* ، أفلح سيجانوس *Sejanus* ذلك القائد الطموح . فى أن يقنع سيده بتوحيد القوة جميعها فى معسكر واحد يربط خارج أسوار روما مباشرة وبأن يترك له وحده أمر قيادتها ، وعلى الرغم من أن حيل سيجانوس أدت إلى سقوطه وإعدامه عام ٣١ ، إلا أن إصلاحاته كتب لها البقاء ، وبانت قوة الحرس البريتورى ونفوذه فى تنصيب الأباطرة ، قوة هائلة رهيبية ، إلا إذا خضع الحرس لحاكم قوى . وكانت مدة خدمتهم العسكرية قصيرة (ست عشرة سنة فقط) ورواتبهم كبيرة ، وكانوا يدربون على أعنف ما تقتضى به تقاليد الحرب الرومانية . ولذلك فقد جرت العادة بتقليد قيادات صغيرة فى الفرق الرومانية . وبذلك أصبح الحرس البريتورى ، خلال القرنين الأول والثانى ، بمثابة مدرسة أولية للضباط ، وذخرا لقواعد الضبط والربط ونظم التدريب العسكرى الرومانية الخاصة . ولما كان من حق البريفيكتوس *praefectus* أن يفصل فى بعض القضايا المرفوعة إليه ، فقد تطور الأمر تطوراً غريباً حتى أصبحت العبرة فى اختيار البريفيكتوس ليست بمؤهلاته العسكرية ، بل بمسوغاته التشريعية ، ولهذا نجد أن من بين أعظم المشرعين فى الإمبراطورية ، نفرا ممن تقلدوا هذا المنصب ، أمثال أولبيان *Ulpian* وبابينيان *Papinian* .

وبأق بعد هذه القوات ذات الخطوة ، جنود الفرق الرومانية الفعليون ، وهم الذين كان يتم تجنيدهم عادة بطريق التطوع ، ومدة خدمتهم عشرون سنة مع احتمال اختيارهم لخمس سنوات أخرى . ولما كان جنود الفرق مواطنين رومانيين منذ البداية يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية كاملة ، فقد كانوا يحملون أول

الأمر من إيطاليا وحدها ، ولكنه أمكن بعد مضي جيلين أو ثلاثة أجيال أن يلحق بالفرق المواطنون الرومانيون من أهل الولايات التي اضطبغت أكثر من غيرها بالصيغة الرومانية مثل مقاطعتي أسبانيا والغال ، أما بعد صدور قانون كاراكالا العظيم عام ٢١٢ (أنظر الفصل التاسع) فقد أمكن بطبيعة الحال جلب جنود الفرق من كافة الولايات ، والواقع أنه ما إن حل ذلك الوقت حتى كان جنود الفرق يجلبون عادة من الولايات نفسها التي تراطبط فيها . ولم يكن من المسموح به للجندي أن يتزوج أثناء خدمته ، أو على الأصح ، لم يكن في وسعه أن يعقد قرانا رومانيا شرعيا تاما من جميع الوجوه ، غير أن سبتيميوس سيفيروس رفع هذا القيد في عهده ، فأصبح من حق الجندي أن يحتفظ بزوجه في دار قريبة من المعسكر ، مما جنح بدوره بالفرق إلى أن تصبح أشبه بنقط حراسة محلية .

بيد أن جنود الفرق لم يكونوا وحدهم جنود الجيش الروماني ، بل كانت هناك أيضا الوحدات المساعدة (auxilia) . وكانت هذه القوات ذات طابع يحق لنا معه أن نسميها « القوات الوطنية » . وكان من المسموح به في أول الأمر ، أن يتم تجنيد هذه القوات ، كما يمضي جنودها الخدمة العسكرية ، كل في وطنه الأصلي ، ونمحت قيادة ضباط من بني جلدته . غير أن هذا قد جر بطبيعة الحال إلى ألوان من المتاعب ، فأصبحت القاعدة ألا يقضى هؤلاء خدمتهم العسكرية في مواطنهم الأصلية ، كما تولى قيادتهم ضباط من المواطنين الرومانيين . وكان هناك بالطبع الكثيرون من الشبان من أبناء الولايات ممن كانوا على استعداد تام للإقبال على حياة تبشر بالمغامرة والمجد ، فضلا عما يحمله من أمل في نيل حقوق المواطنة الرومانية عند انتهاء مدة الخدمة العسكرية التي كانت تقدر بالنسبة لهم بخمسة وعشرين سنة ، كما أصبح من الممكن في الغالب وبمضي الزمن سد النقص في صفوفهم بالوطنيين من أبناء الولايات التي يرابطون فيها .

وبالإضافة إلى ذلك ، أخذت القبائل المستقلة أو شبه المستقلة المنتشرة على الحدود في الإسهام ، منذ عهد هادريان ، بقوى مقاتلة نافعة تنظمها وحدات تسمى numeri ولم يتجاوز المجموع الكلى لقوات الجيش في أى وقت من الأوقات نصف مليون من الجنود ؛ وثمة عوامل ثلاثة كانت تتوقف عليها قوته وكيفية انتشاره ودرجة تدريبه ومستوى الروح المعنوية لديه .

ويمكننا الاستدلال على المصدر الرئيسى للخطر ، كما كان يبدو خلال المصور المختلفة ، من خطة توزيع قوات الفرق والقوات المساعدة . ففى أول عهد الإمبراطورية ، عندما كان يخشى بأس الجرمانيين والبارثيين ، كانت تسع فرق تحرس الراين وسبع تسمى خط الدانوب وأربع ترابط جند دجلة والفرات . أما قرابة عام ١٠٠ فبالرغم من أن أربع فرق كانت ما تزال تراقب سوريا ، وثلاث فرق تطلبها الأحوال فى بريطانيا ، فإن الغالبية العظمى من الفرق رابطة على امتداد نهري الراين والدانوب، أما بقية الولايات مثل أسبانيا ودماشيا Dalmatia وأفريقيا فلم تكن أى منها فى حاجة إلى أكثر من فرقة واحدة لصيانة الأمن بها . وكان نصيب المنطقة الوسطى من الدانوب حوالى عام ٢١٥ عشر فرق من بين ثلاث وثلاثين فرقة ، كما كان نصيب المنطقة الشرقية من الحدود عشر فرق أخرى ، وجرمانيا أربعة وبريطانيا ثلاثا ، بينما انتشرت العرق الباقية فرادى فى مختلف الولايات الأخرى . فكان لبعض الولايات — وخاصة ولايتى إيليريا Illyrium والغال — عندما حلت غزوات البرابرة الكبرى ، من الجنود والقواد والروح المعنوية العالية ، ما يكفل لها أمر الدفاع عن نفسها ، غير أن التجارب المريرة قد كشفت عن حاجة المدن الكبيرة والصغيرة على حد سواء ، إلى تحصينات سليمة ، وعن حاجة الإمبراطورية أيضا إلى جيش من طراز جديد . ولقد هدفت إصلاحات دقلديانوس إلى تكوين قلب للجيش سهل الحركة ، وإعداد جيوش للولايات تمسك فى مدن محصنة .

كان تدريب جندى الفرق يهدف إلى خلق الطاعة العمياء في نفسه بالإضافة إلى تحقيق مستوى عال من الكفاية وسرعة الخاطر . وبما كان له عظيم الأهمية ، وإن كان غير ظاهر ملموس ، تلك العناصر الروحية التي كانت تربط الجندى بخدمته ، يقول سينيكا Seneca (٣٥ و ٩٥ من رسائله) « إن الرباط الأول هو احترام الجندى لقسمه ووجهه لألويته وخوفه من الفرار » . بيد أنه لا سبيل إلى بث هذا الشعور إلا بالمران والتجربة ، ولذا كان للتدريب المقام الأول . فكان الجندى الحديث يتدرب على السير والجري والقفز والسباحة وركوب الخيل واستخدام أسلحته في الهجوم والدفاع واستعمال الفأس والجاروف والمطلة والمنشار وحصد القمح وقطع الأخشاب ، أى يتدرب بصفة عامة على أن يصبح رجلاً متمرساً بكل شيء . وكانت الفرقة التي يدرج اسمه فيها تتألف من ٦٠٠ جندى على وجه التقريب تحت القيادة العليا لضابط برتبة legatus ، ومن دونه من الـ tribuni ، أما الستون centuriae التي كانت تنقسم لايها الفرقة ، فبرأس كل منها centurio ، أو قائد مائة ، وكان هذا على قدر من الخبرة والكفاية والدربة يؤهله لمثل المرتب الكبير الذى كان يتقاضاه (إذ بلغ مرتبه في بعض الأحيان عشرة أضعاف مرتب النفر) . وكانت كل فرقة من الفرق تمثل وحدة متكاملة ، يؤتمن لواؤها الذى كان يمثل نسراً فظياً ، لدى أحد قواد المائة الكبار ، كما كان لها رقبها الخاص واسمها وشاراتها وأوسمتها . وثمة منافسات شريفة كانت تقوم بين كثير من هذه الفرق العسكرية المنسقة .

ولعلنا قد لاحظنا من خلال ما سبق ، عظم المهام الإدارية والعسكرية التي كانت منوطة بقواد المائة ، بيد أنه لا يجب أن نفعل أيضاً ذكر القواد الكبار . كان تعيين القائد الأعلى legatus يتم من قبل الإمبراطور ، وكان بقاؤه أيضاً في هذا المنصب مرهوناً برضائه . وكان في العادة من سلالة الأسر التي شغل عداؤها مقاعد مجلس الشيوخ ، يزيد عن الثلاثين من العمر بقليل ، على أن يكون قد شغل خلال حياته العملية بعض الوظائف المدنية والعسكرية الثانوية وأظهر

فيها قسماً من الكفاية . ويليهِ في المرتبة ستة ضباط برتبة *tribuni militum* ،
ويبدو أن مهامهم كانت مهام إدارية في معظمها ، وقد يشغل أبناء أسر الفرسان
أو أسر أعضاء مجلس الشيوخ من الشبان عدداً من هذه المناصب خلال تقلبهم
في الوظائف العامة ، غير أنها كانت في أغلب الأحيان وقفاً على من أثبتوا
جدارة فائقة أثناء توليهم مناصب قواد المائة . وبالإضافة إلى هؤلاء كان لكل
معسكر ضابط يدعى نقيب المعسكر (*praefectus castrorum*) ، وكان في العادة
قائد مائة مرق ، يعهد إليه في الغالب بالإشراف على الإمدادات والخصومات
الخاصة . ولعل أدق مشكلة إدارية كانت تصادف حاكم الولاية هي السيل إلى
توفير المؤن ووسائل المواصلات والقلاع والشكنات لضمان قيام القوات المسلحة
الخاضعة لإمرته بواجبها على أتم وجه ، في الوقت الذي يوفر فيه للسكان الوطنيين
كافية كافية من الغذاء والطاقة ، تجنبه سخط الجماهير غير الواجب وما يترتب
على السخط من قلاقل أو ثورات . وكان حل هذه المشكلة الذي اهتدى إليه
الرومانيون هو أن يكون نقيب المعسكر ، الذي يقابل في الفرق الرومانية
ضباط الإمدادات والتأمين في الجيوش الحديثة ، مسئولاً أمام حاكم الولاية
وليس أمام قائد الفرقة . وأتاح هذا النظام لحكام الولايات من الوجهة النظرية
على أقل تقدير الاجتهاد برأي مستشارين ذوي كفاية وخبرة في شئون
الجيوش ، وجعل في وسعهم الحد من نفوذ قواد الفرق ، والإشراف على كل
من الجهازين الإداريين المدني والعسكري . ومن المرجح أنه كان هناك نظام
معين للتقارير السرية ولعلها كانت ترسل إلى كاتم السر العام لدى الإمبراطور ،
وتتعلق بشخصية وكفاية هؤلاء الموظفين على اختلافهم ، واسكنه وإن كان
من المعقول افتراض وجود هذا النظام ، إلا أنه يتحتم القول هنا بأنه لم تصلنا
عنه أية معلومات مفصلة .

وكان من بين القواعد الثابتة لدى الأباطرة ، وجوب شغل الجنود بصفة

دائمة حتى ونمت السطم ، فإذا لم تكن لدى الفرقة مناورات أو طوابير سير أو أعمال تفتيش فقد يناط بها بناء سد بحرى أو حفر قناة أو قطع الأحجار من المحاجر . وكان للمسكرات والقلاع تصميمات ثابتة يراعى فيها تخصيص أنسب الأماكن لمباني مركز القيادة ، وللمعبد الألووية وللخزانة التى تقع بالقرب منه ، وللشكنات ومواقف الخيل ولخازن الغلال والمطابخ والأفران ودورات المياه وخيمة المستشفى ومصنع العتاد . وما إن أخذت الفرق فى الاستقرار فى معسكرات دائمة حتى حلت المباني الحجرية محل المباني الخشبية ، أما خارج أسوار المعسكر فكانت توجد الحمامات والمدرجات والمستشفيات فى بعض الأحيان ، على أنه كانت تقوم فى العادة على طول الطريق ، بمجموعة متفرقة من المحلات والمظال canabao ، قريبة الشبه بالأسواق الشرقية ، حيث يمكن للجندى أن يشتري عوضاً عما يكسر من أكوابه وصحافه ، وأن يبتاع التعاويذ والأحبة والجواهر والحلى ، أو أن يستمتع بالطعام أو الشراب فى أحد المقاهى . وجدير بالذكر ، أن مثل هذه الأبنية جميعها كانت تقع خارج المعسكر ، أما فى الداخل فكان يراعى الاقتصاد التام فى شغل مساحة الأرض ، كما لا يسمح بغير المباني العسكرية .

بيد أن للجندى حاجته أيضاً إلى قسط من الراحة والنرفيه . وإنه لمستطيع أن يجد بغيته فى ذلك ، بدرجة ما ، فى المظال المصطفة على طول الطريق (canabao) . هذا إلى أن فى وسع الضباط والجنود أن يستمتعوا برياضة الصيد ، كما فعلوا مثلاً فى أحراش بيوكاسل Bewcastle فى شمال كمبرلاند Cumberland ، ومن المؤكد أنه كانت لديهم ألوان متعددة من الرياضة مثل مسابقات القفز والسباحة والجري والمصارعة ، وقد كتب جندى من القوات المسلحة من باتافيا Batavia على شاهد قبره يفاخر ببراعته فى الرماية وبعبوره الدانوب بكامل سلاحه . ولفت العملاق الطراقي ماكسيمين Maximin الأنظار إليه بقوته الخارقة واحتماله الكبير فى

المصارعة ، وكان الأمل يراود كل مجند (سواء بدافع من طموحه أو بناء على نصيحة أبيه) في أن يثبت مهارته وقدراته أمام ناظرى قائده . ولم يكن في مقدور الجنود ، في الحمامات العامة الساخنة ، الاغتسال فحسب ، بل كان في وسعهم لعب الميسر والتحدث في مختلف الشئون ، أما في المسارح ففي وسعهم الاستماع إلى مسرحياتهم الإيمائية والتهليل لمن يروقه .

ويجدر هنا أن نؤكد نقاطاً ثلاثاً فيما يتعلق بالصحة والخدمات الصحية . غالباً ما يغيب عن أذهاننا أن الجيش الروماني لم يكن ليبلغ ما بلغه من نجاح ما لم يكن جيشاً نظيفاً ، ولسكننا نجد أن الدعاة الخلقين يحملون ، لسبب خفي حملة شعواء على حمامات روما في عهدها القديم ، ويستذكرون سعتها وترفها على نحو جنح إلى بنا أن ننسى ما للاغتسال عمومياً من آثار صحية طيبة . لقد ساعدت الحمامات في خلق الجندي الذي يجمع بين النظافة واللباقة ، وحسبنا أن الأوساخ والأمراض التي انتشرت بأوروبا عند ما كانت غفلاً من حمامات العصر الروماني المنصرم ، قد جرت إلى أفدح الخسائر في الأرواح ! أما في حالة إصابة جندي بجراح أو وقوعه فريسة للبرص ، فهناك عدد صغير من الجنود المدربين على الإسعافات الأولية (*medici ordinarii*) ، على استعداد الإسراع بعلاجه . ويظهر مثل هذا المشهد في اللوحة المنقوشة على عمود تراجان ، كما تدل آثار « مستشفيات القاعدة » (التي اكتشفت في نيسس *Noussa* وكسانتين *Xanten*) على ما كانت عليه من نظافة وكفاية ، فهي مباني حجرية كبيرة تحوى قاعات للاستقبال وحجرات للعمليات ومساكن للأطباء وعنابر المرضى رجة ممتدة ، مقسمة إلى حجرات تسع كل منها سريرين . أما الممرات الفسيحة التي يبلغ عرضها ثمانية عشر قدماً ، فقد كانت توفر الضوء والهواء وتسمع بزول عدد إضافي من المرضى في الأحوال الطارئة .

أما وجبة الجندي الثابتة ، فهي وإن كانت خليقة بأن تبعث على السأم إلا

أنها كانت وجبة طيبة تتألف من الخبز والحساء والخضروات والسلطات والنيذ والزيت . ولم يكن اللحم من بين الأصناف المعتادة ، إلا بالنسبة لجراية جنود الشمال ، غير أن جميع الفرق كانت تحتفظ بالقطعان والماشية الخاصة بها لتقديم الضحايا والقرايين . وكان الجنود يحصلون بعد كل تقدم كبيرة على الذبائح التي يتناولون بها وجبة طيبة . وكانت توجد بكثرة بالإضافة إلى ذلك ، حيوانات الصيد والطيور البرية . كما يمكن للجندى أن يضيف إلى هذه الوجبة السمك والمحار (وكان بلح البحر والمحار من الأطعمة المفضلة في بريطانيا) ولحم الصيد بعد رحلة صيد موفقة . أما المظال osanabae خارج المعسكر ، فكانت تقدم للجندى المشروبات المرطبة والساخنة ، وأصناف الطعام الشبيهة والفطائر والحلوى .

ومن البديهي أن الأمر كان يتطلب إيجاد نظام للنقل دقيق محكم ، والنقل يجب أن يتم أولاً بطريق البحار أو الأنهار ، حيث يتيسر ذلك ، ثم يأتي دور العربات . ولذلك فإننا نجد دائماً إلى جانب الجنود المقاتلين ، طائفة كبيرة من الأشخاص الذين يقومون بمهام خاصة ، فهناك هيئة دائمة من الكتبة ، وهناك المحاسبون ، والمراجعون وهناك الرعاة والصيادون ، وهناك السعاة وجنود المراسلة وهناك المساحون والكشاف . ويستقى بليني Pliny من خبرات هؤلاء الكشاف (exploratores) هذه الفكرة الطريفة ، وهي أنه إذا ما تعذر وجود الصوان والحروق ، فإن أفضل الأخشاب التي تولد النار بالاحتكاك هي أخشاب الغار والجلبلاب ، إذ يعمل خشب الغار الصلب عمل القادح . وكان يبعث بالفصائل للقيام بواجبات مختلفة ، منها الحراسة وخفر المدن ومراقبة المجرمين في المناجم والمحاجر . ومن المؤكد لدينا أن قوائم الجيش وحساباته كانت تدون بعناية كبرى ، وتكشف بعض المدونات العسكرية التي آلت إلينا بوضوح ، عن العدد الكبير من مختلف الواجبات التي قد توكل إلى الجندى . وهكذا نستدل من مدونة فرقة من فرق القوات المساعدة ، تتألف من أسبان وترابط في موزيا الدنيا Lower Moesia (بلغاريا) على أنه قد أرسلت ، من بين جنود الفرقة

البالغ عددهم ٥٣٦ جندياً ، بعض القوات إلى اليونان بجمع الملابس العسكرية وأرسلت قوات أخرى إلى ما وراء نهر مارجوس (Morava) (مورافا) لجلب الخيل ، وكان جنود آخرون يزرعون القمح بينما ألحق جنديان بالحامية المراقبة في تيراس (أكركمان Akkerman) وضم كاتبان إلى مركز القيادة ، وبلغ بمرض بعض الجنود ووفاة واحد ضرباً ومقتل آخر على يد قطاع الطرق . وكانت هذه الخدمة العسكرية تبلغ بالنسبة لجندي الفرق عشرين سنة . وبالنسبة لجندي القوات المساعدة خمساً وعشرين سنة ، غير أنه كان يحصل على حقوق المواطنة الرومانية في ختامها . واختلفت معدلات الرواتب خلال العصور تبعاً لارتفاع الأسعار ، بيد أنها كانت في القرن الأول تقل بعض الشيء عن دينار denarius في اليوم للجندي العامل : ويساوي هذا على وجه التقريب أجر العامل المتوسط في اليوم . وقد تجرى استقطاعات في مرتب الجندي — مقابل طعام أو تعويضات أو أوامر جديدة أو غذاء السكتية — ولكن في استطاعته إيداع الباقي أمانة ، وتدلنا قائمة حساب أحد الجنود أنه تمكن من أن يدخر أكثر من نصف راتبه . ولكنه بالإضافة إلى ما كان يتقاضاه الجندي من راتب منتظم ، فقد كان له أن يتطلع إلى الحصول على نصيب من الغنائم بعد القيام بحملة موفقة . كما قد تأتبه منح من الإمبراطور بين آن وآخر . وللجندي عند تقاعده أن يتقاضى معاشاً من الخزانة العسكرية ، كما أنه عند التقاعد لا يكون على درجة من الشيخوخة تقعه عن الدخول في الحياة المدنية ، وهكذا نجد أن جندياً متقاعداً من جنود البحرية شاء أن يصبح تاجراً للجمعة في هولنده ، وما من شك في أنه استطاع أن يحصل على طلبات من زملائه القدامى . وللجندي الفرق ، إذا ما أثبت كفايته ونشاطه واستقامته ، أن يتطلع إلى ترقية إلى رتبة أعلى ، كأن يرقى إلى قائد مائة أو بريموس pilus primus ، وذلك قبل بلوغه سن التقاعد ، وفي هذه الحالة ، سيدخل في عداد الأثرياء ذوي الحال والطول . ورغم أن العادة قد جرت بمقارنة قواد المائة بصف الضباط إلا أن هذه

المقارنة تبعدنا عن الواقع . فقد كانت واجباتهم تقابل على أقل تقدير واجبات قائد البكتية الحديث وكان اليريموس بيلوس أقرب شبهاً بالبكباشى أو ضابط أركان حرب عظيم . وإذا نظرنا إلى فئات الرواتب وإلى واجباتهم فإننا سنجد أن رتبهم توازى في الأهمية رتب الملازمين والمقدمين على أقل تقدير . وعلى الرغم من أن راتب قائد المائة اختلفت نسبته مع راتب النفر بدرجة ملحوظة خلال العصور المختلفة ، فإنه بلغ في بعض الأحيان عشرة أضعاف راتب الجندى النفر (انظر ص ٤٦) ، وقد يتقاضى اليريموس بيلوس مرتباً أعلى من ذلك ، ومما من حكومة تعرض مرتبات طيبة ولا تطلب مقابلها خدمات خطيرة . وربما كان الضباط من رتبة اليريموس بيلوس هم الضباط ذوى الخبرات الخاصة ، فقد أرسل أحدهم — على سبيل المثال — لمسح خليج كورنثوس تمهيداً للحفر إحدى القنوات ، كما بعث نيرون بضابطين من الرتبة نفسها لاكتشاف مياه أعلى النيل . وقد يرقوا إلى قواد فرق كالتى ترابط في مصر ، كما جرت العادة أن يولوا قيادة أعداد كبيرة من القوات . وهكذا قلد تراجان ضابطاً برتبة يريموس بيلوس قيادة ٣٠٠٠ من قدماء المحاربين للرابطة في قورينة (برقة) Gyrene ، كما ضم آخر وهو لوكيوس أرتوريوس كاستوس L. Artorius Castus إلى قيادته بعض وحدات الفرق البريطانية لقمع ثورة في بريتانى Brittany ، وكان يحق لثالث هو جايوس فيليوس روفوس G. Volius Rufus أن يفاخر بأنه أتى على رأس وحدات اختيرت من بين ثمانى فرق ترابط في بريطانيا وجرمانيا للمساعدة في الحرب ضد الداكيين Dacians . ولا يمكن لامرئ القيام بمثل هذه المهام الخطيرة بحذق وكفاية ما لم يكن قد أثبت قدرته لا على القيادة وبث الروح العالية بين الجنود في المعركة لحسب ، بل برهن على قدرته أيضاً في تصريف شئون الأعداد الكبيرة من القوات والتحكم فيها بمهارة ، لاسيما أنها لا تقدم فروض الطاعة لأحد كما لا ترضى أن يتولى قيادها سوى رجال من ذوى الخبرة الطويلة والشخصيات القوية الأخاذة . والحقيقة أن قواد المائة كانوا يمثلون القلب الصلب

القوى للجيش كله ، كان بعضهم دون شك قاسياً فظاً غير أن الغالبية العظمى كانت تتصف بالاستقامة والاتزان ، وتمتع بمستوى عال من الدربة وحسن التصرف في مواجهة الأحداث الطارئة والمواقف الدقيقة ، والخلاصة أنهم قاموا بدور مجيد . وترتب على ذلك أن أتيح لقواد المائة أو الضباط من رتبة البريموس بيلوس ، أن يحتلوا ، بعد التقاعد ، مكانة بارزة في مدنهم التي انحدروا منها وغالباً ما كانوا يدخلون في عداد المصلحين المحسنين ، والأمثلة كثيرة على ما كان يقوم به مثل هؤلاء الرجال من إهداء لإخوانهم المواطنين الحمامات أو المكتبات أو المنشآت العامة ، كما كان هؤلاء القواد والجنود المتقاعدون يمثلون صخرة صلبة ثابتة الدعائم من الولاء والتبلى في شتى أنحاء البلاد .

ولنتقل من الحديث عن الجيش إلى الحديث عن الأسطول . لم يكن للأسطول في نظر الرومان من الأهمية ما كان للجيش ، كما يستدل من الحقيقة الماثلة في أن بحارته لم يكونوا يجندون من بين المواطنين الرومانيين ، بل ذهب الأمر إلى حد السماح للعبيد المعتقدون بتولى قيادته . وكانت واجبات الأسطول في الغالب هي الحراسة والنقل وحفظ الأمن في البحار عموماً . وكانت قاعدتا الأسطول في بداية الأمر تقعان في رافينا Ravenna للإشراف على البحر الإديرياتيكي وميزينوم Minum لتفقد البحر التيراني . ولكن الأمر قد اقتضى بناء أساطيل إقليمية ، لاتساع رقعة الإمبراطورية وازدياد أعبائها ، فالقبح الذي كان ينقل بحراً من الإسكندرية ثم من شمال إفريقيا (فيما بعد) كانت تقوم بحراسته سفن أساطيل الإسكندرية وأساطيل شمال إفريقيا التي كانت تتميز بصغرهما ، وكان للنهرين الشماليين العظيمين ، الرين والدانوب ، الأساطيل الصغيرة الخاصة بهما ، كما خصصت للبحر الأسود وحدة بحرية قوامها أربعون سفينة تقريباً قاعدتها في تراپيزوس Trapezus . (تريبيزوند Trebizond)

كما كان يقوم بحراسة بحر المانش والتطواف فيه ، بعد أن أصبحت بريطانيا ولاية رومانية ، الأسطول البريطاني Classis Britannica وقاعدته في بولونيا .

وقامت هذه الوحدات من الأساطيل ، لفترة طويلة من الزمن ، بمهامها العادية في صيانة الأمن ومراقبة البحار . ولم يكن ينظر إليها إطلاقاً على أنها وحدات مقاتلة ، والحقيقة أنه لم يقصد بها قط أن تكون كذلك ، ومن ثم فقد كان أن سددت إليها غزوات البرابرة في أواسط القرن الثالث ضربة قاصمة . فإن القوطيين ، بعد أن بلغوا البحر الأسود ، بعد سنة ٢٥٠ ، وجها ما يشبه الإنذار المبكر ، بأن حملوا رعيتهم وعبيدهم الجدد على بناء أسطول بحري . وما إن حل عام ٢٦٧ حتى كان القوطيون يهاجمون بيشينيا Bithynia وليديا Lydia ، وفي عامي ٢٦٨ و ٢٦٩ استطاعوا أن ينحسوا السفن الرومانية عن سبيلهم دون عناء ، وشقوا طريقهم داخل المضائق وألقوا الدمار والخراب بالمدن الغنية الواقعة في غرب آسيا الصغرى وعاثوا فساداً في جزر البحر الإيجي ، بل إنهم قد بلغوا أئیناً أيضاً . وهكذا جاء دور الأسطول في أن يعاد تنظيمه بصورة شاملة كما حدث للجيش ، على يد دقلديانوس . فقسم الإمبراطور الأسطول — ليوفر له مزيداً من خفة الحركة — إلى وحدات صغيرة مستقلة تتخذ كل منها ميناء واحداً قاعدة لها ، ولا تستخدم إلا في حراسة منطقة بعينها . وثمة حقيقة غريبة تبرز لنا وسط هذه الفترة التي يكتنفها الغموض وهي أن الأسطول البريطاني ظل محتفظاً بكيانه حتى النهاية ، فلم تفت في عضده ، نظراً لتدريبه القاسي ، تلك القوى التي أوهنت وحدات البحر الأبيض المتوسط ، والحقيقة أن دقلديانوس أناط قيادته بأحد البلجيكين وهو كاروزيوس Carausius ، وأمره بأن يصد الغارات التي أخذ الفرنجة والساكسونيون في شنّها على الشواطئ البلجيكية والبريطانية ، وبمطاردة المغيرين وتفريق شملهم . وفي سنة ٢٨٦ أعلن كاروزيوس راية العصيان على الإمبراطورية ، وأقام هو وخليفته ألكسندروس

Allectus ، مدة عشر سنوات ، مملكة بريطانية غالية يساندها الأسطول البريطاني . واستطاع كونستانتيوس كلوروس Constantius Chlorus . والد قسطنطين قمع هذه الثورة ، بيد أن خطر البرابرة ظل ماثلاً ، ولكي يدرأ هذا الخطر أقام القلاع على الشاطئ الساكسوني فيما حول الشاطئ الجنوبي الشرقي لانجلترا ، عتدة من « واش » Wash إلى جزيرة وايت Wight ومن دنكيرك Dunkirk إلى شبه جزيرة كوتنتين Cotentin وإلى ماوراءها . ومن المؤكد أن وحدات الأسطول كانت تتخذ هذه القلاع قواعد لها ، ولكننا لا ندرى كيف كان يتم ذلك . وإلى القرن الرابع ، لا نعلم أن نجد بعض الممحات العابرة عن الأسطول البريطاني ، فيبدو أن كانت هناك حتى سنة ٣٧٤ قاعدة لتزوين الأسطول بالقرب من ليدني Lydney على نهر سيفرون Severon ، ويرجح أن كانت بعض سفنه ترابط على طول شاطئ ويلز الشمالية من كارجيبي Caer Gylbi (هوليهيد Holyhead) إلى تشستر Chester لصد هجمات القراصنة الإيرلنديين . ويبدو أن بعض سفن الاستكشاف الصغيرة ، كانت تتخذ قاعدتها في هذه الموانئ ، كما يذكر فيجيتيوس Vegetius ، عتفية بطريقة بدائية من طرق التويه ، إذ كانت أشرعتها وحبالها مصبوغة باللون الأخضر كما كان بحارتها يرتدون زياً في لون اخضرار البحر . وحسبنا أن نقف عند هذا التاريخ .

كانت غزوات القرن الثالث محكا قاسياً لنظم الرومان العسكرية ، إذ استولت على الأباطرة والقواد خلال الفترة العصيبة بين عامي ٢٥٠ و ٢٧٠ حتى ارتجال الأساليب الجديدة للدفاع وابتكار أسلحة جديدة ، وجمع مزيد من القوات ، ولم تكن روما لتأبى قط الأخذ بأساليب أعدائها والاستفادة من خبراتهم . لقد ولت العمود الخوالى التى كان فى استطاعة الجيوش الدائمة أن تواجه فيها شتى المواقف ، وأصبح لزوماً على المدافعين عن الإمبراطورية أن يكونوا على أهبة واستعداد فى جميع النقط ، وعلى ذلك فإن النظام الذى اصطنعه دقلديانوس

كان يقوم على أساس إنشاء عدد كبير من القلاع والمواقع الدفاعية المنيعه ، حيث ترابط الحاميات بصفة دائمة ، بينما يقف جيش أو أكثر من الجيوش السريعة الحركة تحت قيادة واحد من الأباطرة الأربعة ، على أهبة الاستعداد للاندفاع بالإمدادات إلى أية نقطة مهددة بالخطر .

ولم يعد في وسع دقلديانوس وزملائه الثلاثة — كما سيأتى في الفصل التاسع — أن يتخذوا روما ، قصبة البلاد القديمة ، عاصمة لهم ، بل إن عاصمة أى إمبراطور ، أصبحت نظرياً الموضع الذى يتفق أن يربط فيه هو وجيشه المتنقل . بيد أنه يمكن القول بوجه عام أن عاصمة القسم الغربى كانت في تريفيس Trèves ، وعاصمة القسم الإيطالى والألبى كانت ميلانو Milan ، وعاصمة قطاع البلقان كانت سيرميوم Sirmium (متروفيتزا Mitrovitza على نهر سيف Save) وعاصمة القسم الشرقى نيكوميديا Nicomedia (أزميد Iamida) . وعلى حين كان المشاة فى الماضى هم العنصر الرئيسى فى الجيش ، إلا أن ذلك لم يعد بكاف ، فقد كانت الحاجة تدعو إلى توفير قدر أكبر من خفة الحركة ، وإلى طائفة أكبر من القوات المدربة على أنواع معينة من الأسلحة ، وإلى مزيد من رماة السهام والرماح والمشاة الراكبة . وقد أخذوا عن لبارثيين إحدى المستحدثات البارزة ، أى سلاح الفرسان المدرعة cataphracts الذى سمي بهذا الاسم نظراً لأن كلا من الفارس وجواده ، كان يحتفى بالسلاسل الواقية التى كانت تغطيهما تماماً . وكان لاقتدار الأباطرة إلى الرجال أن اضطروا إلى استئجار وتجنيد قوات من البرابرة بأعداد متزايدة . وضع هذا الجيش الجديد ، وتلك الأساليب المستحدثة ، حلت تشكيلات وألقاب جديدة مثل comes و dux محل الفرق والكتائب وقواد الفرق والكتائب فى القديم . وفى الوقت ذاته أصبحت الحدود عبارة عن سلسلة متصلة من المواقع الصغيرة المنيعه ، اختصرت لأهميتها (مثل مواقع القنفذ فى العصر الحديث) . وهكذا أمكن التغلب على التفوق العددي الذى تميز به البرابرة المغيرون ، وأصبحت

القلاع تزود بالفرسان والرماة الراكبين لمناوشة العدو وتمزيق صفوفه . وتقرر أيضاً استخدام الفرق الوطنية ، على نطاق مطرد الزيادة . لقد عقد دقلديانوس وخلفاؤه العزم على الوقوف في وجه حشد من المغيرين جاء من كل حذب وصوب ، وسدد هجماته من البر والبحر ، بأن لجشوا إلى كل وسيلة ممكنة ، بتكوين تشكيلات جديدة واتخاذ معدات مستحدثة ، واستخدام آخر ما وصلت إليه أسلحة المدفعية ، وتعديل جهات الحدود عن طريق إقامة قلاع جديدة أو استصلاح حصون قديمة ، وبلاستفادة من خبرات أعدائهم . لم يتطرق اليأس قط إلى نفوس الأباطرة خلال الفترة بين ٢٥٠ و ٢٧٥ ، أما الأباطرة الذين تبوءوا العرش في الفترة ما بين ٢٧٥ و ٣٢٥ فقد استطاعوا فعلاً أن يردوا الغزاة على أعقابهم وأن يثبتوا أقدامهم في الأراضي القديمة وأن يشرعوا في تنفيذ خطط التجديد والإصلاح . كانت لفظتنا الإصلاح والبناء علماً على ذلك العصر ، فاستعيد بنيان الإمبراطورية الهائل ، لفترة من الزمن ، ولو أن ثمن ذلك كان باهظاً ، وخلال هذه الفترة ، شرع شيوخ العشائر في التعرف ثم التفهم ثم الإعجاب بعظمة السلام الروماني وجلاله .

ولعل أعظم ما حققه الجيش هو أنه صان الإمبراطورية ومد في عمرها إلى الأجل الذي حمل قاهروها على أن ينقلبوا نادمين على شهوة التخریب والتدمير التي استولت عليهم ، وإلى محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما استأثر بإعجابهم من تراث روما ، فأيقوا على ديانة الرومان وقوانينهم ونظمهم . ولكنه ما كان الجيش بمستطيع قط أن يؤدي رسالته نولاً مهارة المهندسين الرومانيين الفائقة وحذقهم في مد وصيانته تلك الشبكة الهائلة من الطرق التي شملت كافة الولايات ، والتي يمرت سبل الإتصال السهل السريع ، لا بين الولايات المتجاورة لحسب ، بل بين الشرق والغرب . وكانت هذه الطرق تختلف في الاتساع وعمق الأساس المقامة عليه تبعاً لأهميتها . فقد يبلغ عرض الطريق بالنسبة للطرق

الرئيسية العظيمة الممتدة عبر بلاد الغال أو إيطاليا أو على طول حدود بلاد ما بين النهرين أو في سوريا ، أربعاً وعشرين قدماً ، تتكون أسطحها من ألواح حجرية كبيرة ترتكز على أساس من الأحجار والدقشوم والحصى المذكوك الذى يبلغ فى السمك أربع أقدام ، مع استعمال الأحجار المدببة لربط وتثبيت السطح ، بينما تحفر على جانبي الطريق خنادق على شكل رقم ٧ مما يهيئ تصريفاً جيداً للبياء . ولا يزيد عرض الطريق بالنسبة للطرق الريفية والمدقات على ثمانى عشر أو اثني عشر قدماً ، كما أن أسسها لا تصل إلى هذا التعقيد فى البناء ، وقد يحدث فى بعض الأحيان ألا يتطلب الأمر سوى تغطية طريق محلى قديم . وبرغم أن الفكرة السائدة عن الطرق الرومانية والتي تقول إنها تقطع البلاد من أقصاها إلى أقصاها فى خطوط مستقيمة لا اعوجاج فيها ، دون النظر إلى ما قد يصادفها من عقبات ، فكرة غير صحيحة — لأن المهندسين الرومانيين كانوا أحصاف وأدرى بفنهم من أن يقوموا فى هذا الخطأ — فهذه الطرق كانت تأخذ اتجاهها مستقيماً فى العادة ، وتفيد من طبيعة تضاريس الأرض أعظم الفائدة ، فكانت العقبات تعالج بمهارة فائقة ، كما كثر استخدام الجسور والخنادق ، أما الآنهار فقد أقيمت على ضفافها قناطر حجرية مقوسة جميلة — وما زالت هناك نماذج منها قائمة فى شمال إيطاليا وأسبانيا والبرتغال ، وتخترق المستنقعات بإقامة الطرق عليها على قوائم خشبية ، أما الفتوات الصخرية فكانت تحفر خلالها الأنفاق .

وثمة عمل فذ يثير أبلغ الإعجاب وهو إقامة طريق على طول المنطقة الصخرية شديدة الانحدار على نهر الدانوب عند اتصاله بخائق كازان Kazan ، إذ قام المهندسون فى عهد تيريزوس ثم فى عهد تراجان من بعده بنحت سلسلة من الفجوات فى الصخور الصلدة الصماء فى الناحية الجنوبية ، ثبتت فيها جذوع شجر لتتكون بمثابة دعائم ترتكز عليها الألواح الخشبية التى تحمل الطريق . ولم

يقصد بهذا الطريق قط أن يتحمل ثقل الفرق الرومانية الزاحفة ، بل كان الغرض منه هو أن يكون ممراً تسحب من فوقه — بواسطة الحبال — السفن والصنادل التي تحمل شحنت ثقيلة . وهو على هذه الصورة أيضاً يعد عملاً مجيداً حقيقياً بالإعجاب ، حتى يومنا هذا لم تمتد خطوط السكك الحديدية هناك ، أما الطريق الحديث الوحيد فيقع على الضفة الشمالية . ويقدم نهر الدانوب أيضاً قطعة هندسية رائعة أخرى ، ألا وهي ذلك الجسر العظيم الذي يمتد عبره بالقرب من تورناسيفيرين Turna Severin ، والذي أقيم في عهد تراجان على يد أبولودوروس الدمشقي Apollodorus ، أعظم مهندس عصره . ويستطرد المؤرخ ديوكاسيوس Dio Cassius ، في روايته عن حملة تراجان على داكيا ، إلى الإعراب عن إعجابه بأرصفتها الحجرية الاثني عشر العظيمة وصفوف بواباتها الخشبية (التي ترتفع بعضها إلى ما يزيد على ١٠٠ قدم) ثم ارتفاعها إلى ستين قدماً فوق سطح النهر .

وكان من الطبيعي أن يتركز هذا النظام الدقيق للواصلات في روما ، وأن يتخذ نقطة بدايته التقليدية عند « الحجر الذهبي » الذي أمر أوغسطس بإقامته . في صدر الفورم ، عند ما تولى رئاسة الطرق ، هذه الطرق بما تميزت به من تحقيقها الغرض المنشود منها ، ولامتدادها الرهيب في خطوط مستقيمة كأنها جحافل جيش زاحف متقدم لا يلوى على شيء ، كانت إحدى عجائب العالم القديم ، بل لأنها كانت حتى في أواخر أيامها مصدر إعجاب لأهل العصور الوسطى الذين نسبوا هذه الأعمال الرائعة إلى أحد الأبطال الخرافيين ، بل ظنوها من عمل الشيطان نفسه ، إن عبارة الطريق العام في اللغة الإنجليزية ، « أو الطريق العالي » كما تترجم حرفياً لتحملنا على التفكير فيما شاهده الإنجليز الأوائل بأعينهم وأدركوه بإحساسهم ، فهو الطريق الروماني الذي كان يرتفع عن مستوى الأرض . وما زالت بعض القناطر الحجرية قائمة حتى يومنا هذا في هضاب تركيا الشرقية ، لم يصب بناؤها الحجرى بعد بأي تغيير يذكر ، كما

— ٦٠ —

شوهدت من الطائفة آثار لها في صحراء سوريا في أماكن تبعد كثيراً عن الأجزاء الآهلة بالسكان ، أما في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وإنجلترا فعادة ما ترتكز الطرق العامة الحديثة على أسس الطرق الرومانية القديمة . وليس هناك ما هو أبعد وأروع من مجموعة الطرق الرومانية والحائط الروماني و « المتراس » Vallum التي تقع في نورثمبرلاند Northumberland وكمبرلاند Cumberland وهي آثار للجيش الروماني إن دلت على شيء فهي تدل على براعته في التصميم والعمل والبناء .

الفصل الثالث الشعوب والولايات

لم تكن تلك الرقعة المترامية من الأراضي التي كانت تتألف منها الإمبراطورية الرومانية تضم شعبا متجانسا . ولعل أقدم العناصر التي كانت بها وأكثرها تملغا ، هي تلك الشعوب غير الهندية الأوروبية مثل الفسكونيين Vascones في شمال غرب أسبانيا (وما زال هؤلاء يعيشون تحت اسم البسكيين Basques بلقنهم الغربية الغامضة) والليجوريين Ligurians على الريفيرا الإيطالية والمالطيين وغيرهم من القبائل القوقازية والأناضولية المختلفة التي تقطن الجزء الشمالي الشرقي من الإمبراطورية . بيد أن معظم سكان الإمبراطورية ، بغض النظر عن المصريين الوطنيين والشعوب السامية في شبه الجزيرة العربية ، كانوا يتبعون سلالة الشعوب التي تتكلم اللغات الهندية الأوروبية مثل الكلتيين والإيطاليين والجرمانيين والقراقيين واليونانيين وغيرهم . وعلى الرغم من انعدام الوحدة الجنسية بين سكان الإمبراطورية إلا أن لغة واحدة كانت هي اللغة الرسمية السائدة في جميع أنحاء هذه المنطقة ، وهي اللغة اللاتينية التي يتكلمها المواطنون الرومانيون . وما من شك في أن المواطنين الرومانيين سواء أكانوا مواطنين بالوراثة أم ممن اكتسبوا حقوق المواطنة بمنحة من إمبراطور أو حاكم ، كانوا يميزين مكانة ومنزلة عن سائر السكان ، غير أن هذا لا يعني قط أنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم « الشعب المتفوق أو السيد » (Herrenvolk) كما يقال في الألمانية ، بل كانوا على الأرجح يعتبرون أنفسهم أعضاء مبرزين ، وقد كانوا بطبيعة الحال يعدون أنفسهم فئة مهيمنة نبيلة (وهل سلبت أمة من ذلك ؟) بيد أنه كان ثمة تقليد عريق مصون يقضى بأن

تفتح روما باب التمتع بحقوق المواطنة الرومانية لكل من أثبت بعمله من أجلها جدارته بهذا الحق . وقد ألمع أحد ملوك مقدونيا في زمن مبكر يعود إلى القرن الثالث قبل المسيح ، إلى هذا الموقف الكريم منها . كما لم يتردد أى من بومبي وقيصر في منح حقوق المواطنة للنبلاء الوطنيين الذين كانوا على استعداد للانضمام إلى صفوفهما ، وأعرب قيصر عن تقديره لحذق بعض اليونانيين في ميادين الطب والهندسة المعمارية والآداب بأن وهبهم منحا مماثلة . وربما كان وقع الأسماء الرومانية مثل جيوس يوليوس G. Julius مقرونة بأسماء كلتية مثل إمبوستروفيدوس Emposterovidus غريبا على الأسماع ، ولكن الواقع أن جيلا رابعا من المواطنين الرومانيين الغالين ، ممن تلقوا تعليمهم وتدريبهم وفق النظم الرومانية . أتيح له في أواسط القرن الميلادي الأول أن يدخل مجلس الشيوخ وأن يتقلد مناصب الحكم . لذلك فلم يكن هناك أدنى قسط من المبالغة في قول القائل الروماني الذي كان يخطب عام ٧٠ في جمهور من الغالين : « أتم تتولون بأنفسكم — في كثير من الأحيان — مقاليد الحكم في ولايات رومانية ، أو تناط بكم قيادة فرق رومانية ، فما من شيء مبعث عنكم أو محرم عليكم » . وما إن حل القرن الثاني حتى بات مجلس الشيوخ يرحب بانضمام اليونانيين والشرقيين إليه ، كما أصبح هؤلاء يختارون لتولى القيادات بالجيش ، ومثال ذلك المؤرخ الشهير آريان Arrian وقدرو لهذا الاتجاه أن يبلغ مداه عام ٢١٢ على يد كاراكالا (انظر الفصل التاسع) .

ورغم أن أعدادا كبيرة من المواطنين الرومانيين كانوا منتشرين في شتى الولايات ، خلال القرن الثاني ، فلم يكن لهم كالم يكن لأهل الولايات ، حكومات نيابية ، بيد أنه كان في وسعهم أن يعلنوا عن رغباتهم ومشاعرهم بطرق شتى . ففي العهد الأولي كان هناك ظل من نظم الانتخابات الشعبية تخلف عن العهد الجمهوري — بل الواقع أن أوغسطس فكر ذات مرة أن يسمح للمواطنين الرومانيين المقربين بإرسال بطاقات التصويت عن طريق البريد — بيد أن

مجلس الشيوخ كان المشرف على انتخابات الوظائف العامة . وإلى جانب ذلك ، فإنه لما كان من حق الإمبراطور أن يضم بناء على رغبته ، من ثبتت جدادتهم من المواطنين إلى مجلس الشيوخ ، كل في مرتبته اللاتفة ، فلم تلبث هذه الهيئة أن أصبحت تضم مواطنين من الولايات على جانب كبير من الثراء والهيبة ، وكان هؤلاء يختارون من الولايات الغربية في بادئ الأمر ثم من الولايات الشرقية فيما بعد ، وبذلك أصبحوا يمثلون « الرأي العام » . أما في القرن الثاني فقد بات مجلس الشيوخ بمثابة « مجلس استشاري » لدى الإمبراطور ، وعلى الرغم من أن هذا المجلس قد سلب معظم سلطاته خلال القرن الثالث ، إلا أن مركز عضوا مجلس الشيوخ لم يفقد قط مكانته وهيئته . ولما كان في وسع المدن والمجالس البلدية في الولايات أن تنتخب عضواً ذا نفوذ من أعضاء مجلس الشيوخ ليكون راعياً *patronus* لها ، فقد كان لها أن تطعن إلى أن شكواها مما قد يقع عليها من غبن ستصل إلى مسامع المسؤولين ومن ثم نزول أسباب الشكوى ، بينما كان في وسع أهل الولايات ممن ليسوا مواطنين أن يرفعوا مسائلهم الهامة أمام « مجلس الولاية » الذي كان يجتمع مرة في العام على الأقل في عاصمة الإقليم . وهكذا نرى أن المواطن الروماني كان كائناً متميزاً ، حيثما أقام وحيثما حل ، ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك ما حدث للقديس بولس ، إذ أنقذته رعايته الرومانية في مرة من المرات (لاكل المرات) من الجلد ، وخولت له الحق في التماس العفو من الإمبراطور نفسه . وفضلاً عن ذلك فقد كان للمواطن الروماني وحده الحق في عقد قران رسمي مشروع ، وإنجاب ذرية شرعية ، والتصرف في ممتلكاته بموجب وصية قانونية صحيحة ، وكانت له حرية الانتقال إلى حيثما يشاء (ولو أنه لم يكن مسموحاً لعضو مجلس الشيوخ بمغادرة إيطاليا إلا بإذن من الإمبراطور) . بيد أن ذلك لا يعني أنه لم يكن في استطاعة غير المواطنين أن يقوموا بما يقوم به المواطنون ، ولكن قيامهم بذلك لم يكن حقاً مشروعاً لهم .

ويمكن أن نقسم غير الرومانيين — بقصد التيسير — إلى فريقين ، أهل الشرق وأهل الغرب . أما أبناء الشرق فقد كانوا أكثر تمدناً وأعظم جداً ونشاطاً فضلاً عن إيمانهم بتراثهم الحضارى العريق ، وضم الشرق شعوب مصر واليهودية وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان الأصلية ، وكانت هذه مجموعة متباينة عجبة من الشعوب والألسنة زاد من غرابتها انتشار اليونانيين في جميع أنحاء المنطقة ، إلى الحد الذى أصبحت معه اللغة اليونانية ، هى لغة طبقات الأثرياء والمثقفين والتجار ، في حين أن السكان الوطنيين القدامى ممن هم دون هذه الطبقة ظلوا يستخدمون لهجاتهم المحلية ، فكانت هناك اللغات المصرية والآرامية والسكبادوكية واليكاذونية Lycæonian والفريجية والقرائية . وكادت روما في عهد الجمهورية ، خلال القرن الثانى قبل الميلاد ، أن تقضى على الحضارة الهيلينية ، غير أن بومبى الكبير لم يلبث أن تبين هذا الخطر ، ودأب الأباطرة على تنجيس المدن اليونانية والمنشآت اليونانية في جميع أنحاء الشرق . وبينما لمس الرومان مبلغ نفع المثقفين من اليونانيين ، وما يتمتعون به من ميزات محمودة في الوظائف الإدارية ، أخذ اليونانيون أنفسهم يتحولون شيئاً فشيئاً عن نظرهم المتعالية إلى روما ، وشرعوا في النظر إلى أجداد الرومان باعتبارها على قدم المساواة مع أجدادهم أو تقل عنها بقدر يسير ، فقد أقام معلم من سرديس Sardes في القرن الثانى تمثالين نصفين لديمستين Demosthenes وشيشيرون Cicero باعتبارهما قطبي الخطابة التوأمين ، وبلغ فرجيل من ذبوع الصيت أن ترجمت أشعاره إلى اليونانية ، وكتب بلوتارخوس Plutarch سلسلته المشهورة « السير المماثلة » حيث قارن بين سير بعض الساسة والقادة اليونانيين ونظرائهم من الرومانيين . وكان من المؤلف بعد عام ١٠٠ أن يقوم « يونانيون » على حكم أو إدارة ولايات شرقية ، أو يتولون مناصب قيادية ثانوية ، وكان الأباطرة على استعداد دائماً للاستفادة من العلوم والمهارات اليونانية وتشجيع أهلها سواء في الطب أو المحاسبة أو الاكتشافات الجغرافية .

لقد تم في القرن الثاني الوفاق بين جنسين متباعدين ، وهكذا التأمّت في النهاية الجراح التي خلفتها الأحقاد القديمة .

وما من شك في أنه لم يكن متاحاً للسكان الوطنيين ، من غير طائفة اليونانيين أو المتكلمين باليونانية — وقد كانوا في الغالب من الفلاحين أو عمال المصانع والموانئ — ما كان متاحاً لأفراد هذه الطائفة من فرص العمل والنجاح . وقد احتفظ الوطنيون بلغاتهم الخاصة (حتى تحتم على الرومان استخدام المترجمين حيثما دعت الحاجة) وظلوا على عاداتهم ودياناتهم وأعيادهم ، فقد كانت روما على قدر من الحكمة والبصيرة يربأ بها عن حماقة التدخل في مثل هذه الأمور . ورغم أنه كان في وسع الأثرياء بلوغ كراسى الحكم في النهاية واحتلال مراكز بارزة في أوساطهم المحلية ، مما يتيح لهم التطلع إلى نيل حقوق المواطنة الرومانية ، إلا أن مثل هذا المطلب كان فوق طاقة الغالبية العظمى ، التي كانت تواصل عملها في جرد ومثابرة قانعة بحالها راضية في معظم الأحوال ، إلا أن تفرض عليها ضرائب جديدة أو تحدق بها بجساعة ، فعند ذلك تتلاحق الشكاوى والملمات على الحاكم ، والأمر متوقف حينئذ على مهمة الحاكم وحكمته .

بيد أن الأمر لم يكن يخلو من المتبرمين الساخطين ، لأن روما لم تكن تؤيد القوميات السياسية ، ولكنها الطبيعة البشرية هي التي تقضى بإيثار الحكم الذاق على الحكم الرشيد المستنير . ودأب الأباطرة والحكام على استلفات الأنظار دائماً فيما يصدر عنه من منشورات وبيانات ، إلى الخيرات التي تعود على الإنسانية من جراء حكمهم ، بيد أن ذلك لم يكن يفضى بالضرورة إلى الإقناع . وفي مصر بوجه خاص ، لم تحتمف بذور الثورة في أي زمن من الأزمان ، فقد كان هناك ، أولاً وقبل كل شيء ، السكان الوطنيون القدماء ، الغالبية العظمى منهم منصرفة إلى الكد والكسح على الدوام ، أو كانوا كنهة يقومون بإحياء الطغوس التقليدية القديمة ، وجميع هؤلاء هؤلاء يكونون

الكرامية اليونانيين الغزاة المعتدين الذين وفدوا إلى البلاد مع الإسكندر الأكبر ، وهم على استعداد دائماً لاستنكار المضار التي كان يلحقها الأجانب بمصر . أما السكان اليونانيون الذين كانوا يمثلون يوماً ما العنصر صاحب السيادة ، فقد كانوا يزدرون الوطنيين ، ويحقدون على الرومانيين الذين أزاوهم عن مراكزهم ، وكانوا يتناقلون فيما بينهم نوعاً غريباً من الأدب أطلق عليه الباحثون في العصر الحديث اسم « أعمال الشهداء الوثنيين » . وتروى هذه الأعمال عادة كيف أن اليونانيين المقيمين في الإسكندرية كانوا يساقون إلى الإمبراطور ، ويحاكون أمامه بتهم باطلة ملفقة . ويظهر الإمبراطور في هذه الأعمال — بطبيعة الحال — حقوداً قاسياً يحكم عن هوى ، ولا تحتّم المحاكمة التي تنتهى بالإدانة عادة إلا بعد أن يكون المتهم قد فاه ببعض الأقوال الطنانة الأخاذة . لم يلس الفلاحون الوطنيون أى تحسن طراً على أحوالهم أو أعبائهم ، بانتقال الحكم إلى الرومان ، والامر ببساطة لا يعدو أن الرومان كانوا أكثر حزمًا ودقة في الإدارة من البطالمة المتأخرين . ففي مصر كان يقبع مخزن الغلال التابع لروما ، وما كان الرومانيون ممن يتهاونون في المطالبة بحقوقهم كاملاً . وكانت روما بمثابة مالك متغيب ، وكان جانب عظيم من القمح الذى يسلمه مستأجرو الأراضى الملكية إيجاراً لأرضهم ، أو يقدمه ملاك الأراضى ضريبة على أرضهم ، يرسل جميعه بالإضافة إلى الضرائب النقدية إلى روما لينفق لمصلحة الشعب الروماني فتتمثل فيه خسارة تامة لمصر . ولم يكن للفلاحين إزاء هذا الاستغلال المنظم إلا أن يلجئوا في النهاية إلى سلاح واحد هو سلاح التهديد بترك أرضهم دون زرع ، أى التهديد بالإضراب . وكانت ترد من وقت لآخر الأوامر والمنشورات من الحكام يهيبون فيها بالفلاحين الساخطين العودة إلى زراعة أراضيهم ومواصلة أعمالهم ، وإن قصة مصر الرومانية « لقصة مؤسسة تتمثل فيها ضرب من الاستغلال وقصر

النظر أدت في النهاية إلى النتيجة المحتمة لها وهي الانهيار الاقتصادي والاجتماعي^(١) . ولا غرابة في أن أصبح المصريون يكنون للحكومات دائماً أشد الحقد . وذهب الأمر إلى حد أن الإدارة الرومانية كانت تشدد الرقابة على الكهنة المصريين أنفسهم ، ولقد آلت إلينا وثيقة مؤثرة ، كانت بمثابة صرخة ألم أخيرة أطلقها مصري عاش في القرن الثالث ، كان يشعر أن اليونانيين والرومانيين يحطمون كل ما هو مصري وكل ما هو مقدس وكل ما هو شائق طريف ويمهون به إلى هاوية الفناء والعدم . لقد كتب يقول : « سيحين الوقت الذي يبدو فيه أن مصر أكرمت آلهتها عبثاً طيلة هذا الزمن ، يدافع من ورعها وتقواها . سيترك الآلهة هذه الأرض ويعودون إلى سماواتهم . . . لأن الغرباء يملئون هذه البلاد وهذه الأرض ، ولن يطوى النسيان البدين لحسب ، بل الأدهى أنه سيحرم علينا باسم القانون وتحت التهديد بالعقوبات الرادعة ، كل ورع وعبادة ونسك . وهكذا ستمتلئ بالتقبور والأموات هذه الأرض المقدسة كل المقديس ، الأرض التي كانت مهداً للهيكل والمعابد . أيا مصر ! أيا مصر ! لن يبقى من كل صلاحك سوى أحجار صماء ، لن يؤمن بها أبناؤك ولن تبقى غير ألفاظ منهجوة في الصخر تحكي قصة أعمالك الصالحة . . . » .

كذلك قام اليهود الذين انتشروا في شتى الأصقاع ، بشورات مخوفة

(١) نقلت هذه الفقرة والفقرة السابقة من مؤلف السير هـ . ا . بل : « مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي » .

(Sir) H. I. Bell, Egypt : from Alexander the Great to the Arab Conquest, Oxford, 1948.

صفحتي ٧٦ الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على والأستاذ الدكتور محمد عواد حسن .

رهيبة . نار اليهود ضد الحكم الرومانى مرتين : إحداهما من عام ٦٦ إلى عام ٧٠ والأخرى من عام ١٣٢ إلى عام ١٣٥ ، وقد كلف قح هاتين الثورتين الحكومة الكثير سواء فى الرجال أو المال ، كما كان لتشتت اليهود وانتشارهم أن كان هناك احتمال لنشوب ثورات تتجارب مع هذه ، فى ولايات أخرى . وكان بوسع اليهود فضلا عن ذلك أن يتطلعوا دائما إلى عون وتأيد إخوانهم الذين يعيشون عبر الفرات تحت حماية ملك بارتيا Parthia . ولقد ظهر العداء الذى كان اليهود يشعرون به تجاه الدولة التى قهرت أمتهم ونقضت هيكلهم وسعت إلى استئصال ديانتهم ، فى صورة نوع آخر من التآليف الأدبية الغربية التى أطلق عليها الباحثون عبارة « نبوءات اليهود السيبيلية » *the Jewish Sibylline Oracles* . وما من شك فى أنه قد راجت وترددت فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية ، نبوءات تبشر بخلاص قريب ، وقد حرص الأباطرة الرومانيون على إعدام هذه الوثائق ومنع تداولها ، خشية أن تؤدي إلى التمرد والوحى القومى بين رعاياهم . وكانت هذه النبوءات اليهودية عبارة عن منظومات شعرية حسنة السبك سداسية المقاطع ، تحمل جميعها تقريبا رسالة واحدة ، يختلف مضمونها لتوائم كل زمن وكل بلد ، تعلن أن اليوم قريب حين يهب الشرق مرة أخرى تحت لواء قائد عظيم يطرد الرومانيين حتى الشاطئ أو يلقيهم فى البحر . ثم يطلع لجزر عهد تسوده العدالة والسلا والرخاء . وقد آلت إلينا نبوءة من هذه النبوءات كتبت فيما يرجع فى موجة القلق والذعر التى اجتاحت البلاد فى السنة التى نار فيها بركان فيزوف ثورته العارمة . فطمس معالم مدينتين إيطاليتين هما بومبي Pompeii وهيركولانيوم Herculaneum تحت وابل من الرماد واللافا ، وحين فر أحد المحتالين ، مدعيا أنه نيرون ، إلى ملك بارتيا وأوشك أن يحصل على معونته ، ويخرج الكاتب من ذلك بنبوءته بسقوط روما الوشيك . وكانت روما مضطرة ، شأنها شأن أية حكومة قديمة

أو حديثة ، أن تلجأ إلى أساليب القوة والعنف ، ولا شك في أنه قد وقعت حالات من الظلم ، ولكننا لا يمكن أن نقطع بما إذا كانت الدوافع الرئيسية لنسج هذه النبوءات هي الحق على حكومة ظالمة أو هي النفور من الحاكم الأجنبي أو هي الانتصار للشاعر القومية الدينية .

ويعتقد البعض أنه كان يوجد إلى جانب المراكز: المصري واليهودي ، مركز ثالث من مراكز مناهضة روما ، مصدره المسيحية . وإذا فإننا نقرأ في أحد شروح فقرة جاءت في رؤيا يوحنا اللاهوتي (الإصحاح ١٧ الآيات من ١ - ١٤) « إن الوحش الذي يحمل بابل العظيمة هو قوة الشعب المسمى باللاتين » . ولكن يبدو أن هذه ليست إلا مثلاً شروداً لأن كتابات كل من تلاميذ السيد المسيح وآباء الكنيسة توصي بطاعة الحكام والموظفين في الإمبراطورية ، لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله . والواقع أنه كان في وسع المدافعين عن المسيحية في القرنين الثاني والثالث أن يشيروا في نحر إلى الحقيقة الماثلة في أن المسيحيين لم يظاهروا قط أي مدح للعرش ، كما لم يساندوا أية حركة ثورية . ولم يرد ما يخالف هذا الرأي إلا في إشارة واحدة مفردة ، تقول: إن بعض المسيحيين في ولاية بونتوس Pontus رحبوا ، فيما يظهر ، بالقوطيين المغيرين وقدّموا لهم يد المساعدة (انظر الفصل التاسع) ، وأنهم لقوا من جراء ذلك تعنيفاً شديداً من أسقف أبروشيتهم : جريجوري

• Gregory Thaumaturgus

ويمكننا القول بأن الولايات الشرقية ، بغض النظر عن بعض المشاعر القومية التي كانت سائدة بين كل من المصريين واليهود ، وبغض النظر عن بعض العناصر الساخطة بين اليونانيين ، كانت راضية عن نظام الحكم الذي تلقت ، وأنها قد قبلت هذا النظام إن لم تكن قد رحبت به فعلاً . ذلك لأن روما احتملت وأباحت الكثير ، فأمن الناس على ممتلكاتهم ، ووضع حد لاهمال السلب

والنهب ، ولم تبدل أية محاولة لتحريم أو نحو اللغات المحلية أو العادات الوطنية ، أما الضرائب فلم تكن فوق الطاقة ، والواقع أنه قد يحدث في كثير من الأحيان أن يلبس سكان الممالك التابعة الصغيرة التي تضم إلى الإمبراطورية بعض التخفف من الضرائب المفروضة عليهم نظراً لانقطاع مصاريف البلاط الملكي بزوال العرش وانضمامهم إلى الإمبراطورية . والكثرة من الناس ، على مر العصور ، وبخاصة من يعملون في فلاحه الأرض ، إنما هم على استعداد لأن يقضوا حياتهم ، راضين قانعين ، إذا ما تركوا وشأنهم يفلحون أرضهم في أمن وسلام وإذا ما سمح لهم بالاحتفاظ بلغاتهم وتقاليدهم وديانهم ، مع مراعاة ألا تثقل كواهلهم بالضرائب . وقد انطبق هذا فيما يبدو بوجه عام على القرنين الأول والثاني . إن الأمر لا يبدو ما قاله أحد المؤرخين القدماء : « إن قلة من الناس تحسب هي التي تريد الحرية ، أما الغالبية العظمى فإنما تنشد الحكم المنصفين » .

أما الولايات الغربية فإنها تعكس صورة مخالفة تقف على النقيض تماماً من الصورة السالفه . فقد كانت القبائل السكتية في أقطار مثل أسبانيا والغال (وبريطانيا) أقرب إلى الرومان في اللغة والعادات وطرائق الحياة ، من الشعوب الشرقية . فعلى حين أن اللغة اللاتينية لم ترسخ لها قدم في الشرق ، فإنها قد تأصلت وامتدت جذورا في الغرب وبانت أشبه « بالبطانة الشائعة » في المسكنات الرسمية والمعاملات ، وما زالت اللغة اللاتينية هي القاعدة الأساسية للغات الفرنسية والأسبانية والبرتغالية ، كما أنها تمتد إلى حد في جذور اللغتين : البولندية والبريتونية . ورغم ذلك ، فإن انتشار الحضارة الرومانية كان تدريجيا ، لأنه لم يكن هناك مفر من أن يبدو القانون الروماني بدعوته الصريحة إلى الفردية غريبا مغلقا على الأفهام ، في نظر القبائل السكتية التي كانت تؤمن بقوانين الأسرة والجماعة . ورغم ذلك ، فتمثل الغرب للطابع الروماني ، كان أعمق من تطبع الشرق اليوناني به ، ويتضح ذلك من دراستنا لفنون الغرب ، ودرجة تمدنه ولغته .

بثت الإمبراطورية في أنحاء الولايات الغربية الأسلوب التقليدي الكامل للفن اليوناني الروماني . كانت روما نفسها مكتظة بفنون النحت اليوناني ، إذ كانت مجموعات التماثيل اليونانية تجلب في الأصل وفي أغلب الأحيان على صورة مغامرين وأسلاب ، ولو أن الحكام الرومانيين من ذوى الصلاح والتقوى كانوا يمتدحون من هذه السرقات ، وقد سجل أوغسطس بفخر أنه أعاد إلى المدين اليونانية والآسيوية المعابد والتماثيل التي كان ماركوس أنطونيوس قد استولى عليها . ولكن لما كان الطلب متزايدا في كل من إيطاليا والغرب على الأعمال الفنية اليونانية ، فقد وجد بعض أصحاب الأعمال اليونانيين ربحا وفيرا من وراء استخدام العمال في إنتاج نسخ من روائع الفن اليوناني تباع للثراء من أبناء الغرب ، بينما أخذ الفنانون أنفسهم في الهجرة إلى روما حيث كان المجال كبيرا للحصول على طلبات لمثل هذه التحف . وكان الأباطرة والنبلاء الأثرياء ومدن الولايات والقبائل المختلفة ، على استعداد لأن يؤدوا عنها أثمان باهظة . وهكذا طلبت قبيلة غاليّة من أرفيرني Arverni (أوفيرن Auvergne) من زينودوروس Zenodorus ، الفنان الذائع الصيت الذي عاش في القرن الأول ، أن ينحت لها تمثالا لإلهها ميركوريوس Mercurius ؛ كما طلب إليه الإمبراطور نيرون بعد ذلك أن يخرج تمثالا عملاقا هائلا ، ليقام أمام ردهة القصر الكبير الجديد الذي فُكر في بنائه والذي سُمي « بالبيت الذهبي » . كما أصبحت مدينة أفروديزياس Aphrodisias الصغيرة في كاريّا Caria في القرن الثاني ، موطنًا لمدرسة شهيرة من المثاليين والنحاتين ممن خلقوا لنا بعض التماثيل النصفية والنقود الجميلة .

وهكذا كانت هناك بعض الأصول والنماذج في متناول أيدي الفنانين من أبناء الولايات . ولو أن الزخارف المنقوشة على بعض الأواني الفخارية الغالية التي كان يتم إنتاجها وتصديرها بكميات هائلة — وكانت هذه عبارة عن

صور أسطورية ومشاهد ومواقف مأخوذة عن المسرحيات الكوميدية — لا ترقى إلا مستوى الفنون الأصيلة الرفيعة ، إلا أنه ليس بوسع المرء بحال أن ينتظر من هذا الإنتاج الضخم فناً رفيعاً أصيلاً . غير أن هناك بعض الزهريات (عثر عليها في كايستور Oaistor بمقاطعة لنكولنشاير Lincolnshire) تصور زخارفها مناظر الصيد ترى فيها كلاب الصيد تقفز متلهة نحو ساداتها ، والأرانب البرية تمرق مسرعة — وتضارع هذه الزخارف ، الصور الرياضية ، التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر — وهي تكشف عن إحساس مرهف وحيوية دافقة واستمتاع بالموضوع الذي تعالجه . وخلفت لنا مدرسة للبثالين من نيوماجن Neumagen مشاهد ممتعة من الحياة اليومية ، كصورة المستأجر يدفع إيجاره ، والمعلم الغاضب يعنف تلميذاً تخلف عن موعد الدرس ، والمسافر الذي يطفى ظمأه عند ينبوع إلى جانب الطريق ، والطبيب الذي يخرج جسماً غريباً من عين مريض . أما في شرق أوروبا ، فقد كان الفنانون الوطنيون في داكنيا يقومون بنحت تماثيل تبرز القوة والفتوة وإن علفتها مسحة من الكآبة وتمثل جنوداً مقاتلين أو أسرى حائقين مكبلين بالأغلال ، مستخدمين في ذلك مجموعة من الطبقات بعضها فوق بعض وهي طريقة يرجح أنها قد أخذت أصلاً عن الطريقة المتبعة في نحت الخشب . أما في بريطانيا الرومانية ، فإنه رغم أن الجانب الأعظم من الإنتاج الفني كان عبارة عن تقليد فج غير متقن للمشاهد الكلاسيكية ، إلا أنه كان بوسع الفنان ، لو أتاحت له الفرصة ، كما حدث بالنسبة لأبي هول لندن أو رأس الغول الملتحي التي عثر عليها في باث Bath ، أن يبتدع أشكالاً غاية في الحدة وقوة التركيز . وكان بوسع البنائين والنحاتين في هذه الولايات المختلفة ، وقد تشبعوا بالأسلوب السكتي في اختيار الخطوط والأشكال ، أن يأخذوا عن أساتذتهم التقليديين ، دون أن يفقدوا شخصياتهم .

ولإذا أراد امرؤ أن يلم بفكرة عن التغيرات التي طرأت على طبيعة فن التصوير ومذاهبه خلال الثلاثة القرون ونصف القرن من حياة الإمبراطورية فيحسن به أن يدرس رموس تمبايل الأباطرة الرومانية (ويزخر المتحف البريطاني بمجموعة طيبة منها) . ولنبدأ بأوغسطس ، وهنا نجد الرأس الدقيق ، بملاحظه الرقيقة المليحة ، ونجد البدن الذي أخذ وضعا جميلا محببا ، ربما كان الفنان قد محا في ذلك منحى مثاليا ، بيد أنه وضع بين أيدينا صورة المواطن المثالي في رأفته ووداعته وفي سموه ورفعته في الوقت ذاته ، ويمر جيلان فيظهر فسباسيان أصلع فظا ضخم الفككين لا يتسم بشيء كبير من الوقار ، وإن بدا مليئا بالالتمعية والعزم . ثم يأتي تراجان ، الجندي الموفور الصحة والفتوة الذي يشع قوة وثقة ، ثم هادريان وأنتونينوس وماركوس أوريليوس ، ويظهر جميعهم ملتحين واسعى العلم عليهم سياء الوقار . وما إن يتقدم بنا الزمن في القرن الثالث حتى تظهر وجوه جديدة غير رومانية ، فبرى فيليب العربي وماكسيمين التراقي ودقلديانوس أيضا الذي يظهر مكترز العنق قويا عظيم البطش . ولم يعد دقلديانوس أو قسطنطين أو غيرهم من أباطرة ذلك العصر ، يضورون بصور آدمية ، بل مثالية ، فقد كان التمثال الكامل أو التمثال النصفي يهدفان إلى إبراز القوة ، أما التركيز على العينين بنظراتهما المحدقة الخفيفة فكان يرمى إلى إضفاء جلال طاغ لا يتأتى للبشر .

أهل في هذه العجالة عن الفن غناء . أما موضوعنا الثاني فكان التمددين ، ولعل حركة التمددين كانت أعظم مفخرة لروما . لم يكن الكتيمون يافون الحياة في المدن الكبيرة ، غير أنهم لقوا من الرومان تشجيعاً على ترك مستقراتهم الجبلية والهبوط للعيش في المدن التي تؤسس حديثاً . وفي هذه المدن ، كانت نظمهم تسير على نسق النظم الرومانية ، فيتألف مجاس للشيوخ يسمى Ordo من المواطنين المتقدمين في السن من أصحاب الجاه والسلطان ، ويعين لهم حاكبان رئيسان أو أربعة حكام . وبوسمهم ، في مثل هذه الظروف ، أن يتعدوا سبل

تدبير شئون جماعتهم بأسلوب سلى لائق ، وعلى حين كان يمنح أعضاء مجلس الشيوخ المنتخبون ، فى بعض هذه المدن *municipia* ، حقوق المواطنة الرومانية بفضل فوزهم فى الانتخابات ، فإنه كان لآى حاكم أن يحصل تلقائياً على حقوق المواطنة ولو كان فى أدنى مراتب المجالس البلدية . كتب أحد اليونانيين المطلعين يقول : « لقد اعتاد أهل بلاد الغال فيما سلف أن يخرجوا للقتال بألوف من المقاتلين ، بيد أنهم الآن يحسرون سهولهم الفسيحة ووديانهم العميقة فى جبال الألب » . وكان الصالحون من الحكام يحثون على تأسيس مدن جديدة لتسكن مراكز قبلية ، وهناك عدد من هذه المراكز فى إنجلترا ، فى كارونت *Caerwent* وروكستر *Wroxeter* وآلبرا *Allobroges* (فى يوركشير) وليسستر *Leicester* ، فهذه المدن جميعها قد بدأت حياتها فى صورة مراكز قبلية . وعمد الأباطرة ، لتشجيع النشاط التجارى الآمن المسلم ، إلى إعادة بناء القرى القديمة أو إنشاء مقرات جديدة إن دعا الأمر . لقد أقام نيرون المتاجر والأسواق على طول الطرق العسكرية فى تراقيا ، أما مدينة بيزوس *Pizus* وهى لا تبعد عن تراقيا كثيراً ، فقد كانت من خلقه هو عامداً متعمداً ، وكما يستدل من أسماء مدن إنجلترا أو ألمانيا على الأصل الذى نشأت عنه ، فإن أسماء مدن مثل قيصروماجوس *Caesaromagus* أو أوغسطوبريجا *Augustobriga* لتكشف عن أسماء مؤسسيها ، ولا يستبعد أن بعض أماكن الأسواق المعروفة يرجع عهدها إلى زمن الرومانيين وربما إلى ما قبل ذلك أيضاً . ذلك لأنه كانت تراعى فى اختيار هذه الأماكن ، الدقة المتناهية ، وتقع كثير من المدن الكبيرة (بغض النظر عن المدن التى خلقتها الثورة الصناعية) فى كل من فرنسا وأسبانيا وفى بريطانيا أيضاً التى كانت أقل منهما تمسلاً للحضارة الرومانية ، كما تقع معظم الأبرشيات فى أماكن اختطها فى الأصل الحكام الرومانيون .

ورسخت قدم اللغة اللاتينية فى الغرب فى الولايات التى طال أمد احتلال

الرومان لها ، وحيثما كانت هناك قرابة بينها وبين اللغة الأصلية للبلاد . كانت اللغة البونية الوطنية في شمال إفريقيا متأصلة عميقة الجذور . فقد آل إلينا نقشر يرجع تاريخه إلى القرن الثالث كتب فيه أحد المجندين الإفريقيين اسمه بخط يده المهوش باللغة البونية ، وذلك على شقافة عثر عليها بالقرب من تشستر Chester ، والحقيقة أن الأمر قد ذهب إلى حد أن سيدة في مثل مكانة شقيقة الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس ، لم تكن تحسن بحال إخراج مقاطع لفتحها اللاتينية ، أما عن النقشور التي بقيت من اللغة اللاتينية حتى القرن السادس فقد انجردت واندثرت إبان غزوات العرب . غير أن اللغة اللاتينية كتب لها الحياة في فرنسا وبلجيكا وأسبانيا والبرتغال بأن صارت قاعدة وأساساً للغات الحديثة لهذه البلاد ، وربما كان الفضل في ذلك أن روما لم تحاول أن تفرض لغتها في القديم على شعوب هذه البلاد . وكانت اللغة الغالية ذاتة في القرون الأولى حتى أن إيريناوس Irenaeus ، وهو من آباء الكنيسة ، قصده إلى تعلمها لكي يقوم بالتبشير بصورة أقوى وأجسدى ، وكانت العقود التي تكتب باللغتين الغالية أو البونية في عصر متأخر يعود إلى القرن الثالث ، تعتبر صحيحة أمام القانون ، كما كانت اللغة الغالية سائدة في القرن الرابع في وديان فرنسا النائية . كما تظهر اللغة اللاتينية ، في صورة غير واضحة كل هذا الوضوح وإن لم يكن هناك شك في وجودها ، كقاعدة للغة الرومانية الحديثة ولغة لادينيا Ladinia (في جنوب شرق سويسرا) وللغات الكلتيية في ويلز وبريتاني ، ولو أمعنا النظر في لغات أهل ويلز وكوردول وبريتاني ، لوجدنا كيف أن هؤلاء الكلتيين قد نقلوا إلى لغاتهم تلك الألفاظ الدالة على المستحدثات التي تأتي بها الحضارات الراقية ، مثل الألفاظ الخاصة بالمعمار والبناء والمصطلحات البحرية والتجارية والكلمات المتعلقة بالكتابة والكتابة .

بقيت منطقة أخرى جديرة بالذكر في هذا العرض الخاطف الذي نمحن بصده ، وهي منطقة أوروبا الوسطى ومنطقة البلقان اللتان تطابقان على وجه

التقريب ولايات بانونيا Pannonia وموزيا Moesia وداكيا Dacia ، وحيا عرف برمته لدى الرومانيين باسم إليريكوم Illyricum : ولم يبدأ غزو هذه المنطقة إلا في عصر أوغسطس ، وكانت تضم شعبا مختلطا أساسه التراقيون (أو الإليريون) ، فرض عليه ألفزة الكتليون ثم الحكام الرومانيون . وكان التراقيون في بلادهم الجبلية الوعرة الكثيرة الربى والوهاد يمثلون شعبا معدما خشنا بربرياً جامدا الأحاسيس ، كان من بين ألوان التسلية لديه (لعبة الشنق) وهي لعبة يعلق فيها اللاعب بحبل متدل من شجرة يلتف حول عنقه ، ثم يترك ليلقى حتفه شنقا ما لم يسارع باستخدام سكين بيده مما يتطلب غاية الحذق والمهارة ، وقد أثبت هؤلاء الرجال الأشداء أنهم جنود ممتازون استخدموا في القوات المساعدة أولا ، ثم في الفرق فيما بعد . والحقيقة أنه ما إن حل القرن الثالث وأصبح الإليريون مواطنين رومانيين حتى باتوا يؤلفون القلب الصلب الجبار للجيش الروماني ، بل إنهم قدموا عددا من الأباطرة المقاتلين ، وناهيك عن أوريليان وكلوديوس الثاني ودقلديانوس . إذ أن هؤلاء الإليريين بدورهم ، قد استبد بنفوسهم — شأنهم شأن سائر سكان الولايات — الإعجاب بقوة الإمبراطورية ونظامها وعدالتها ، وباتوا يخفون بأن ينضموا إلى زمرة المواطنين الرومانيين وبأن يرثوا تقاليدهم ويناصروا هذه التقاليد . وإن قطع النقود التي أصدرها خلال أزمة القرن الثالث المروعة ، والتي كانت تحمل أسطورة الثقة والاعتزاز : Virtus Illurici قوة إليريكوم وتصور الذئبة ترضع توأميها لتدل على أنهم كانوا يعتزون بموقفهم الذي وقفوه بالإسراع لنجدة روما وصون روحها وتقاليدها .

وهكذا انتشرت الحضارة الرومانية ، حثيثاً حثيثاً دون قسر أو إجبار ، وبعد أن كانت الشعوب الوطنية المختلفة في الشرق والشمال والغرب قد بدأت حياتها بتلقي الهزيمة على يد الفرق الرومانية فإنها انتهت في مدى قرنين إلى أنها

أصبحت في كثير من الأحيان تعد الفرق الرومانية عينها بالجند، وتنتصر للنظم والتقاليد الرومانية، ولقد كان دقلديانوس وجاليريوس اللذان ولدا في إليريكوم، من أعنف خصوم المسيحية وأشدّهم بطشاً بها، لا لشيء إلا لأنهما كانا يؤمنان أشد الإيمان بقيمة «تقاليد الأولين». والواقع أن أهل الولايات قد هبوا لنجدة الإمبراطورية، وكانوا يعتبرون أنفسهم رومانين، وشاهد على ذلك أن جلداس Gildas البريطاني كان يتحدث في القرنين الخامس والسادس عن اللغة اللاتينية فيقول: «لغتنا اللاتينية»، كما أن من اصطلاحنا على تسميتهم «بالبريطانيين» كانوا ينظرون إلى أنفسهم عادة باعتبارهم «رومانين». إن ما استأثر بإعجاب أهل الولايات، بغض النظر عن الشعور بالإعجاب الطبيعي الذي يكاد يشعر به الناس جميعاً تجاه من يدافعون عن أنفسهم، إنما كان روح التسامح المتأصلة التي أبدتها روما تجاه لغات غير الرومان من الشعوب وإزاء عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم، وكلها أشياء تدفع بني الإنسان إلى الاستئناس في سبيل صونها. والحالة الوحيدة التي كانت روما تستثنى من قاعدة التسامح العامة، هي أن ترتبط ديانة بعينها ارتباطاً وثيقاً بتاريخ وعادات أمة من الأمم إلى الحد الذي تصبح معه عاملاً لإثارة المشاعر القومية الكامنة أو إذكائها مما يؤدي إلى قيام الثورات، أو إذا ظهر أن طقوسها لا تتفق مع الخلق أو الشعور الإنساني. وإلى الشرط الأول تعزى محاولات روما لاستئصال الديانة اليهودية في عام ٧٠ بإشعال النار في هيكل أورشليم وتدميره كلية، وقبعا الدموي أيضاً للثورة اليهودية التي نشبت بين عامي ١٣٢ و١٣٥. وإلى الشرط الثاني ترجع حملة الحكومة الشعواء في أوائل القرن الأول للقضاء على طقوس تقديم الضحايا البشرية التي كانت منتشرة في أفريقيا، حيث جرت العادة على تقديم الذبائح من الأطفال إلى الإله مولوخ Moloch وربما اجتمع الشرطان السالفان في تفسير ما حدث من اختفاء طائفة «الدرود» كلمة من بلاد الغال، إذ كان يبدو أن لنشاطهم صلة بالشعور القومي بالإضافة إلى أنهم كانوا دون شك يمارسون

عادة تقديم الضحايا من البشر . كتب بلينى الكبير يقول : « لعله من العسير أن .
نقدر كم يدين العالم الرومانى للرومان بالفضل ، لقضائهم على تلك الطقوس الرهيبة
التي كان يعد فيها قتل الإنسان أسمى مراتب التقوى والورع ، (التاريخ الطبيعى .
فصل ٣٠ الفقرة ١٣) .

يقول هيولاست : « إن وحدة الشعور هي ما حققته روما ، وكانت هذه .
أعظم وحدة حقيقية بالسعى لنيلها . أما تحقيق وحدة الشكل والمظهر ، فهذا
ما لم تسع روما قط لآليه كما لم تبلغه » . وكانت وحدة الشعور هذه تركز على
أساس من اللغة المشتركة ، والمساواة أمام القانون وعلى النظم المشتركة ، وقد
وجدت في الإمبراطور الرمز الأوفى لها ، وهو الذى تجسدت فيه عظمة روما
وسلمها . بيد أن وحدة الشعور هذه استقرت في النهاية على أساس من رضا
الغالبية العظمى من المحكومين بحكوماتهم ، ولا ننكر أنه كانت هناك دون
شك بعض العناصر المعادية الساخطة ، ممن كانوا يحلون بسقوط روما (وإن
كانوا لا يملكون شيئاً يحلونه محلها لو حدث ذلك بالفعل) . غير أن هؤلاء
الساخطين سواء أكانوا يونانيين أم مصريين أم يهوداً لم يكونوا يمثلون سوى
أقلية ضئيلة . فالسلام الرومانى Pax Romana كان يضمن للفلاحين الخلاص .
من الحروب والفلاقل ، كما يضمن لهم القضاء العادل إذا ما اشتدت بهم المحن ،
كما كان يوفر لهم الأسواق الطيبة ، أما الطبقات العليا والطبقات الثرية فكانت
عصب الحكم الرومانى ، لأن أفرادها كانوا يأخذون بنصيبهم في ظله من
رغد العيش وارتفاع مستوى المعيشة ، علاوة على ما يؤملون من نيل حقوق
المواطنة الرومانية وبلوغ كراوى الحكم . وربما أساء بعض هؤلاء الأثرياء
من أصحاب الأراضى استخدام سلطتهم في بعض البلاد ، إذ يلبس أبوليوس
Apuleius في إحدى رواياته بعنوان « انجمار الذهبى » إلى جور أصحاب السلطان .
potentiores وعسفهم ، ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن مسموحاً لأى منهم أن .

يحاكم في الإقليم الذى يقطنه ، خشية أن يستغل نفوذه لدى أعضاء هيئة المحكمة . ومن المؤكد أن جانباً من الثروات الطائلة التى كانت فى حوزة بعض أصحاب الملايين الذين عاشوا فى القرن الثانى مثل هيروديس أنيكوس Herodes Attirus فى اليونان و ابرامواس Opramoas فى ليكيا ، قد توفر لديهم نتيجة لاستغلالهم للعمال الذين يشتغلون فى ضياعهم الواسعة ، بيد أنه يمكن القول إن الحالة لم تكن سيئة خلال القرنين الأول والثانى . فعدد كنان العمال وأصحاب الملكيات الصغيرة راضين عن أحوالهم ، وكان بوسعهم أن يتطلعوا إلى الاستمتاع بين آن وآخر بألوان من التسلية والمهرجانات والمآدب التى كان يجرى فيها توزيع الطعام والشراب فى المناسبات الكبرى والتى كانت تقيمها الطبقات الثرية . وكانت روح الخير والرغبة فى العمل من أجل المجتمع لدى الأثرياء من المواطنين واضحة تماماً فى القرن الثانى ، فكانوا يقيمون الأسواق والمكتبات والحمامات العامة ويهبونها لمدنهم ، وكانوا يوصون بالصدقات التى توقف على تعليم الفقراء وتنشئتهم بالمجان ، ويتبرعون بالقيام بواجبات أو الاضطلاع بأعمال باهظة التكاليف من أجل مدنهم ، كما أنهم كانوا يوفرون بصفة عامة الأموال التى تستغل للصالح العام . ربما كانت هذه أشبه بسياسة التأمين على الحياة ، وعلى أية حال ، فإن ذلك لا يغمط الحقيقة التى تشهد بالانقوش العديدة التى وجدت فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية والمائلة فى أن هؤلاء المواطنين الثراء قد أخذوا على عاتقهم فى عزم وجراءة وامتنال ورغبة ، القيام بكثير من الأعباء من أجل مدنهم ، وأنهم كانوا يتبارون مع بعضهم البعض فى مضمار الخدمة العامة .

الفصل الرابع العمل والضرائب

كانت الزراعة ، بعلمها المتأخرين الأشداء ، هي القاعدة العريضة والأساس
الراسخ الذى تقوم عليه الحياة فى العصور القديمة . فكانت مباشرة الزرع وفلاحة
الأرض هما الوظيفتان الطبيعيتان العاديتان ، وهما وظيفتان سليمتان تخلوان
من كل شائبة ، إذ كانتا توفران لتلك الإمبراطورية الشاسعة مواردها من
الطعام ، كما كان عمال الزراعة المخلصون فى مشايرتهم وسذاجتهم موضوعا لا ينفص
معينه لتأمل علماء الأخلاق ، ودأبت الحكومة الرومانية على تشجيع الاستقرار
والزراعة ، لأن ذلك لم يكن من شأنه أن يوفر لحسب محصول القمح الذى
لا غناء عنه ، بل كان يمدّها بالمجندين اللازمين للجيش ، وعلى ذلك فالأمر لم
يكن يختلف فى الماضى عما هو عليه الآن ، فى أن الأعداد الضخمة من السكان
الزراعيين ، إن هى إلا مستودع دائم للقوى البشرية للدولة . كما كانت
ملكية الأراضى ، فضلا عن ذلك ، تعد — فى زمن لم توجد فيه أسهم أو
سندات أو شركات صناعية كبيرة — أعظم مصادر الثروة ، والسبيل الوحيد
السليم المضمون كل الضمان للاستثمار .

وكان من الطبيعى أن تختلف طرق ووسائل ملكية الأرض واستغلالها ،
باختلاف المناخ والتربة . كانت الحكومات تؤمن فى كثير من البلاد بعمل
صاحب الملكية الصغيرة واقتصاده وحسن تديره ، فشجعت على امتلاك مثل
هذه القطع الصغيرة من الأرض . وقد ظهرت فى القرن الثانى ضياع شاسعة
تتبع الإمبراطور فى كل من أفريقيا وآسيا الصغرى ، حيث كان هؤلاء

الزراع الصغار بمثابة مستأجرين من الإمبراطور ، يشرف عليهم وكيل إمبراطورى (procurator) ويخضعون لرقابة دقيقة. وكان الملاك الصغار (coloni)، فى بعض الضياع، يستخرون للقيام ببعض الأعمال دون أجر كالعامل لمدة يومين فى كل موسم من مواسم الحرث والبذر والحصاد ، وكان من الطبيعى أن يشتط فى الطلب فى كثير من الأحيان، ولدينا عدد كبير من الوثائق التى تصور شكوى وآلام هؤلاء الأفراد المساكين . كان نظام تخزين المياه والرى المنتظم فى أفريقيا يعود بأوفر الأرباح ، أما فى شمال بلاد الغال وفى بانونيا Pannonia وبريطانيا فإن ثقل التربة كان يتطلب التصريف المستمر للمياه ، كما كان يستلزم استخدام محراث جبار يجرى على عجل لإمكان تفتيتها ، ويبدو أن هذا المحراث الضخم (الذى سمي plauumratum أو carruca والذى دخل اللغة الألمانية تحت اسم Pflug واللغة الفرنسية تحت اسم Charrue) كان اختراعاً بلجيكياً، غير أن التحسينات التى أدخلت عليه تمت فى ظل الحكم الرومانى ، وقد أدى إلى التوسع فى المساحة المزروعة ، وإلى تقسيم الأرض إلى وحدات زراعية كبيرة . كما نجد فى بعض أقطار الغرب أيضاً ، فى القرن الثالث، ما كان يعرف باسم « نظام الفيلا » villa حيث كان المالك الثرى لا يكتفى بالإشراف على زراعة الأرض بل كان يجمع حوله طائفة من الصناعات الريفية مثل تخمير القماش والصباغة والنسيج .

يبدو أنه على الرغم من التطورات والتقلبات التى طرأت على نظم الحياة ، فقد ظلت الزراعة هى الحرفة الرئيسية ، وظلت الدساكر والقرى بمساكنها وحواشيتها ومعابدها تضم نواة الحياة العائلية . فكان الفلاح وأفراد أسرته يبكرون أيام الأسواق (nundinae) فى عربتهم الكبيرة إلى مكان السوق حيث تعقد الاجتماعات وتقدم المناقشات حول أسعار الماشية والخضروات ، ويتردد على الأسن كيف « أن مكان السوق قد امتد وعظم كما أنه ذيل عجل نام » ، وكيف « أن هذه الأيام لم تعد فى حلاوة الأيام الخوالى » ، وكيف « أن الزمن اليوم

غيره بالأمس ، أو د أن الدنيا أصبحت غير الدنيا ، ، ثم يحل المساء فتعود الأسرة إلى البيت متعبة منهكة وإن تألفت وجوه أفرادها بالبشر . بيد أن هذه المناسبات لم تكن تقع إلا لماما ، وإن فرجيل ليذكرنا ببصيرته الصادقة النافذة بمشهد الزوج تنتظر أوبة زوجها في المساء بصبر نافذ ، وعندما يعود يخف الأبناء للقائه هاشين هاشين. إن لدى الزوج المسكينة من الأعمال والمشاكل الشيء الكثير ، فقد تهاجم القطة الدجاج أو قد يصيب الأطفال مكروه ، ثم هناك ما هو أدهى ، فالأخطار محدقة دوما ، إذ قد يهاجم ثور هائج الزوج أو الابن ثم لا يبعد أن يلقاهما قاطع طريق عند عبورهما منطقة موحشة ، ثم كان هناك الخوف أثناء الليل من الأشباح الزائرة ومن الأرواح الممسوخة ذئابا ، ومن مصاصي الدماء الذين لا يستقرون في قبورهم ، بل يهيمون في الليل لاختطاف الموتى . بيد أن تاريخ الحياة في القرية بوجه عام كان تاريخا طويلا من العمل الشاق المضني الذي اجتمع على القيام بعبئته الرجال والنساء والأطفال على حد سواء وتحملوه في الغالب الأعم عن رضى وطيب خاطر ، تقطعه من آن لآخر الأعياد والرياضة والمهرجانات لتغير إلى حد من دورة الحياة اليومية الشاقة . وأعظم من كل هذا وذلك تلك الفرحة والراحة النفسية اللتان تصحبان موسم الحصاد ، عند ما تعود العربية محملة بالمحاصيل ، ويهرول الجميع ليقودوها إلى فناء الدار ، دافعين عجلاتها إلى الأمام أو معاوين الثورين المجهدين بتخفيف الثقل عن محاور العجلات .

وكان من الممكن الاطمئنان إلى ولاء أهل الريف لنظام الحكم إذا ما كفلت لهم الحكومة حرية العمل في حقوقهم ، ويسرت لهم سبل القضاء العادل إن دعت الضرورة ، ولم تثقل كواهلهم بالضرائب ، وأباحت لهم القيام بالأعياد الملائمة . ولقد عم سلام الإمبراطورية ، في ظل الضرائب المخففة والقضاء العادل المؤكد حيال أى جور أو اضطهاد ، البلاد زهاء قرنين كاملين . ولكنه ما إن تتجاوز

عام ٢٠٠ إلى الفترة التي بدأت فيها الغزوات واضطرب جبل الأمن ، حتى ترتفع صيحات الاحتجاج ضد غلظة الجنود والموظفين على حد سواء ، وجشعهم ، وضد حوادث قطع الطريق والضرائب المتزايدة بل وضد رجال الأمن أنفسهم .

كانت المدن تعتمد على الريف وعلى كد أهل الريف ومثابرتهم ، للحصول على غذائها وبخاصة القمح ، ومن الريف أيضاً كانت المدن تستنزف الطعام والرجال ، ذلك لأن نقل الأغذية لم يكن يجري داخل نطاق محلي إقليمي . كانت روما دون شك تجلب مواردها من القمح من وراء البحار ، من مصر وأفريقيا ، أما سائر المدن الأخرى سواء الكبيرة أو الصغيرة فكانت تعتمد على ما جاورها من المناطق الريفية . وبالإضافة إلى خطر المجاعات والخوف من ضعف المحاصيل فقد كان يحجم على صدور أهل الريف شح رهيب آخر ، طالما انقلب فصار واقعاً ملموساً . وقد وفق أحد الأطباء المعاصرين وهو غالين Galen في تصوير ذلك الخطر وما يعنيه بالنسبة لأهل الريف ، فكتب متهما بارابوية العلنية يقول : « إن المجاعات المستمرة التي اجتاحت كثيراً من الولايات ، متلاحقة في السنوات الماضية الواحدة بعد الأخرى ، لتقطع بوضوح وسجلاء — إلا بالنسبة لأصحاب الأدمغة المتحجرة — بأن الغذاء غير الصحي من شأنه أن يولد الأمراض . وكان سكان المدن ينقلون — كما كانت عاداتهم دائماً في جمع القمح وتخزينه عقب الحصاد مباشرة بكميات تفي بحاجتهم على مدار عامهم التالي — ينقلون كل ما يجدونه من القمح بالإضافة إلى الشعير والفلو والعدس ، ثم يتركون ما يتبقى من ذلك لأهل الريف ، وكان ما يتبقى هو حبوب مختلفة الأشكال والألوان (بل إن جانباً كبيراً من هذه أيضاً ينقل إلى المدينة) . وكان أهل الريف يستنفدون خلال الشتاء ما لديهم من هذه الحبوب ، ومن ثم يضطرون إلى الالتجاء إلى الأغذية غير الصحية يقتاتون عليها ، فكانوا يأكلون أفرع وأغصان الأشجار والشجيرات وجذور وبصيلات نباتات عسرة الهضم ،

بل كانوا يملأون بطونهم بالأعشاب البرية . . أو يطمون العشب الرطب .
ولذلك لترى بعضاً منهم في نهاية الربيع ، وجلهم تقريباً في بداية الصيف ،
وقد أصيبوا بمختلف القرح التي تظهر على الجلد ، وكانت هذه القرح تأخذ
صوراً عدة

وكان هؤلاء البؤساء يموتون متأثرين بقروحهم في معظم الأحوال . وإن
هذا ليعد مثلاً واحداً من بين أمثلة لا تقف تحت حصر . وإذا ما تذكر
القارى كثرة ما تردد عن وقوع مجاعات محلية ، فلن يدهش للحقيقة الماثلة في أن
تعداد سكان الريف لم يزد قط ، ولسوف يدرك السبب فيما كان يشعر به أهل
الريف — عن حق — من نفور وسخط متزايد على سكان المدن الذين كانوا
يسلبون الكثير ، ولا يتركون الريف إلا قاعاً صفصفاً .

ورغم أن اهتمام الجانب الأعظم من السكان كان منصبا على الزراعة ، إلا
أنه قد قامت هناك بعض الصناعات وبخاصة في المدن الكبيرة . وكانت معظم
مباني المدينة في حاجة إلى الآجر ، ومن ثم كانت صناعة الآجر من أعظم
المشروعات ربحاً ، كما كان الزراع في حاجة إلى الفؤوس والأدوات المعدنية
وطرادات المحاريث كما كانت تلزمهم أيضاً القزانات والدلاء والأواني الفخارية،
بينما كانت الطبقات الثرية تحتاج إلى الأواني الفخارية والزجاج والمصنوعات
الفضية والأثاث مما تنتجه الشركات الإيطالية والغالية ، ويسدو أن ولاية
كيبانيا Campania قد تخصصت في صناعة التحف والتفائس ، كما كانت هناك
حاجة إلى الفنين من العمال لأعمال الفسيفساء والملاط ولوحات الجدران
والظاهرة . وقائمة الحرف والأعمال الفنية جافلة بشتى الحرف والأعمال
الأخرى التي لا يمكن تعدادها في هذا المجال ، غير أنه مهما تنوعت الحاجات
والمطالب واختلفت الحرف والمهن التي قامت للوفاء بها ، فإن ثمة اعتبارين
هامين يجب أن نضعهما نصب أعيننا ، أولهما أن الإمبراطورية قد قدمت

حكومات عملت على توطيد السلم ونشر العدل ، وهما شرطان لازمان لقيام أى نشاط صناعى أو تجارى رائج ، بيد أنها تركت المواطن وشأنه يدبر أمره بنفسه فى ظل أمنها وعدالتها ، ولم تكن تقوم بالتوجيه الذى تقوم به وزارات التجارة الحديثة ، كما لم تكن تتبع فيما يظهر سياسة تجارية معينة . والاعتبار الآخر هو أن الأباطرة لم يكونوا يرحبون عادة بالوسائل التى تهدف إلى توفير الأيدى العاملة ، فإنهم كانوا يحرصون على توفير العمل لسكان المدن بأى حال من الأحوال ، فقد تقدم للإمبراطور فسباسيان مهندس عرض عليه خدماته فى نقل الأعمدة بالطرق الآلية ، بتكاليف قليلة ، فأجزل فسباسيان له العطاء مكافأة له على اختراعه هذا غير أنه لم يأخذ به ، وأوضح موقفه بقوله : « يجب أن تسمح لى بأن أوفر القوت لرعاياى الفقراء » . ولذا فلم توجد حتى وقت متأخر من القرن الثالث مصانع أو مشروعات تتبع الحكومة ، كما لم تكن ثمة سياسة حكومية رسمية خاصة بالتجارة . وكان الإنتاج عادة فى أيدى الأفراد من أصحاب الأعمال بعبيدهم وعمالهم الأجراء ، ونادراً ما كان هناك ما يقارب الأحوال السائدة فى المصانع الحديثة . وفى القرن الثالث ، شرعت الحكومة فى الإشراف على قطاع معين من الإنتاج الواسع النطاق (وذلك فى الولايات الشرقية) الذى يختص بحاجات الجيش ، غير أن الاسم الذى أطلق على مثل هذه المصانع وهو *gynaecia* يدل على أن الأيدى العاملة فيه كانت غالبيتها من النساء وأن العمل كان ينصب أساساً على النسج وصناعة الحبال .

من المتعذر أن نطمئن إلى تعميم أحكامنا عن أحوال العمال فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، أما عن الرق فإنه يتطلب قسماً خاصاً ينفرد به . إن صور العمال الذين يعملون فى أفران صهر الحديد بأوساخهم وعرقهم ، والقذارة التى كان عليها عمال المناجم والفقير الذى تبدو عليه قرى الصيادين بأكوأخها الحقيرة وصناعات العطور الذين كانوا يفتشون قبل مغادرتهم أماكن عملهم خشية أن يكونوا قد دسوا شيئاً من العطور الثمينة ، والنفطاسين الذين كانوا

يصطادون الإسفننج بحبالهم المشدودة إلى أجسامهم والمناجل في أيديهم
والجرمين الذين كانوا يكدحون في غيظ مكبوت في المحاجر والمناجم في
حراسة مسلحة — إن صور هؤلاء جميعا تظهر واضحة للعيان في المصادر التي
ويعد مستوى معيشة هؤلاء الأفراد وأحوالهم الاجتماعية منخفضة سيئا
ما قياس بمستوى معيشة أقرانهم في العصر الحديث ، بيد أن هناك دون
شواهد تدل على أن مستوى المعيشة في المناجم نفسها قد تحسن ، فقد
هناك نسبة معينة من العمال الأحرار (في بانونيا مثلا) ، ولو أن الفيلد
سينيكس Kannon أشار في القرن الأول إلى الأوساخ والأثرية التي كانت تعمل
المناجم ، ولو أنه حدث في بعض المناطق النائية أن كان عمال المناجم يه
فيما يبدو في الكهوف التي كانوا يعملون بها ، مع ما كان يترتب على ذلك
حوادث الوفاة المبكرة ، إلا أننا نلاحظ أن مستعمرة المناجم الرومان
دولوكوثي Dolaucothi في ويلز الغربية كانت مزودة بمحطات فوق سطح الأرض
على حين أن لوانج مستعمرة المناجم في فيماسكا Vipasca (أليوستريل
في جنوب البرتغال) تكشف عن وجود نظام خاص بالحوانيت وال-
المحتكرة المرخص لها (كما في حالة الحلاقين والحوذبة) التي تسير وفق ته
جبرية ، وعن مدارس ومعلمين لتربية أبناء العمال ، وعن الحمامات المقاما
سطح الأرض التي كانت تفتح من الساعة الثانية بعد الظهر إلى الساعة الثاء
والحقيقة أن العمال الأجراء في بعض الحرف كانوا يتمتعون بمستوى لا
لا بأس به ، يأخذون بقسط وافر من الراحة .

وقد يسمح للجماعات الكبيرة من العمال في المدن ، أن يتحدوا من
أهداف مشتركة بشرط أن يكون ذلك دائما تحت إشراف الحكومة .
فإنه عندما أضربت نقابة الخبازين في أفسوس عن العمل وأخذ بعض أع
في إلقاء الخطب المثيرة في سوق المدينة ، أصدر البروقنصل مرسوما يأمر

بالامتناع عن عقد الاجتماعات ، وبالامتناع والانصياع للوائح التي وضعت من أجل الصالح العام ، وبأن يوفرُوا للمدينة دون انقطاع العمال اللّازمين لصناعة الخبز . وإذا ما شوهد شخص بعد صدور هذا المرسوم في اجتماع يخل بالآمن أو كان يحرض على إضراب أو تظاهر ، فسيلقى القبض عليه ويوقع عليه العقاب الرادع ، . والواقع أن الحكومة الرومانية كانت تبدي دوماً ومنذ عهدوها الأولى الخوف والرهبة من الجمعيات والنقابات على اختلافها ، لأنها كانت تعلم كيف أنه من الممكن أن تستغل مثل هذه الجماعات في إحداث الفلاقل والاضطرابات . وعلى ذلك فقد كان على كافة هذه الجمعيات *collegia* أن تعرض قانون رابطنها وبمجموعة اللوائح التي تسير عليها على السلطة المختصة للتصديق عليها ، ولم يكن الطريق إلى التصديق مفروضاً بالورود . وكانت أعمال الاضطراب والشغب تقع في شدة وبطش ، وقد فقدت مدينة رومس الحرة ، حريتها هذه فترة من الزمن لأن مواطنين رومانيين قد أصيبوا في اضطراب حدث بها . ولم ينته الشغب المشهور الذي وقع في أفسوس ، والذي وصفه سفر الأعمال أبرع وصف ، إلا عندما حذر كاتب المدينة لإخوانه المواطنين من مغبة هذا الشغب وما قد يؤدي إليه من تدخل الرومان وما يترتب على ذلك من نتائج لا يعرف مداها .

ولا سبيل في أية دراسة لأحوال العمل والعمال في الإمبراطورية الرومانية ، مهما قصرت ، إلى إغفال الدور الذي لعبه الرقيق في هذا الميدان . فقد تضم دار نبيل من النبلاء الأثرياء المئات من هؤلاء العبيد الذين يقومون بمختلف الوظائف ، فمنهم الصانعون المهرة والفنانون ومنهم الخدم الذين يزينون الردهات والنادلون على مائدة الثرى . لقد كان هذا بمثابة شر مزدوج فهو امتهان لكرامة العبد وسحق لشخصيته ، وهو حظ يقيم السيد الخلقية ، الذي كان في استطاعته أن يتنازع بالمال سلطة مطلقة ، هي السلطان المطلق على الحياة والموت بالنسبة لآدمي مثله ، سواء أكان هذا الكائن البشري جرمانياً مفتول العضلات أم أسيراً بريطانياً يستخدم في أشق الأعمال وأحقرها . أو كان غلاماً آسيوياً

أو إيراينياً رقيةاً اتخذ زخرفاً وزينة . ولكنه على الرغم من أن العبد كان على أسوأ الفروض ، أداة ناطقة ، *instrumentum vocale* كما عبر عنها القانون الروماني ، فإنه من الخطأ الفاضح أن نعتقد أن جميع العبيد كانوا يلقون من سادتهم معاملة تلتزم صرامة القانون . كان هناك - دون شك - الحاكم بأمرهم ، فقد أصر سيد على أن يقف الخدم حول المائدة صامتين ، وكان يعاقب من يسعل منهم أو يعطس بالجلد . واعتادت إحدى السيدات اليونانيات أن تعض خدنها بالفعل في نوبات غضبها ، كما يحدث أن تأمر سيدة رومانية بجلد خادمتها إذا ما ضايقها اضطرابها في تصفيف شعرها ، كما قد تدفع قسوة هؤلاء السادة إلى ضروب من الانتقام الوحشي ، فقد حدث أن هجم عبيد أحد السادة الأفاظ على سيدهم في الحمام ، فخننوه وسقط صريعاً ، ولكي يتأكدوا من أنه لا يتظاهر بالموت ، ألغوا به فوق سطح الغلاية *caldarium* المثلثة حتى يروا ما إذا كانت جثته ستلوى . وألقى أحد العبيد المعذنين بنفسه من فوق سطح المنزل لكي يتجنب السباب والشتائم التي كانت تنال عليه من لسان سليلط ، وطعن أحد العبيد الفارين نفسه حتى لا يعود إلى الأسر مرة أخرى ، ومثل هذه الحوادث كثير . ولكنه كما كان هناك سادة قساة أفاظ فقد كان هناك السادة الممعنون في الرقة والعطف . فقد كان الكثيرون منهم وبخاصة في الريف ، يعاملون عبيدهم بروح إنسانية عالية مثل صديق سينيك ، لوكيليوس *Lucilius* الذي اعتاد أن يسمح لبعض عبيده بالجلوس إلى مائدته . كما يظهر في التشريعات التي صدرت خلال القرنين : الأول والثاني شعور إنساني يزداد عمقا .

كان يسمح في الماضي للسيد المقصر أن يطرح عبده المريض في معبد للإله أسكليبيوس *Aesclepius* يقع على جزيرة في نهر التير ، على أمل أن يعنى الإله نفسه بشفاؤه . فعلى كلوديوس بأنه لو قدر لهذا المعبد أن يشفى فإنه لا يعود إلى سيده بل يعتق لساعته . وقطع هادريان شوطاً آخر ، فسن

قانوناً يقضى بتوقيع عقوبة الإعدام على أى سيد يقتل عبده لهما وبجازفة ، وحرم بيع الصبيان والفتيات من العبيد للدعارة . ولعل القانون الذى سنه هادريان كان بمثابة تكفير منه عن زلة ارتكبها فى نوبة غضب حين ألقي ريشة فى وجه خادمه فذهبت ببصره ، وعندما تكرم هادريان بسؤال خادمه عما عساه أن يفعله لكي يعوضه عن خسارته أجاب الخادم فى بساطة بأنه يريد عينا ثانية ١ وأن كثرة الأحكام العامة السريعة العاطفية التى قيلت عن الرق فى العصر الرومانى ، لتضطرننا إلى أن نذكر أنفسنا دائماً بأن الحالات الشاذة هى التى يتناقلها الناس ويذيع خبرها عادة ، وبأنه كان للعبد بوجه عام أن يتوقع من سيده معاملة كريمة إنسانية ، وأن التشريع فى عهد الإمبراطورية كان يتجه دائماً فى موقفه من العبيد اتجاهاً إنسانياً مطرد القوة .

وكانت أعظم شرور الرق تظهر فى مكانين : المكان الأول هو دار العمل *ergastulum* وكان يتألف من مجموعة مباني الشكنات الواطئة التى تنخفض عن مستوى الأرض ، حيث كان العبيد الموثقون بالسلاسل يأوون كالبهايم ليلاً ، وحيث سادت - دون شك - أحوال بشعة . ولم يكن يتورع أصحاب هذه الدور خلال الحروب الأهلية التى اضطرب فيها حبل الأمن وعمت فيها الفوضى ، وخلال الفترة التى تلتها أيضاً عن اختطاف المسافرين العزل ليعوضوا عن النقص فى صفوف عبيدهم ، غير أن سلام أوغسطس *Pax Augusti* وضع حداً كبيراً لذلك ، كما كان يجرى تفتيش دور العمل هذه *ergastula* لمنع حالات الحبس التى تخالف القانون . ولكن هذا النظام الذى كان فيما يبدو رائجاً أعظم الرواج فى جنوب إيطاليا وصقلية ما لبث أن بطل فى النهاية . أما المكان الآخر فكان القصور الهائلة التى كان يمتلكها ثروة روما ، حيث كان الرقيق يعدون بالمئات وحيث كانت تقع شتى ضروب الاضطهاد والطغيان الهين من جانب العبيد المهيمنين ، وحيث كان يتعذر على العبد الصغير أن يخاطب سيده وجهاً لوجه ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان فى الإمكان إعتاق العبيد أنفسهم

بوساطة « وثيقة الإعناق » *Manumissio* المعروفة ، ورغم أن العبد المعتق أو الأمة المعتقة لا يعتبران مواطنين رومانيين بالمعنى الكامل ، إلا أن ذريتهما كانت تعد في الغالب كذلك . وإن الحقيقة الماثلة في « أن أوغسطس » وغيره من الأباطرة حرصوا على أن يوقفوا تيار الإعناق المنفدع بموجب القانون لا تدل لحسب على حرصهم على المحافظة على الطابع العام لجماعة المواطنين الرومانيين ، بل تدل أيضاً على أن كثيرين من السادة كانوا يعمدون — لأسباب مختلفة — إلى إعناق أعداد كبيرة من عبيدهم .

وقد يكون في حوزة الدور الصغيرة أو المزارعين الصغار عبدان أو ثلاثة عبيد ، وكان هؤلاء يدركون الحكمة من معاملة عبيدهم معاملة طيبة ، والواقع أن العبد كان يعد منذ القدم أحد أفراد الأسرة *familia* ، يشاركون في طبقوسهم الدينية وأعيادهم ومآدبهم . أما بين الأسر ما كمنه الحضر فقد كان عدد العبيد أضخم من ذلك ، وقد خطت على عمود بقصر من قصور أسرة بومبي أسماء ما يقرب من عشر جاريات وهن فيتاليس *Vitalis* وفلورنتينا *Florentina* وإيانواريا *Ianuria* وماريا ولالاج *Lalage* وغيرهن ، وبجملت قرين كل اسم كية الصوف التي خصصت لكل منهن والعمل الذي كلفت به .

وكان على الحكومة أن تحصل من هذا العالم الدائب النشاط ، المتنوع السبل ، الكاد ، الكادح ، على الأموال اللازمة للقيام بتكاليف الدفاع والحكم . كانت الضرائب المباشرة المفروضة على المواطنين الرومانيين قد ألغيت في عامي ١٦٨ و ١٦٧ بعد انتصار بيدنا *Pydna* ، وكان أوغسطس على جانب من الحكمة ونفاذ البصيرة يجنبه خطأ تعريض مكائته الشعبية للخطر بفرض ضرائب مباشرة جديدة . بيد أنه كان من المحتمل إيجاد سبيل لحل المواطنين على الإسهام بالمال — فما كان ينبغي أن يثقل أهل الولايات بالضرائب أو يتعرضوا للاستغلال — وعلى ذلك فقد ابتدعت عدة ضرائب غير مباشرة ، فقررت

ضريبة البيع أو ضريبة الشراء وتقدر بواحد في المائة ، إلا أنها خفضت فيما بعد إلى نصف في المائة ، كما فرضت على كافة التركات ضريبة تركات قدرها خمسة في المائة . وربما عد المواطن في العصر الحديث هذه الضرائب هينة ، غير أن أهل المدن اعتبروا ضريبة البيع باهظة تنوء بمبئها كواهلهم ، ورد تيبريوس Tiborius على احتجاجهم بأن استلقت أنظارهم إلى أن الدفاع عن الإمبراطورية يقع على عاتقهم . وهذا صحيح ، لأن أوغسطس قد وجه الدخول العائدة من هذه الضريبة إلى « الخزانة العسكرية » التي أمر بتأسيسها عام ٦ ميلادية كي يواجه حاجات ومصاريف الجنود المتقاعدين . ومن بين الضرائب الأخرى التي وقعت على الجميع ، رسوم الـ *ad valorem* ، وتحصل في الموانئ والمرافئ . ورسم آخر قدره اثنان ونصف في المائة على كافة البضائع التي تعبر الحدود بين ولاية وأخرى أو تجلب من خارج حدود الإمبراطورية .

كانت هذه هي الأعباء الملقاة على عاتق المواطن الروماني ، أما عن سكان الولايات من غير الرومانيين (باستثناء العميد بالطبع) فقد كانوا ملزمين منذ أقدم العصور بالإسهام في تكاليف الحكم . فقد فرضت عليهم ضريبة معينة ، كانت تجبي في بعض الأحيان على أنها ضريبة أرض (*tributum soli*) وتحصل في أحيان أخرى باعتبارها ضريبة رأس (*tributum capitis*) ، وكانت مسئولية تحصيل هذه الضريبة تقع على عاتق الموظفين المحليين أو العشارين *publicani* ، مما يكشف لنا دون عناء عن السرفية التي كان عليه هؤلاء الموظفين من ثراء ، ويشير إلى علة ما كانت تكنه لهم الجماهير من كراهية ، كما يفسر لنا كيف أن اسمهم قد اقترن في « العهد الجديد » من الإنجيل باسم الخطاة ، فقيل « والعشارون والخطاة » . وكانت بعض الولايات تدفع ضرائبها نقداً ، وبعضها الآخر عينا ، فالفريزيون *Frisians* على سبيل المثال كانوا يؤدون الجزية بجلود الثيران (وبجال الاستفادة من الجلد لا يقتصر على صناعة الأحذية

والدروع فحسب بل يشمل خيام الجيش أيضاً ، وبعض المجتمعات الآسيوية في الجهة الشمالية الشرقية كانت تؤدي الضريبة بالقار وشمع النحل . وما من نظام في العالم يمكنه أن يحول — بصورة حاسمة فعالة — دون التعسف في تطبيقه أو دون الأناية المقصودة ، فقد يطلب محصل جشع جلوداً من أحجام تتجاوز حدود القانون أو يستخدم مقاييس مزيفة ، أو يراوده الأمل في رشوة القبائل له . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الموظفون المليون التابعون للإمبراطور (*procuratores*) والمقيمون في الولايات على أهبة واستعداد في بداية الأمر لأن يملثوا جيوبهم ، ولما كان هؤلاء مسئولين أمام الإمبراطور مباشرة ، فلم يكن في استطاعة الحاكم أن يمارس سلطته الكاملة عليهم ويخضعهم لإشرافه ، وكان عرضة إذا ما حاول ذلك لأن يتورط في شجار مزه عن كل كرامة ووقار ، لقد أشار الإمبراطور جالبا *Galba* إليهم باختصار قائلاً : « هؤلاء الآفات » . وعلى الرغم من أننا نعلم أن هذا الجشع وتلك القسوة قد دفعت القبائل في بعض الأحيان إلى إعلان الثورة ، كما حدث في ثورة البريطانيين بزعامة بواديكي *Boadicea* عام ٦١ أو في ثورة النازامونيين *Nasamones* في إفريقيا عام ٨٥ — ورغم أن هناك وثائق تسجل محاكمات الموظفين في الولايات بتهمة الابتزاز أو سوء المعاملة ، ففي وسعنا أن نكرر هنا ما سبق أن قلناه من أن الأحوال الشاذة هي التي تستلقت الأنظار ، وإنا نعلم أن الفاسدين من الأباطرة أنفسهم لم تكن تأخذهم رحمة بالموظفين الذين يهتمون بالابتزاز والجشع . وإن الحديث عن « الاستغلال » بمفهومه الحديث ، الذي تعرض له أهل الولايات ، لفيه مجافاة للواقع وبعد عن الحقيقة ، كانت روما تعتمد حقاً على الولايات في الحصول على المال ، بيد أن روما كانت أيضاً تدرك طبيعة البشر وبدى طاقة الإنسان واحتماله ، ولذا فلم تكن الأعباء التي فرضتها تتجاوز حدود الطاقة .

وعلاوة على ذلك فإن هذه الضرائب الهينة ، لم يكن من المحتم أيضاً أن.

يؤديها جميع سكان المنطقة . فكانت هناك في كل ولاية من الولايات بعض المدن التي منحت الحكم الذاتي المحلي (*libertas*) كما نالت حق الإعفاء من الضرائب (*imunitas*) ، وقد يسبغ الأباطرة - من وقت لآخر - مثل هذه الامتيازات تقديراً للخدمات الجليلة ، ولم تكن مستعمرات المواطنين الرومانيين المنبثة في الولايات تخضع لسلطة الحاكم الشرعية ، وفصلاً عن ذلك فقد يمنح الإمبراطور امتياز حقوق المواطنة الرومانية بين حين وآخر ، مكافأة على الخدمات المشهودة التي يقوم بها أحد سكان الولايات ، مثل إسدائه بعض الهبات لمدينته أو قيامه بعمل فريد يدل على ولائه ، كجمع القوات المساعدة في قمع ثورة من الثورات . وإن الألقاب القبلية التي اتخذها هؤلاء المواطنون الجدد ، مثل أليوليوسيين *Iulii* والكلاوديين *Claudii* والأليبيين *Ulpii* والأوريليين إلى آخره - ذلك لأن هؤلاء المواطنين الجدد كانوا يأخذون أسماء مكرمهم ، اعترافاً منهم بفضلهم سواء كان ذلك المحسن هو يوليوس أو أوغسطس أو قيصر أو فلافيوس فسباسيا نوس *Flavius Vespasianus* أو أوريليوس انتونينوس *Aurelius Antoninus* - لأنها توضح أن الاتجاه إلى بث الحضارة الرومانية قد سار قدماً في ظل عهود الأباطرة المختلفة .

أما بالنسبة إلى تلك الأقاليم القديمة التي كانت قد دخلت في زمرة الولايات قبل أوغسطس بأعوام - وهي بيتيكا *Baetica* والغال الناربونية *Narbonese Gaul* وإفريقيا وآسيا - فقد كانت الظروف فيها مواتية ، إذ تأصلت فيها الحضارة الرومانية وامتدت جذورها ، فيقول أحد الكتاب : « إن بلاد الغال الناربونية هي أقرب شياً إلى إيطاليا منها إلى أية مقاطعة أخرى » . أما المناطق التي دانت حديثاً فكانت تشعر بوطأة الغزو شديدة قاسية ، لأن القبائل كانت عرضة لأن تخسر بعض أراضيها التي تقطع لتأسيس المستعمرات عليها ، كما اضطر نبلاؤها الذين رغبوا في محاكاة الرومان في ملابسهم وطرائق حياتهم أن يفترضوا من المقرضين الرومان ، كما وجد العامة

في أعمال السخرة والخدمة العسكرية حملا بغيضا . غير أن كثيراً من هذه الشرور ما لبثت أن زالت في ظل الحكومات الرشيدة الواعية ، واطرد تقدم تيار الحضارة الرومانية ، حتى أصدر الإمبراطور كاراكالا في عام ٢١٢ مرسومه الشهير الذي يقضى بمنح حقوق المواطنة الرومانية — في واقع الأمر — لجميع سكان الإمبراطورية ، وهو منحة من أروع المنح وأشهرها في التاريخ .

وكان لدى كاراكالا دوافع عدة حفزته إلى اتخاذ هذا المسلك . فقد كان لإجرائه هذا هو النتيجة المنطقية لتطور بدأ قبل عهد أوغسطس بزمان طويل ، تطور كان يسير نحو التآلف والوحدة التدريجيين ليعقد بين قلوب وعقول أبناء إمبراطورية واحدة تملك لغة مشتركة واحدة وتتبع قانوناً مشتركاً واحداً وتدين بالولاء لحاكم واحد . كما أصبح المواطنون الرومانيون في ذلك التاريخ ممن يؤدون الضرائب ، وازدياد عدد المواطنين الرومانيين على هذا النحو معناه ازدياد حصيلة الضرائب . وربما لم يكن يخلو الأمر أيضاً من الخواطر الدينية ، فقد كانت الدلائل واضحة ، نفياً بأن عاصفة توشك أن تحتاج الحدود الشمالية على أيدي البرابرة ، وكانت روما ، إزاء هذا الخطر ، في حاجة إلى رضا الآلهة التام . وما من شك في أن رضا الآلهة سيكون أقرب منالاً وأوفر بركة لو أظهر هؤلاء المواطنون الجدد عرفانهم بالجميل واعترفوا بفضل الآلهة ، واحتشدوا بمعاييدها الرومانية وبذلك يستمدون عطفها وينالون رضائها . ذلك لأن الآلهة الرومانية كانت قريبة الشبه بالنبلاء الرومانيين ، فكما زاد عدد بطانتهم من التابعين ، ارتفع قدرهم وتألق مجدهم .

يبدو أنه على حين أن دخل الإمبراطورية خلال القرنين الأول والثاني ، كان يوازي خرجها ، لكن ما إن حل عام ١٧٠ تقريباً حتى بدأت نذر الشوم تظهر في الأفق . فأصبحت مسؤولية جباية الضرائب في أي منطقة من المناطق تقع على عاتق أبناء المنطقة الأثرياء الذين كانوا أعضاء في مجلس الشيوخ المحلى ،

وعرفوا باسم *decuriones* أو *curiales* ، كما كان يتطلب منهم أيضاً أن يوفرُوا الكثير من أجل لإخوانهم المواطنين الفقراء ، في مجال الترفيه والخدمات العامة والمدارس والأغذية ، وهي مرافق يقع عبء تمويلها في العصر الحديث على عاتق الدولة . ولم تلبث هذه الأعباء المتراكمة أن أصبحت مصدر قلق ومتاعب لهم ، وإن مرسوم الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي يقضى بتخفيض بعض النفقات المفروضة على الأغنياء لعظيم المغزى (وإن كان يدعو إلى السخرية) . وأدى وباء حملة الجنود العائدين من الشرق إلى إزهاق مئات من الأرواح بين عامي ١٧٠ و ١٨٠ ، بينما توالى على السكان سلسلة من المجاعات هبطت بعدهم إلى حد بعيد . وفي استطاعتنا أن نتبين بوضوح ارتفاع تكاليف المعيشة من الفئات المختلفة لراتب الجندي في العصور المختلفة : فنجد أن دوميشيان رفع راتب الجندي *stipendium* الذي بلغ في عهد أوغسطس ٢٢٥ ديناراً إلى ٣٠٠ دينار واستمرت الزيادة في اطراد حتى أوقفها كاراكالا عند ٥٠٠ دينار . وصاحب هذه الزيادة — وكان على نحو ما عاملاً من العوامل التي استوجبتها — انخفاض قيمة العملة بصورة ازدادت سوءاً على مر العصور ، وكان نيرون هو الذي بدأ هذا التيار ، ولكنه على الرغم من أن تراجع وخلفاءه قد حدوا منه ، فلم تعد الأنطونينيات *Antoniniani* في منتصف القرن الثالث عملات فضية على الإطلاق ، بل أصبحت عملات نحاسية مغطاة بالفضة ، تقل قيمتها عن خمسة في المائة من قيمتها الاسمية . أما الذهب والفضة فبدلاً من أن يتركا للتداول في روما . فقد سحباً بكميات هائلة إلى الشرق ويقدر بليبي ما كان يخرج سنوياً في ذلك الوقت بمائة مليون سترتينوس *sestertii* . وقد تدهور الموقف بعد سنة ٢٤٠ من كافة الوجوه ، وفقروات البرابرة حرمت مساحات شاسعة من الأرض من الزراعة ، كما أصيب كثير من المدن بالتخريب والتدمير ، بل إن بعضها امتدت إليه يد السلب والنهب وأصبحت بحاجة إلى بنائها من جديد ، كما أن اقتصاديات مناطق برمتها قد اختلت . وانخفضت القوة الشرائية للعملة حتى أن رواتب الجنود كان

بعضها يدفع عينا . بيد أنه كان من الضروري إطعام القوات وتوفير الكساء لها ، إذ لم تكن تمر لحظة واحدة تسلم فيها البلاد من هجمات البرابرة ، لذلك فقد كانت المواد الغذائية والحيوانات تؤخذ قسرا وعنوة من الريفيين ، الذين لم يكن أمامهم سوى استئثار عطف الموظفين المالمين التابعين للإمبراطور واسترحامهم ، بينما ينظرون بمتسلكاتهم تنتزع منهم انزعاء ، وقد حفظ لنا القدر عدداً من هذه الملتصقات ، وكانت الشكوى واحدة دائماً فهي الضرائب القاصمة للظهور ومصادرة الممتلكات قسرا وعنف الجنود وجورهم . ومن بين العرائض التي تمثل الطابع السائد في الملتصقات ، عريضة تقدم بها العمال الآباريون للإمبراطور في ضياع وادي تمبريس Tembris في آسيا الصغرى يقولون فيها : « بينما يحيا غيرنا من الناس ، يا أعظم الأباطرة تقوى ، وأثبتهم ملكا ، حياة أمن وسلام ودعة ، بعد أن قضى على كل الشرور وأزيلت أسباب القلق والاضطراب ، فإننا وحدنا أصبح يتحتم علينا أن نخضع لمعاملة تتعارض تمام التعارض مع طابع عهودكم ، ولذا فإننا نرفع تضرعاتنا هذه إليكم . وهذا هو مدار شكوانا ، إننا ملك لكم أيها الأباطرة المقدسون كل التقديس ، إن قرية بأكلها هرعت إليكم وأصبح أفرادها جميعاً يلتمسون الرحمة من ألوعيتكم ، إننا تلقى عننا وجوراً ونستهدف لألوان من العنف من جانب الفئات نفسها التي كان ينبغي عليها أن تعمل على صيانة الصالح العام . ورغم أننا نعيش بعيداً عن الشواطئ في قلب اليابسة ، ولا نخضع لإرادة عسكرية ، إلا أننا نتعرض لمعاملة لا تتفق قط ، مع عهدكم الكريم المبارك — إن الضباط والجنود وأقطاب المدن ، بل والموظفين المالمين التابعين لكم Caesariani ، ممن يمرون بهذه المنطقة ، دائماً ما يتنسكبون الطريق العام ويغيرون علينا . . فينتزعوننا من أعمالنا ويستولون على الثيران التي تجر عارثتنا ، ويطالبوننا بمطالب جبرية غير مشروعة . . . وهكذا تملأ هذه القصة التي تثير الرثاء بما تحويه من عبارات الإطراء والمديح

ومن شعور بمساوى تنوء بحملها الكواهل ، وليست هذه الشكوى فريدة في نوعها ، فهناك عدة شكوى أخرى تماثلها .

كان هذا هو شعور أهل الريف ، أما عن المدن فلم تكن الحال فيها بأفضل من ذلك ، فقد ثقلت أعباء أعضاء مجلس الشيوخ المحلى وبلغ بهم الفقر الذى أصابهم من جراء النفقات الباهظة التى كانت تتطلبها وظائفهم أن أصبحوا لا يقبلون إلا مرغمين الأعباء التى كان الاضطلاع بها فى وقت من الأوقات امتيازاً وشرفاً ، بل أصبح الأمر يتطلب إرهابهم ودفعهم عنوة إلى أعمالهم . وتقدم محاضر جلسات مجلس مدينة أكسيرنخوس Oxyrhynchus مثلاً عظيم الدلالة : يدعو رئيس المجلس إلى تعيين موظفين فتعرض عليه قائمة بالأسماء المقترحة ، إلا أن شخصاً واحداً يدعى بطليوس ، بلغ منصب الكاهن الأعظم بالفعل يتنصل من تعيينه فى وظيفة أمين صندوق عموى فيقول : لا أرجوكم ، لا أستطيع ذلك ، إنى رجل رقيق الحال أعيش مع والدى ، وملتفت الرئيس إلى بقية الأعضاء ثم يقول قولاً ذا مغزى : إن بطليوس فى حاجة إلى شيء من الضغط من جانبكم ، وهو إن ترك لنفسه يتنصل من هذا الواجب العظيم . فيبادر أحد الأعضاء بالاعتذار عن بطليوس فيقول : إن الرجل رقيق الحال ولا يستطيع تحمل العبء . فيعود بطليوس إلى اعتراضه : إنى أرجوكم رجاء حاراً .. إن هذا الواجب فوق طاقتى .. إنى لا أستطيع أن أتحمل عبأين فى وقت واحد . وفى هذه الأثناء يكون بقية الأعضاء قد أخذوا فى صب عبارات التملق الخادعة فى سمعه وشرعوا يهللون له ويكبرون له دأياً الأمين الصادق بطليوس ! إن بطليوس ليس ممن يخلدون قبيلتهم ، .. وهلم جرا . فهل هناك ما هو أقرب من ذلك إلى الإجبار والقسر ، حين يعرض المرشحون عن الوظيفة كل هذا الإعراض وحين يكون الرئيس على هذا القدر من الافتراء والصلافة ؟

وما إن اقترب القرن الثالث من نهايته ، حتى كان العالم الرومانى ، بعد

ما لقيه من تخريب وما أصابه من جذب من جراء غزوات البرابرة ونتيجة لجشع حكامه وجورهم ، قد أصبح محطاً منهوك القوى . وداعبت الآمال الجميع في قيام حياة سلم وإصلاح وهمدوء ، وانعكست هذه الآمال على مشاعر الإمبراطور بروبوس Probus الحالم . فقد جاء أنه قال : د لعل الوقت قريب حين لا تكون هناك حاجة ، بعد أن يرد البرابرة على أعقابهم ، إلى الجند ، ولن يحدث آنذاك أن يصادر محصول أى فرد من أهل الولايات ، أو تحصل مدفوعات قسرية ، كما ان ينضب لدخل الشعب الرومانى معين ، ولن تكون هناك معسكرات وان يسمع صوت نفير ، وان تصنع أسلحة ، وسيكون الشعب حراً فى حرث أرضه والانصراف إلى عمله وتعلم حرفه وجوب بحاره ، . ولعله لا يمكن أن نقطع بنما إذا كان بروبوس قد تكشف له المستقبل على هذه الصورة المثالية الشاعرية ، بيد أن ما قاله كان يتجاوب بلا شك مع الآمال والأحلام التى كانت تداعب مخيلة شعبه .

ولم يقدر لهذه الصورة الشاعرية أن تدخل عالم الواقع . وكان رأى عند دقلديانوس الذى تلاه فى الحكم سنة ٢٨٤ ، وكان أقوى من سلفه وأصلب عوداً ومن ينحون منحنى واقعياً ، إن العلاج الأوحى يمكن فى إخضاع الدولة لنظام محكم دقيق ، وفى قيام الدولة برقابة حازمة صارمة على كافة المرافق العامة . لقد كان الأمر يتطلب منذ وقت طويل النظر فى إعادة تنظيم اقتصاديات البلاد على أسس جديدة . فأمر دقلديانوس بـمسح أراضي الإمبراطورية من جديد وبصورة أعظم شمولاً ، وقرر على أساس من هذا المسح وحدة جديدة للضرائب وهى الفندان iugum . ولم يكن للسلم فى مشاريع دقلديانوس موضع . فإن الإمبراطورية جميعها يجب أن توجه إلى الإنتاج الحربى ، وأتاح المسح الجديد السبيل إلى تقدير الضرائب تدقيقاً وأمكن بذلك التشدد فى جبايتها ، فكانت جباية الضرائب تتم بكل صرامة وشدة ، كما لم يكن يتهاون فى جمع المحصولات

المطلوبة ، وقد حاول الإمبراطور بموجب مرسوم عام صدر سنة ٣٠١ ان يفرض حداً أعلى موحداً للأسعار على كافة السلع التي تباع وتشتري داخل الإمبراطورية . ويعلن دقلديانوس في ديباجة هذا المرسوم الشهير عن مقاصده الكريمة لخير شعبه ، ويندد بهؤلاء الذين يزيدون من وطأة الحياة على الشعب الفقير بانتهازيتهم ونشاطهم الملتوى في السوق السوداء ، ويخدعون هؤلاء الجنود الذين يذودون عن الإمبراطورية ، ويثرون على حساب مصائب غيرهم وبلاياهم (انظر الفصل التاسع) . وعقوبة مخالفة هذا المرسوم على أى نحو هي الإعدام ، ولكنه من السهل ، كما يذكر في مرسومه ، تحاشي هذه العقوبة بالانصياع له والعمل بما جاء فيه .

وليس بنا حاجة الآن لأن نضيف شيئاً إلى هذه الموضوعات التي ستكون لنا إليها عودة في الفصلين التاسع والعاشر ، ولكنه يجب أن نقرر هنا أن الإمبراطورية لم توفق في ميدانى المالية والضرائب كما وفقت في غيرهما من الميادين . فلم تحاول الدول في القديم أن تتعرض لمشكلة الميزانية على أى نحو . لقد قدم أوغسطس بعض الحلول المتواضعة ، إذ نصح بعدم التوسع في رقعة الإمبراطورية . غير أن الأحداث التي وقعت فيما بعد والتي تأيدت في بعض الأحيان بمطامع الأباطرة ، كانت أقوى من أن تسمح بالاسترشاد بهذا النصح ، وباتت كواهل الحكام والشعوب على حد سواء ، في أواخر القرن الثانى ، بعد أن اتسعت رقعة الإمبراطورية وازداد عدد قوات الجيش زيادة كبيرة ، وتضخمت نفقات الحكومة ، ثنوء بحمل ثقيل . وعندما أضيفت إلى ذلك في القرن الثالث وطأة غزوات البرابرة ، والخسارة التي لحقت بالأراضى والمحصولات والأيدى العاملة من جراء هذه الغزوات ، ونقص القوى البشرية نتيجة لتفشى الأوبئة مرارا وتكرارا ، كان لابد أن تنهار أسس النظام المالى جميعه . ونلاحظ منذ عام ٢٢٠ تقريبا زيادة شكاوى أهل الريف الكادحين المستغلين

زيادة كبيرة ، وكانت هذه الشكاوى ترد من مختلف أنحاء الإمبراطورية سواء من إفريقيا أو آسيا أو تراقيا .

وقد لجأت الحكومة لمواجهة الهبوط المتزايد في قيمة العملة ، إلى الأخذ بنظام المكوس العينية من جديد (وهى ما تسمى بالـ *Annona*) وذلك لكي تتمكن من توفير الغذاء والكساء للجيش . وعلى أية حال كانت المكوس العينية تتميز بأنها مطاطة غير ثابتة ، وهذا ما حدا بدقلديانوس إلى الأخذ بها في نهاية الأمر ، كأساس لنظامه الضريبي الجديد . والواقع أنه بدا لفترة من الزمن كما لو أن اقتصاد النقود يوشك أن يبطل تماماً ، وأن واحداً من أنفع اختراعات العالم القديم كان قاب قوسين أو أدنى من الاندثار والضياع . والفضل في أن ذلك لم يحدث يرجع إلى حد بعيد إلى ما أبداه دقلديانوس من تصميم وعزم ، كما سنرى في الفصل التاسع . ولعل مؤرخو الأجيال الماضية قد تسرعوا في بعض الأحيان في تقريبهم للأباطرة المقاتلين الذين تولوا الحكم في أواخر القرن الثالث ، ولكن من كان قد عاش خلال حربين عالميتين وأدرك الصعوبات التي ما زال الساسة في صراع معها من جراء هذين الحربين ، لكان أقرب إلى فهم مواقف هؤلاء الرجال والعطف عليهم ، وقد كانوا حيال عمل ضخم ومهمة جبارة ، ولم يكن لهم سند من تجارب ماثلة مارسها أسلافهم أو من قواعد اقتصادية يسرون على هديها .

الفصل الخامس

فروع المعرفة - البحث العلمى - العلوم الوهمية

يقال إن تقدم المعرفة العلمية قد حالت دونه نظرة الرومان النفعية وقصور خيالهم . ولعل هذا صحيح ، ولكن بينما لم يكن لدى الرومان مشروعات بعيدة المدى في مجال التعليم والاقتصاد مثلا ، فما لاشك فيه أن كانت لهم القدرة على تصميم خطط المدن ووضع الاستحكامات المتشعبة المتقنة . ولكن صحيح أيضاً أن فروع العلم وبحوثه ذات الطابع النظرى ، لم تكن تدرس بطريقة أكاديمية حثة إلا في الولايات الشرقية ، حيث كانت توجد الشواخ القديمة ، مثل مكتبة الإسكندرية ، ولم تكن هذه مجرد مجموعة من الأشياء الجامدة التي لا حياة فيها تحتويها الصناديق ، كما توحى لفظة « مكتبة » ، بل كانت في الواقع معهداً للدراسات العليا ، حيث يجرى العلماء بحوثهم ويتجادلون ويتناقشون ، وكانت هناك مدارس الطب في الإسكندرية و *Pergamum* ، ومدارس الرواقين والأتقيوريين والأفلاطونيين الجدد في أثينا ، ومدرسة القانون في بيروتس *Berytus* بسورية . وإذا ما قارنا روما بالشرق فإنها تبدو على قدر كبير من التخلف . صحيح أنه كانت بالعاصمة مكتبة عظيمة ، وأن فسباسيان سمح للأطباء ومحترفي التدليك بأن يؤلفوا تقانات وينشئوا مدارس ، وأنه كان للغة اللاتينية أن تفخر ببضعة مؤلفين ممن تناولوا موضوعات علمية — إذ كتب فيتروفيوس *Vitruvius* عن الهندسة المعمارية وألف كيلسيوس *Celsus* في الطب وكتب فرنتينوس *Frontinus* عن المجارى المائية التي كانت تقام فوق قناطر ، بالإضافة إلى طائفة من الكتاب ممن كانوا يميلون إلى الموضوعات العلمية مثل سينيك وبلينى الأكبر، غير أن هؤلاء كانوا يمثلون كل ما في جعبة

روما . وعلى خلاف ذلك ، كان للإسكندرية أن تذكر بطليموس العظيم ،
الفلكي الرياضي والعالم الجغرافي ، وعلباء الرياضيات مثل بابوس Pappus
وديوفانتوس Diophantus الذي تطورت بحوثه إلى اكتشاف الجبر ، أما عن
آسيا فقد أنجبت طبيباً شهيراً وكاتباً غزير الإنتاج ، ألا وهو غالين Galen ،
فضلاً عن ديوسكوريديس Dioscorides عالم النبات ، وطبيب آخر يدعى
أريتايوس Aretaeus ، وكان لسورية أن تفخر بالمرشح الشهير أولبيان
Ulpian . وربما كان لها أيضاً أن تعز ببا بنينان Papinian الذي كان يفوقه
علماً ومكانة .

ومن بين فروع المعرفة التي تبنتها روما واتخذتها شعاراً لها — بغض النظر
عن الفنون النافعة مثل الهندسة ومسح الأراضي والهندسة المعمارية — الفلسفة
الرواقية . فقد أسرت هذه الفلسفة ألباب الرومان ، فصبغوها بالصبغة
الرومانية وبثوا فيها الروح الإنسانية ، وتمثلت فيها جميع مراتب المجتمع
الروماني وطبقاته ، فكان من بين مشايعها سينيكا رجل البلاط الثرى المثقف ،
وموسونيوس روفوس Musonius Rufus ابن الطبقة الوسطى ، وإبيكتيتوس
Epictetus العبد والإمبراطور ماركوس أوريليوس ، وقد اتخذ الأخير ان اليونانية
أداة للتعبير . ولم يكن هؤلاء يولون اهتماماً كبيراً لتلك المسائل المتعلقة بما وراء
الطبيعة أو المتصلة بالسياسة التي استثارت أذهان اليونانيين ، بل كان اهتمامهم
منصباً على سلوك الفرد وروحه ، وهكذا أخذت الرواقية تتحول شيئاً فشيئاً
إلى فلسفة عصور الشدة . كيف يكون سلوك المرء في هذا العالم الذي اتسع
أبداً اتساع ، والذي بدا الإنسان فيه كائنًا ضئيلاً يتأرجح كالريشة في مهب
الريح ، وكيف السبيل إلى مجابهة المقادير (سواء انطوت على خير أو شر) في
ثبات ورباطة جأش ، وكيف لنا أن نواجه الموت ونلاق الأرزاء ، وكيف يظل
المرء دوماً سيد نفسه — سواء كان رجلاً فقيراً قد وجد نفسه بغتة في قبضة
الشرطة ، بينما كان يتحدث دون حيلة إلى شرطى متنكر ، أو كان الإمبراطور
بعينه يوشك وهو محوط بالمتعلمين المذاهنين وطلاب الحاجات أن يتجر من صفاته

الإنسانية — . . . كان على الفلسفة الرواقية أن تجد الحلول لكل هذه المشكلات . وفي الواقع ليس في أقوال البشر ما هو أسمى مما جاء على لسان سينيكا ، أو أقرب إلى النفس من حكمة موسونيوس البسيطة الساذجة ، موسونيوس الذي كان يعتقد بأن الإنسان يجب أن يتعلم كيف يعمل بيديه وبعقله في الوقت ذاته ، وكان يدعو إلى تعليم المرأة والبلوغ بها أرفع مدارج التعليم ، وليس هناك ما هو أنبل من إيمان إبيكتيتوس المجرد وعطفه الإيجابي ، أو أبلغ مما أفضى به الإمبراطور ماركوس وعبر به عن ذات نفسه . « هل أنت غاضب تتنوى الانتقام ؟ إن أنبل ضروب الانتقام هو ألا تكون صورة من عدوك » . بيد أن هؤلاء لم يكونوا سوى صفوة ضئيلة ، وأنجما حائرة في قبة فضاء لا نهائي ، ليس في مقدورهم أن يؤثروا على ما حولهم تأثيراً كبيراً . « إن الحياة قصيرة ، والثرثرة الوحيدة للحياة الدنيا هي السلوك الصالح والمعايشة الطيبة » . « لا تأمل في مدينة أفلاطون الفاضلة ، حسبك أن تخطو خطوة إلى الأمام » .

ولم تلبث الفلسفة الرواقية أن أصبحت فلسفة عملية طابعتها الجسد والصرامة ، وهي توائم المزاج الروماني وتتجاوب معه أعظم التجاوب . تقول إحدى استعاراتها « إن الله قد أقامك حارساً فلا تترك موقعك إلا بأمر الله سبحانه وتعالى » . ورغم كل نقائص هذه الفلسفة فإنها قد بثت في نفوس أشياعها الثقة والشجاعة لكي يواجهوا المخاطر في ثبات ورباطة جأش ، ولكي يجهروا بأرائهم دون خوف أو وجل ، بل وليجابهوا الموت إن لزم الأمر . قد يشعر القارئ بشيء من الضيق في مستهل قراءته لماركوس أوريليوس بسبب طريقتيه ، ولكنه لو واصل قراءته لاستلقت نظره في بداية الكتاب الثاني عنوان صغير يقول : كتب هذا بين الكوادين Quadi على نهر جران Gran . وسوف يدرك توما أن هذه التأملات الذاتية لم يسطرها باحث منقطع إلى بحثه منعزل بنفسه ، بل كتبها إمبراطور وقائد ، في لجة من الإغواء

والأخطار التي تتطلبها حملاته ضد البرابرة ، وفي فترات الراحة والهدوء القصيرة النادرة خلال الليل .

كان الجانب الأعظم من الرومانيين رواقيين عن وعى أودون وعى .
والجدير بالذكر أن مدرسة الأبيقوريين المناهضة لها لم تجتذب إلا عدداً يسيراً من المشايخين فقد أثار الدهشة والعجب ذلك المبدأ الذي تنادى به والذي يقول إن اللذة هي هدف الإنسان ، فضلاً عن إمكان تأويله تأويلاً سيئاً .
غير أن أبيقوروس نفسه شرح هذا المبدأ بما يدل على التقشف الشديد الذي يراد في تطبيقه ، وقد ظهر تلاميذه في عهد الإمبراطورية على هيئة جماعات متفرقة من « الأصدقاء » الذين يجمعهم ولاؤهم واحترامهم المشترك لمؤسس مذهبهم ، وتربطهم قواعد بعينها لحياة مجتمعتهم . غير أن إيثارهم للحياة الهادئة بعيداً عن معترك السياسة ، وإنكارهم لوجود أية « عناية إلهية » تدبر شؤون الكون ، أدى بهم إلى الامتناع عن الانخراط في سلك الوظائف العامة ، وجر عليهم ارتياب الجماهير في أنهم « كافرون بالآلهة » ، ولم يكن هناك من سبيل إلى النظر بغير هذه النظرة إلى مثل هذه الجماعة الجانحة إلى الهدوء ، في بلد يتطلب من شعبية مشاركة فعلية في الحياة العامة والأخذ بنصيب في المراسم الدينية للدولة . بيد أن هذه الجماعات الصغيرة من « الأصدقاء » التي كانت تحي حياة هادئة نبيلة والتي كانت ترعى مصالح بعضها البعض ورعاية واعية ، وتبادل الرسائل والزيارات ، كانت تمثل في الواقع شيئاً لم يكن ليدركه إلا عصر متأخر ، وقد أدت هذه الجماعات خدمات جليلة في حربها على الأكاذيب والأضاليل ، ومن الغريب أنهم قد قرئوا بطائفة المسيحيين الجديدة تحت كنية مشتركة هي « الملحدون » .

ولعل الأبيقوريين كانوا يتفقون مع الرواقيين في أن الانفعالات هي العنصر المطلق لحياة الإنسان ، غير أنهم كانوا ينادون بأن شعور الخوف هو

أعنف هذه الانفعالات على الإنسان وأشدّها هدماً لكيانه . وقد يتخذ هذا الخوف صوراً مختلفة ، فهو إما خوف من الآلهة أو خوف من الموت ومن حياة ما بعد النبر ، أو خوف من الآلم . يقول أبيقوروس Epicurus : « فلنحطم إذن الإيمان بالآلهة — أو بالأحرى نحطم الاعتقاد بأنهم يولون أدنى اهتمام بالبشر — ولنحطم الخوف من الآخرة بأن نثبت أن ما من روح بشرية ستبقى في الوجود ، ثم لنحطم الخوف من الآلم ، فهل يبقى هناك ما يمنع الإنسان من أن يحيا حياة سعيدة ؟ » إن هذا هو أعظم ما حققه إبيقوروس ، إنه خلص البشرية من المخاوف — كما يقول تلاميذه — « ببلم الخلاص » ، وبمذهبه الذرى أولاً وقبل كل شيء .

يقول أبيقوروس إن الكون يتألف من ذرات وفراغ ، وإن القدر يتحكم في كل شيء ، وإن الروح تتحلل عند الموت ، وينتهي الإنسان إلى العدم . ولا يعني الموت في شيء ، فطالما وجد الموت لا نوجد نحن ، وطالما وجدنا نحن فلا وجود للموت ، بل إن في وسعنا أن نتحمل حتى الإحساس بالآلم ، بأن نقابل به بتذكر لحظات السعادة التي عشناها سلفاً ، وبالتطلع إلى المستقبل . ثم ما سبب الخوف كما قال السيد المسيح ؟ « فالآلم إذا كان حاداً ، كان قصير الأمد ، وإذا كان مستمرا كان هينا محتملا » .

ورغم ذلك ، فإن هذه العقيدة كانت عقيدة سلبية ، ولم يكن من شأنها أن توفر للبشرية شيئاً من السعادة التي زعم أبيقوروس أنها تحققها . ولتحقيق هذا الجانب الإيجابي المفقود ، اتجه الأبيقوريون إلى الصداقة ، فكانوا في جماعاتهم الصغيرة ، المنتشرة في مختلف المدن . يمارسون حياة مشتركة ، ويخضعون لقواعد دقيقة تقضى بتبادل النصيحة والموعظة ، « فليس هناك من بين المنافع العديدة التي تعود من الصداقة ما هو أعظم من حياة الصديق الذي يستطيع المرء أن يبتئ ذات نعمه وأن ينصت إليه عندما يتكلم » . وترددت في كتابات أبيقوروس

الإشارة إلى أهمية اعتماد الإنسان على أخيه الإنسان . فزاد يقرر في نظرة سيكولوجية عميقة : « ليست العبرة بما يقدمه لنا الأصدقاء من عون ، بل العبرة هي باطمئناننا إلى عونهم لنا ساعة الشدة » . وعلى الصديق أن يضحى بكل رخيص وغال في سبيل صديقه ، حتى بحياته نفسها . هذه هي المجتمعات الأبيقورية الصغيرة التي كانت أشبه بحزر صغيرة من السلام والصدقة داخل العالم الروماني الذي تضطرب فيه الحياة بشتى ألوان النشاط البشرى . ومع ذلك فقد كانوا موضع شك وريبة ، إذ اتهموا من جانب المتحمسين لواجبهم الوطني بأنهم سلبيون مشكرون لمجتمعهم ، واتهموا من جانب المسيحيين فيما بعد بأنهم بمعون في الإلحاد ، ويجدر أن نذكر هنا — إحقاقاً للحق — أن صداقتهم كانت بالفعل مقصورة على أفراد مجتمعهم الخاص ، وأنهم لم يكونوا يتمتعون بشيء من روح الأخوة والرحمة التي نالت من أجلها « جمعية الأصدقاء » في العصر الحديث ، ما هي جديرة به من إعجاب وثناء .

ولعل ما يؤخذ على هاتين الفلسفتين هو ذلك الطابع العملي نفسه الذي اتخذناه ، فظهرتا من جرائه وكأنهما لا تصلحان إلا للطبقة البرجوازية ، ومن ثم فقد تطلعت النفوس الأرستقراطية المتشائخة إلى شيء يخلق بها في سماء الخيال ويبعث فيها شتى الإيماءات والانطباعات . وعلى ذلك فقد قصد إلى إحياء مذهب أفلاطون ، وقامت المدرسة المعروفة باسم الأفلاطونية الحديثة التي ضمت بين أعضائها في القرن الثالث ذلك العملاق أفلوطين Plotinus . وقد عمد هؤلاء وكانت غالبيتهم من نصف الإمبراطورية اليونانية — عندما ضاقوا ، فيما يبدو ، بنظم الحياة الخلقية البحتة التي وضعت للرواق والأبيقوري ، ونعذر عليهم أن يلبسوا لأنفسهم راحة نفسية في مراسيم الدولة الدينية أو مراسيم العقائد الأجنبية (انظر الفصل الثامن) — عمدوا إلى حصر معنى الفلسفة في نطاق ضيق وقصرها على البحث عن ذلك الكائن المطلق الذي يسمو عن الوصف

والذى يقف وراء كل ظواهر الطبيعة ، وذلك عن طريق التركيز الذهني والتأمل والغميية أيضاً . وكان رائدهم الأعظم أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠) - مصرى المولد ، استوطن إيطاليا في عهد الإمبراطور فيليب (٢٤٤ - ٢٤٩) وعلم هناك ، وجذب إليه جماعة من التلاميذ الأولياء المتحمسين الذين ترك لنا أحدهم ، ويدعى بورفيرى Porphyry سيرة السيد المسيح .

لقد كان أفلوطين حكيماً على درجة من سمو الشخصية وقوتها ، حدث بالناس إلى اختياره راعياً لأولادهم ، بل إن أحد النبلاء الرومان الكبار (ويدعى روجانيا نوس Rogatianus) آثر ألا يلي نداء الواجب الوطنى، وأبى الانخراط في سلك الوظائف العامة ، كي يسير على خطى أفلوطين في الفلسفة . والواقع أنه استطاع أن يقنع الإمبراطور جاليا نوس Gallienus بأن يأمره بقطعة من الأرض ليقم عليها مدينة « بلاتونوبولس » Platonopolis وهى مدينة خصصت لإيواء من يرغب من الرجال والنساء المتقاعدين في العيش في ظل قوانين أفلاطون وفى الانقطاع لدراسة الحقائق الفلسفية بعيداً عن صخب الحياة . وعلى الرغم من مبدأ أفلوطين القائل بوجود تخليص النفس من وطأة المادة ، وعلى الرغم من أنه كان يشعر بشيء من الخجل من وجوده في الجسد ، فإنه لم يأخذ بذلك الموقف السقيم الذى يقفه بعض المفكرين في نظرهم إلى المادة كأنها شر مطلق . كان مرمى أفلوطين هو التخلي عن مطالب المادة وأوزارها ، والعيش في بساطة وكفاف ، والتأمل دوماً في الحقيقة والجمال المجردين ، حتى ترتفع الروح في النهاية في جوار صاعدة إلى السماء « كالشكل الأواحد إلى الواحد الأواحد » ، وقد مارس أفلوطين بنفسه حياة الزهد والتشف ، ولقن أصوله لتلاميذه المعجبين الأوفياء . وإنى لست بقادر على الكتابة عنه وأعن مذهبه الذى حاز إعجاب الكثيرين من المفكرين المحدثين ، ولكن بما لا شك فيه أنه

بلغ الذروة في التأمل الخالص المجرد^(١) .

بيد أن الذرى إنما هي أماكن موحشة ، لا يمكن أن يرتقى إليها إلا من أوثى رتتان روحيتان بوسعهما أن تستنشقا مثل هوائها النقي الخالص . وقد ذهب الأمر إلى حد أن تلاميذ أفلاطون المقربين أنفسهم تنكبوا الطريق إلى الشعوذة والطقوس الشاذة ، ولم يتأثر بأفلاطون سوى عدد قليل ، حتى ظهر أفلاطونيو كامبردج في القرن السابع عشر ؛ فنفضوا فيه الحياة من جديد في اعتقاد راسخ بأن خلاصة الفلسفة الأفلاطونية إنما تكمن في تعاليمه . وإن كان المفكرون في القرن الثامن عشر والجانب الأكبر من القرن التاسع عشر ، قد سخروا به وعدوا مذهبه دعوة عادية إلى الباطنية ، فإنه قد تبوأ في الوقت الحاضر مكانه اللائق في أذهان المفكرين والفلاسفة .

حان الوقت لنعود إلى الأرض . ما من شك في أن علم الجغرافية ، وخاصة في مبدائه العملية المتعلق بالاستكشافات الجغرافية ، قد أحرز تقدما ملموسا ، فقد أمر ماركوس فيبسانيوس أجريبيا M. Vipsanius Agrippa نائب أوغسطس العظيم ، بإعداد خريطة للإمبراطورية ، ووضع دليل جغرافي يتألف من حشد كبير من المعلومات . ولما كانت الفتوحات الجديدة تؤدي إلى اتساع رقعة الإمبراطورية ، ولما كان التجار والباحثون يتوغلون فيما وراء حدودها الجديدة أيضا إلى أراض لم يكن يعرف عنها الكثير ، فقد كان تقدم المعرفة أيضا في اطراد . وقد بحث فيرون بفرعيني من « المساحين » يتألف من « قواد المائة » إلى أعلى النيل ، ويبدو من الأوصاف التي سجلوها أنهم توغلوا فعلا إلى منطقة السدود . كما أرسل أحد المقاولين ، في عهد فيرون أيضا ، وكيله صوب الشمال حتى

(١) أنظر على سبيل المثال مؤلف :

W. R. Inge, The Philosophy of Plotinus, 3rd. edn., 1929.

والترجمة الكاملة Enneads (plotinus's writings) بقلم S. Mackenna and B. S. Page

بحر البلطيق ليتعرف على أماكن جمع الكهرمان ويقف على أسواق التبادل والمستودعات في مختلف البلاد . ورحل ديمتريوس الطرسوسى بعد عشرين سنة من هذا التاريخ إلى هبريديس Hebrides أثناء ولاية أجريكولا على بريطانيا (حوالى عام ٨٠) وعاد ببعض المقطوعات الطريفة من غناء الكتكتين الشعبى ، على حين كان أحد الإسبرطيين ويدعى كليومبروتوس Oleombrotus يرتاد المناطق الجنوبية من البحر الأحمر والأراضى المحيطة بها . وكانت رحلات التجار تفتح الطريق باستمرار إلى الهند (انظر الفصل السابع) ، كما استخدم أحد التجار السوريين الأثرياء وكلاء لدراسة مراحل وطريق الحرير الصينى ، حتى مرو Merv ، بل إلى ما وراء ذلك أيضا ، وحدث في القرن الثانى أن شخصا يدعى ديوجينيس Diogenes كان عائدا من الهند فألقت به الريح على شواطئ إفريقيا الشرقية والوسطى ، وسمع (إن لم يكن قد رأى بعينه) عن بحيرتين عظيمتين تغذيهما الثلوج الذائبة من جبال القمر ، التى زعم أن نهر النيل ينبع منها . واختفت جبال القمر بين طيات الجغرافية الأسطورية ، ولكنه بعد مضى ستة عشر قرنا على رحلة ديوجينيس ، اكتشف الأوروبيون البحيرات العظمى .

وحل عبء الاستكشافات الجغرافية في مجالها العملى كل من اليونانيين والرومانيين من سكان الإمبراطورية ، غير أن تصنيف كافة المعلومات وتبويبها ووضعها في أطلس جغرافى كان من عمل مارينوس Marinus ، من صور ، ثم من بعده ، بطليموس العظيم الذى فاق سلفه وبزه . وثمة مجال آخر للتطبيق العملى للعلوم أحرز فيه الرومان تقدما ملموسا ، وهو الهندسة . فاكشفت طريقة استخدام البواكى والقباب المعلقة (فيما بعد) وطورت السقوف المنحنية بحيث أصبحت تغطى مساحات كبيرة ، وابتدع فن البناء بالحرسانة الحقيقية — كل ذلك نجمه ممثلا في آثار المباني الرومانية التى بلغت حداً كبيراً من الاتساع

والضخامة في عصر الإصلاح والبناء في عهد دقلديانوس ، وبلغت ذروة مجدها في القرن الثالث عشر في ذلك الجلال الأسر والآبهة الطاغية التي تبدو عليها كنيسة سانتا صوفيا . أما في المشاريع الأخرى التي لا تدخل في نطاق الأعمال الفذة السالفة ، مثل مسح الطرق ورسم اتجاهاتها في دقة ومهارة ، وفي إقامة القناطر وبناء القنوات المائية المعلقة وحفر الأنفاق . . . فقد أحرز الرومان أعظم التفوق . وأدى المهندسون والمساحون Libratores دورهم بمجادة . ويرى نونيوس داتوس Nonius Datus في لمبين Lambéas بشمال إفريقيا ، في نشر واعتزاز لائق بمهنته كيف أنه أصلح جانبا من نفق يجري بناؤه ، حيث انفصل قائمان عن بعضهما ويذكر إلى جانب ذلك رسائل الشكر التي تلقاها . وهناك الكثير من القناطر والقنوات المائية ما زالت قائمة حتى يومنا هذا محتفظة بكيانها على أتم صورة ممكنة ، فهناك قناة «بون دى جارد» Pont du gard الشهيرة التي كانت يوما ما تمتد مدينة نيم Nimes بالمياه ، وهناك القنوات المائية في سيجوفيا Segovia وتاراجونا Tarragona ، وهناك جسرا «القنطرة» و «قرطبة» في أسبانيا وجسرا ريميني Rimini و نارني Narni في إيطاليا . والقنطرة التي كانت تحمل الطريق الروماني عبر كياختا Sou Kiakhta بالقرب من كياختا Kiakhta في كردستان التركية ، والتي لم يزل بنيانها حتى الآن سليما لم يصب بسوء ، إن هذه المنشآت جميعا إنما تقوم للقرون المتأخرة شاهدا على مهارة المساحين والبنائين وقدرتهم على القيام بأعمال يكتب لها الخلود . ولا حاجة بنا إلى الحديث هنا عن شبكة الطرق العظيمة التي كانت همزة وصل بين الولايات المتطرفة القصية وبين حجر الحدود الذهبي في روما (انظر الفصل الثاني) ، وإن الآثار الموجودة في جنوب اسكتلنده أو دالماتيا Dalmatia ورومانيا أو سوريا لتشهد حتى هذه الساعة ، بما لا يدع مجالا للشك ، على رسالة التمدن التي اضطلع بها المهندسون الرومان .

وأبدى الرومانيون أيضا مهارة وحذا في حفر الأنفاق والمناجم وقنوات الصرف واستغلال القوى المائية . ولعل ما هو أجدر بالإعجاب تلك الممرات والدهاليز التي تحويها مناجم أسبانيا ، والتدابير التي اتخذت لتصريف المياه من الحفر على الوجه الأكمل ، واتبعت في ذلك طرق عدة ، مثل استخدام دقلاووظات أرشيميدس ، وهي على هيئة طبقات بعضها فوق بعض تتخذ لرفع المياه أو استعمال الدلاء ورفعها بالمسحاب . وابتدع عبقرى مجهول في وقت لا يمكن تحديده بدقة (وإن كان من المقطوع به أنه سابق لعهد أوغسطس) طريقة لاستخدام قوة اندفاع المياه لإدارة العجلات ، ومن ثم توليد الطاقة ، بقصد استخدامها في الأصل في طحن القمح ، وهي مهمة كانت تقوم بها الخيل ، وهذا يفسر لنا ما حدث في نقص مفاجئ في الدقيق والخبز عند ما استولى كاليجنولا فجأة على كل ما وقع تحت يده من خيول لتجريد حملة مباغتة إلى الشمال . وكانت هذه الطواحين المائية تنتشر بكثرة في الريف الإيطالي ، واكتشفت في ثلاث نقط من السور الروماني في إنجلترا آثار تركيبات لعجلة مائية تسير باندفاع الماء تحتها وذلك في تشستر ، وهو لتهويسل بيرن *Haltwhistle* وويلوفورد *Willowford* . ولا بد أن صيت هذا الاختراع قد انتقل بسرعة فائقة إلى دول العالم القصية ، إذ أن هناك أسطورة أيرلندية تروى كنه ، أن الملك كورماك ماك أيرت *Cormac mac Airt* (في القرن الثالث) أرسى في طلب أحد المهندسين من بريطانيا ليقم له طاحونة هوائية من هذا النوع . وثمة مجال آخر ظهرت فيه مهارتهم هو المنشآت الخاصة بالرى ، كما برعوا في إقامة القنوات ومجارى المياه . وتعد قناة « كاردايك » *Car Dyke* في كامبريدجشير *Cambridgeshire* مثالا للقناة الصناعية التي تصل ما بين نهرين ، كما توجد في شمال بلاد الغال قناة تصل نهر مياس *Maas* بالرين ، وكان لدى أحد الولاة مشروع جبار (لم يقدر له أن يتحقق) يقضى بربط نهر موسيل *Moselle* بنهر سايون *Saone* . وكان من شأن هذا المشروع أن ييسر الانتقال مباشرة من مرسيليا إلى

داخل فرانساً ثم إلى الرين . وإن مثل هذا المشروع ، بالإضافة إلى مشروع آخر كان يرمى إلى تخفيف بحيرة تقع بالقرب من نيكوميديا Nicomedia في آسيا الصغرى ، ليدعونا إلى التساؤل عما إذا كان المهندسون الرومانيون قد اهتموا إلى حل لمشكلة التغلب على المستويات المختلفة للبياء بطريق استخدام الأهوسة ، ويعتقد أحد الباحثين المحدثين أنهم قد اهتموا إلى ذلك بالفعل (١) .

ولن يتم أى بحث عن الهندسة الرومانية إلا بالحديث عن البصيرة العسكرية النافذة والمهارة البالغة في مسح الأراضي ، اللتين انصف بهما الرومان في أعمال التخطيط والتصميم والبناء لتنفيذ الاستحكامات المنيعة على الحدود ، وكانت هذه تتألف من سلسلة متصلة من المواقع الحصينة ، تتقدمها قلاع صغيرة في مواقع أمامية ، ومن مراكز الإشارة والقلاع الرئيسية في المؤخرة ، والطرق الموصلة التي تعرف عامة باسم *Limites* . وكانت مثل هذه التحصينات تحمي حدود الإمبراطورية في بريطانيا وجنوب ألمانيا بين الرين والدانوب ، وفي رومانيا وفي صحراء سورية وفي شمال إفريقيا ، حيث كانت توغل في الصحراء إلى حد تعذر معه معرفة الخطة العامة لهذه الاستحكامات ، حتى استعين في السنوات القليلة الماضية ، بوسائل النقل الحديثة والصور الجوية .

واقترن هذا التقدم في التطبيق العملي للعلوم والمعارف بإنتاج الكميات والموسوعات . وأحرز اليونانيون قصب السبق في هذا المضمار ، بيد أن ذلك لم يمنع ظهور بضعة كتب رومانية ، نخص بالذكر منها بحثاً كتبه فثرفيوس Vitruvius عن الهندسة ، يمكن أن يعد بداية علم الهندسة المعمارية الحديث ، إذ كان له عظيم الأثر بعد اكتشافه في عصر النهضة على ليوناردو دافنشي وباللايو Palladio ، كما كان قد ترجم بانهاء القرن الثامن عشر إلى اللغات كافة

(١) انظر F. G. Moore, in Amer. Journ. Archaeology العدد ٥٤ لسنة ١٩٥٠

الصفحات من ٩٧ — ١١١ .

الأوربية الحديثة كلها . ولم تقدم روما من المؤلفات النظرية بغض النظر عن البحوث التي كتبها كيلسوس Celsus وسينيكا وبليني الأكبر وفرونيوس Frontinus سوى النذر اليسير ، في حين أن الشرق الناطق باليونانية قد صال فيها رجال . وقد تدفقت الكتب والأبحاث الواحد تلو الآخر خلال القرن الثاني . ولعل أعظم الكتب والأبحاث أصالة ، مؤلفات ديوفانتوس Diophantus (١٧٠ تقريباً) الذي ابتدع الجبر في حقيقة الأمر والذي استحدث رموز التساوى والنقص والمجهول وغير ذلك . أما نيكوماخوس من جيرازا Nicomachus of Gerasa (١٥٠ تقريباً) فقد نشر مقدمة في الرياضيات ، وعالج نظرية الأعداد . وكتب هيرو السكندري Hero أبحاثاً في علوم الميكانيكا ، وخصائص الميكانيكية للغازات أو الهواء ، و« القذائف » بالإضافة إلى تعليق على أيوكليد Euclid . وألف بطليموس العظيم (١٧٠ تقريباً) مصنفاً للنجوم وكتب بالإضافة إلى مؤلفه عن « الجغرافية » مقالات عن البصريات وعن النظرية العددية . وأسهم أبولونيوس السكندري Apollonius (القرن الثاني) بمبحث في قواعد اللغة ، أما غالين (١٧٠ تقريباً) المفكر الذي لا يعرف الكال ، فقد أصدر ما يربو على ١٥٠ مؤلفاً معظمها في الطب وإن كان بعضها يتناول التربية والتعليم . ولعل غالين كان آخر أساتذة العلوم في العصر القديم ، إذ كان يحاضر ويمارس تجاربه ، ويتشاجر (في الغالب الأعم) ويدعو لنظرياته . لقد بلغ إنتاجه درجة من الضخامة ، كما طبقت شهرته الآفاق إلى الحد الذي لم يعد في الإمكان معه إحراز أى تقدم على آخر خلال بضعة قرون ، ويؤخذ عليه عادة في الوقت الحاضر (من جانب من لا يقرأ تأليفه) أنه متزمت رجعى . وما من شك في أن هذا الحكم جائر جداً بالنسبة لعالم كان يدعو إلى قراءة مؤلفات الكتاب القدماى ، ولكنه كان ينادى — في الوقت نفسه — بضرورة التحقق بما يقوله الأقدمون في ضوء الحقائق الواضحة الثابتة .

بيد أنه إزاء هذا الإنتاج الضخم المجهول ، يحق لنا أن نوجه شيئاً من النقد

البرى . ، مؤداه أن هذا الإنتاج لم يكن يمثل طاقات جديدة أو اكتشافات مستحدثة ، إذ لم يكن يعدو مجرد تجميع وربط بين ألوان المعرفة المقررة الثابتة ، فهو إمام الجامع في كذا وكذا ، أو قواعد كذا وكذا ، أو مقدمات في كذا وكذا ، ولا شيء غير ذلك . بيد أننا نعود فنقول إنه ما من حضارة تخلو من فترات يبدو فيها من الضروري توقف الركب ردحا من الزمن ريثما يتحقق نوع من الاستقرار ويتسنى النظر في حساب الأرياح والخسائر ، قبل التقدم خطوات أخرى . وجدير بالذكر أن بابوس Pappus وثيون Theon ، في الإسكندرية التي تعد أقل المناطق تأثراً بتقلبات القرن الثالث ، كانا لا يمثلان حلقة أخرى من الشراح والمعلقين على أيوكليد وغيره من علماء الرياضة فحسب ، بل كانت لهما نظريات وحلول جديدة .

والحقيقة أننا نواجه هنا مثلبا من أبرز المثالب التي اعتورت نظام التربية في العالم القديم ، ألا وهو الاهتمام البالغ بالبلاغة والخطابة . إن القول بأنه ينبغي على المرء أن يأخذ نفسه بالتعبير عن الأفكار التي تعتمل في ذهنه في وضوح وقوة وصفاء ، هو هدف سام جدير بالإعجاب ، غير أن هذا الهدف ينطوى على ناحيتين من نواحي الخطر ، الأولى هي أنه قد يضحي بالحقيقة والدقة في سبيل العرض الشائق ، وبذلك يطفئ المظهر على الجوهر ، والثانية أن يفرض مستوى كاذبا جامداً يتخذ مقياسا للتفوق . درج الكتاب اليونانيون في عهد الإمبراطورية على النظر إلى اللغة اليونانية القديمة التي كانت سائدة في القرنين الخامس والرابع (وهي اللغة التي كتب بها ثيوكديدس ولينياس Lysias وأفلاطون وديمستينيز Demosthenes) على أنها النموذج الأعلى والمثل الذي يجب أن يحتذى دون سواه ، ومن ثم فقد انقطعت الصلة بين لغة الكتابة — التي كان تفكير من يستعملونها ينحصر دائماً في تراث الأقدمين — ولغة الكلام ، وفقدت تلك بذلك أسباب الحياة والقوة والتطور . وكان هذا هو الحال أيضا مع اللغة اللاتينية ، وإن لم يبلغ الأمر هذا الحد من الخطورة ، إذ كان

شيشرون هو قدوة كتاب هذه اللغة ، مع أن بعض المتعلمين قد أعربوا عن إعجابهم بطلاوة الأسلوب القديم الذى ظهر قبل شيشرون .

ولنا أن تتصور عظم الخطب وفداحته ، لو اضطر المؤلفون الإنجليز إلى الاقتصاد على استخدام ألفاظ وعبارات كالتى وردت في مؤلفات زملائهم في القرن السابع عشر ، من أمثال بيكون Bacon وجيرمي تيلور Jeremy Taylor وملتون Milton ولوك Locke . وهكذا كانت التربية تنطوى على ميل إلى التقليد الجامد الصارم الذى لا حياة فيه وإلى التزمّت الشديد ، غير أنه كان هناك من بين مشاهير الكتاب مثل غالين وبلوتارخوس من أفلح في الوقوف في وجه هذا التيار ، فرفض غالين الكتابة باللغة اليونانية القديمة قائلا : « خير لى أن أخطئ في قواعد اللغة من أن أخطئ في قواعد الحياة » ، كما ندد بلوتارخوس بالفكرة القائلة بأن يكون للألفاظ الاعتبار الأول . غير أن البلاء ما لبث أن استشرى واستفحل ، فرغم أننا نعترف بوجود بعض الفوارق بين لغة الكتابة ولغة الحديث في أية حقبة من الحقب ، إلا أن الهوة قد اتسعت هذه المرة اتساعا خفيفا ، وهكذا قدر للجانب الأعظم من أدب العصور المتأخرة (سواء كان باللغة اليونانية أو باللغة اللاتينية) أن يكون إما تقليداً بارعا ، أو نمحذلقا تقتضيه أصول الصنعة .

لقد تحدّثنا عن نكبة البلاغة ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أن علماء اللغة وعلماء البلاغة على حد سواء قد قاموا بعمل مشر بوضع قواعد للأجرومية ، ودراسة اللغة نفسها وتحليلها ، وبالإضافة إلى ذلك ، فقد ظهر في القرن الثانى نظام للتدريب العام (التربية اليومية أو العامة) استتب له الأمر بعد فترات طويلة ، واستمدت منه فيما بعد « الفنون الحرة » السبعة التى اعتبرت في العصور الوسطى عدة الرجل المثقف تثقيفا صحيحا . بيد أن التعليم في النصف الغربى من الإمبراطورية جنح إلى المغالاة في مسيرة الاتجاه العملى ، ومن ثم كان

أقرب إلى السطحية والضحالة ، ذلك لأن من عادة « الرجل العملي » أن يتقبل في ميادين العلم التي لا توافق هواه أغرب الفروض وأشدّها مجافاة للمنطق . وإنها لهوة سحيقة مؤسفة ، تلك التي تفصل بين بليزى الرومانى الذى يؤكد لنا تأثير العشب المعروف باسم « بقلة الغزال » على نزع السهام ودلّ على هذه الحقيقة بأن السهام تسقط عن الوعول التي تتغذى على هذا العشب ، وبين غالين اليونانى . فقد حثّ تلاميذه على التحقق بما يقول وذلك بمقارنته بالحقائق الواضحة . وليس بأقلّ بلاء أن نرى علماء البلاغة اليونانيين يعيشون فى عالم يعود القهقري إلى قرون مضت ، وقد انكبوا على تدبيج الخطب السياسية حول موضوعات مثل معركة ماراثون Marathon ، أو جدل الإسبرطيين حول مصير أثينا . لقد كانت أجداد الماضى ظلا من عزاء الحاضر عصيب مخيب للأمال .

ومع كل ذلك ، فقد بقيت ظلال خافتة تدل على المهارة البالغة فى الهندسة التطبيقية وفن البناء والمعمار ، كما كتبت الحياة لقسط من المعرفة بالمبادئ الطبية العلمية ، بيد أنه قد ازدهرت إلى جانب العلوم الحقيقية علوم أخرى وهمية ، ازدهرت معها الخرافات والخزعبلات . ولعل العدو الأول كان علم الفلك ، الذى كان له فى القرنين الثانى والثالث من المكنة العلمية ، ما لم يتيسر له فى القرن العشرين . إذ تبنى الفلاسفة الرواقيون المتأخرون هذا العلم وعمدوا إلى تطبيقه ، فكان ينظر إلى النجوم والأبراج ، على أنها كائنات حية لها القدرة على التأثير المؤكد الحاسم ، سواء أ كان بالخير أو بالشر ، على جميع الكائنات الحية التي تعيش على وجه الأرض . إن اللحظة التي يولد فيها الإنسان تحدد مصيره وحظه ، حسب النجم الذى قد يكون فى الطالع ، ولا سبيل إلى الفرار من هذا القدر القاسى المحتوم . وماعتم أهل الشكوك أن أنقلدوا سهام النقد إلى الافتراضات التي يقوم عليها علم الفلك ، وإلى طريقة تطبيقه أيضا ، ولكن

الفلك قديني كي يشبع نهم السذج ، وكي تصدق نبوءة تا كيتوس Taotus الذي قال إن يمارس هذا العلم سيلقون دائماً الحرمان والردع ، غير أنهم سيمطلون مصدراً للمشورة والنصح . وكانت تتصل بالفلك طائفة من العلوم الوهمية (مثل : علم النبات الفلكي ، انظر الفصل الثامن) ، بل إن بطليموس كتب بحثاً عنها تضمنه مؤلفه الشهير Tetrabiblos ، الذي خصص فيه أقساماً معينة للحديث عن الفلك وعلاقته بكل من : الزواج ، و : الأولاد ، و : الرقيق ، و : السفر إلى الخارج ، .

ونعود فنقول إنه على الرغم من أن الباحثين السكندريين بلغوا من العلم درجة سمحت لهم باستغلال ضغط الهواء وصناعة آلة بخارية صالحة للاستعمال ، فإنهم وجَّهوا جل معرفتهم إلى تركيب اللعب المبتكرة ، مثل مسرح للعرائس يدار آلياً أو جهاز آلي يستخدم في نقل المياه المقدسة ، أو طريقة مبتكرة يمكن بواسطتها إحداث صوت طبل عندما يدفع أحد المصلين باب المعبد ، إلى آخر هذه التفاهات . ولا شك في أن الكهنة كانوا يلجأون إلى بعض هذه الحيل ليثيروا الرهبة والعجب ، فقد أقرّد هيبوليتوس Hippolytus ، وهو وثني من اعتنقوا الدين المسيحي ، عدداً من فصول مؤلف له ، لاقتضاح أمر الطرق التي يمكن بها افتعال الرؤى الإلهية والخيالات النارية . . وكما هي العادة كان هناك المؤسسون للمذاهب الدينية الجديدة ، وكانت هناك تلك الفئة التي لا تتورع عن العيش في رغد ، على حساب عطف الغير وتواهم ، فنسمع عن دجل يدعى بريجرينوس Peregrinus في القرن الثاني ، تحول إلى المسيحية فترة من الزمن ، وكان له أن يتمتع حتى وهو في السجن بالأطعمة الطيبة التي كان يرسلها إليه الأتقياء المؤمنون . كما ابتدع الإسكندر من فورت أبوني Alexander of for: Abouni (انظر الفصل السادس) عقيدة عادت عليه بأوفر الربح تمثل عبادة دحية ، ذات رأس إنسان تسمى جليكو Glyco ،

ذاع صيتها وانتشر إلى حد أن الإمبراطور ماركوس أوريليوس قصدها للعراق .

والواقع أنه بين هذه الملايين من سكان الإمبراطورية الذين يخيم عليهم الجهل وتستبد بهم الخرافات وتغلب عليهم البلاءة التي تحملهم على تصديق كل شيء ، كان من السهل على أى امرئ واسع الخيلة قليل الاكتراث ، أن يجنى ربحاً وفيراً من وراء العمل كعالم بالذات ، لأن لفظة عالم لم يكن ينضوى تحتها أساطين العلوم من كل لون وصنف ، بل شملت أيضاً الفلكيين والسحرة والمثعوذين والعرافين والأطباء الدجالين ومفسرى الأحلام ومن على شاكلتهم . وقد يحدث أن يخلص بعضهم في عمله ، شأن أرتيميدوروس Artemidorus (من دالدى Daldae في آسيا الصغرى) الذى كان يفسر الأحلام ، والذي يذكر لنا أنه قد أنفق وقتاً طويلاً وبذل جهداً كبيراً في جمع الأحلام وتصنيفها وتفسيرها ، ولؤلفه كما يرى البعض أهمية اجتماعية ، غير أنه لاقية لتفسيراته علياً . بيد أن الكثرة كانت من الدجالين ، مثل الجراحين المتجولين الذين كانوا يوهمون المريض بأنهم سيجرون له جراحة لاستخراج قطعة حجر منه ، ودائماً ما كانوا يجدون مثل هذه القطعة (إذ كانوا يحتاطون للأمر بإحضار قطعة من الحجر معهم) ، ومثل الأطباء الذين كانوا يشفون الصرع باستخراج عظامه من أنف المريض ، كانوا يخفونها في راحاتهم . وفي القرى أيضاً ، كانت الساحرات والحكيكات تقمن بتجارتهن من الأحجية والرقيات ومعجون العشق .

ولعله ليس من الإنصاف للحقيقة أن نحتّم حديثنا بهذه النعمة الساخرة . لقد جر القرن الثالث بحروبه وغزواته وأزماته الاقتصادية إلى ازدياد المعتقدات الخرافية والسذاجة ومجافاة العقل والمنطق ، بيد أن ذلك لم يكن بمستغرب من شعب منهك القوى تتنازعه شتى أسباب القلق . غير أن العلم

والدراسة والعلوم التطبيقية ظلت خلال القرنين الأول والثاني ، على ازدهارها
وصلاحيتها ، كما ظهر نظام جديد للتعليم ، كان مقدراً له أن ينمو ويتطور على
مر الزمن ، وليست الإمبراطورية هي المألومة فيما حدث من أن القرون المتأخرة
أخذت تنظر إلى هذه المؤلفات والنظم نظرة توشك أن تكون نظرة تقديس
وعبادة . وجدير بالذكر أن منارات صغيرة للعلم مثل الإسكندرية ظلت قائمة
حتى في أشد العصور حلكة ، لحفظت تلك الشعلة المقدسة التي كان للعرب ومن
بعدهم أوربا أن يحملوها ويتقدموا بها ركب الحضارة من جديد .

الفصل السادس

التربية والأدب والفن ووسائل الترفيه

إلى هذا الحين ، كنا نرقب سكان الإمبراطورية وهم يؤدون أعمالهم ويضطلمون بواجباتهم . غير أنه من دأب الإنسان أن ينظر ، سواء عن حق أو بغير حق ، إلى الأدب والموسيقى والفن كما لو كانت وقفا على ساعات فراغه وأوقات ترويحهم عن نفسه وجلوها . وعلى ذلك ، قلنا أن نقسم على فرص الترويح التي كانت متاحة للفرد في ظل الإمبراطورية ، في مختلف نواحيها وصورها . ولكنه لا يسعنا بالطبع قبل البدء في الرد على هذا السؤال إلا أن نستفسر عن نظم التربية والتعليم .

كان التعليم الرسمي العام ، بغض النظر عن التدريب والتثقيف الذي يتلقاه الطفل عن أبويه وبين أفراد أسرته ، مقصوداً ، أولاً وقبل كل شيء ، على القادرين على القيام بنفقاته . وكان بوسع النبلاء والأثرياء أن يتخذوا لأبنائهم مربين خصوصيين ، وفي مقدورهم أيضاً — وهذا ما كانوا يفعلونه بطبيعة الحال — أن يبعثوا بأبنائهم إلى مدارس يديرها أشهر علماء النحو والمربين ، سواء في روما نفسها أو في حواضر الأقاليم . وكان يتقاطر على المعلم في مدن الريف أبناء ملاك الأراضي ممن يمثلون الطبقة الأرستقراطية المحلية ، وأبناء قواد المائة المتقاعدین الذين يتميزون بضخامة جثثهم وأنفهم ، وأبناء العبيد المعتقين وصغار التجار الذين كانوا يدخرون المال في عناية وحرص كي يوفروا لأبنائهم مستقبلاً أفضل . ولنا نسمع بعد مضي جيلين أو ثلاثة أجيال ، وعندما ظهرت أهمية التعليم ، عن محسنين أسخياء يوقفون الأموال على المدارس ، أو مواطنين أثرياء يتكاتفون لتحمل نفقات أحد المربين . وعندما

- ١٢١ -

اقتضت الدولة أثر الأفراد أصبح ، الصندوق الخيري ، الذي أمر به تراجان يقوم بتدبير الأموال لتعليم الفقراء بالمدارس ، كما نصت لوائح المناجم التي كانت موجودة في فيباسكا Vipasca بالبرتغال في القرن الأول على توفير المدارس والمدرسين لأبناء العمال . وأسس فسباسيان كرسين للبلاغة اللاتينية والبلاغة اليونانية ، وعين كوثيليان Quintilian أشهر مرثي عصره في روما ، ليشغل كرسي اللغة اللاتينية . وأدرك الأباطرة منذ البداية الحاجة إلى تلقين الأمم المقهورة نظم الحياة الرومانية وأساليبها . فأنشئت منذ عهد أوغسطس مدرسة لأبناء النبلاء الغاليين في « أوتون » Autun ، كما حث أجريكولا أثناء ولايته على بريطانيا ، النبلاء المحليين على تعليم أولادهم وفق نظم التربية الرومانية .

كان للمعلم يقرأ فقرة من هومر أو من أحد المؤلفات الكلاسيكية الكبيرة ، ثم يشرح معناها ، ويأتى بعد ذلك دور السؤال والجواب . « من كان والده هكتور ؟ » .. « ديريام » .. « من كانا أخواه ؟ » .. « الإسكندر وديفوبوس » .. « من كان أقبح الخلق ؟ » .. « أى الآلهة ساعدت الإغريق ؟ » ... وهلم جرا . وكان للمعلم شخصية مرهوبة ، فقد يقرص أذنك أو يضربك ضربا مبرحا ، أو يعنفك مرغيا مزبدا إن تخلفت عن موعد الدرس ، كما يظهر من لوحات نيوماجن البارزة (انظر الفصل الثالث) ، والواقع أن أحد الناصحين لم يجد ما يواسى به صبيًا إلا أن يطلب إليه أن يصمد في شجاعة أمام معلمه كما يفعل الجندي الروماني عندما يواجه عدوه .

وكان الأساس الأولي للتعليم هو الأجرومية والهجاء والإملاء واستظهار بعض النصوص ، وتأتى إلى جانب ذلك بعض المناهج المبسطة في الحساب والجغرافية والتاريخ ، غير أن هذه جميعا لم تكن تخدم إلا غرضا عاما واحداً ، وهو تلقين فن الحديث والإقناع . كان الاعتقاد هو أن القدرة على الحديث المقنع القوى التأثير ، هى ما يميز الشخص المثقف عن القرويين والبرابرة . وثمة

مثليان في نظام التعاليم في العالم القديم . أولها أنه لم يدخل في حسابه توفير سبل التعليم لأبناء الفقراء من أهل المدن أو الريف ، وثانيهما مغالاته في الاهتمام بالجانب البلاغي (انظر الفصل الخامس) مما أدى في النهاية إلى طغيان المظهر على الجوهر وتحول اللغة اللاتينية شيئاً فشيئاً إلى لغة كتابة وأدب لحسب .

ولما كان الإلمام باللغة اللاتينية على هذه الدرجة من الأهمية ، فقد كان العالم اليوناني نفسه على استعداد لأن يتعلم اللسان الروماني ، رغم أن المترجمين منهم والوطنيين كانوا يعترضون في كثير من الأحيان على إرسال الآباء الطامحين أبناءهم على ظهور السفن إلى إيطاليا ، لكي يتعلموا اللغة اللاتينية ، ومن ثم تنهياً لهم فرص الترقى . وقد آلت إلينا معاجم وترجمات للبؤلفات اللاتينية الشهيرة ، مثل «الإنشادة» ، كان الغرض منها مساعدة الطلبة والدارسين ، وكتيبات أيضاً في قواعد المحادثة والحوار باللغتين اليونانية واللاتينية وضعت لذوى الطموح من أبناء المجتمعات . أما الجامعات فكانت يونانية الطابع في الغالب الأعم ، لاتينية فيما ندر ، إذ كانت الدراسات اليونانية هي السائدة في مدن مثل مرسيلى وأثينا وطرسوس والإسكندرية ، ورغم ذلك ، فإننا لانكاد نجد دراسات عليا في الرياضيات أو العلوم في أى من هذه الجامعات فيما عدا جامعة الإسكندرية . وربما كانت أصول الفلسفة أو مبادئ الجغرافية أو التاريخ تدرس في هذه الجامعات بصورة أو بأخرى ، غير أن هذه المواد عيها لم تكن تدرس ، فيما يبدو ، باعتبارها علوماً قائمة بذاتها ، بل لتسكون مادة يستمد منها الخطيب حاجته . وهنا تظهر أيضاً نكبة البلاغة .

وثمة شيء واحد تميز به المواطن الروماني في عهد الإمبراطورية عن أسلافه المواطنين في عهود أخرى ، وهو الشعور بأنه قد أصبح من حق أمته أن ترفع رأسها في ميدان الأدب في وجه اليونانيين أنفسهم . إن الشواخص التي أتاها شيشرون الذي «مد في آفاق العبقريّة اللاتينية» في ميداني الخطابة والفلسفة ،

والأشعار التي نظمها كاتولوس Catullus وفرجيل Virgil وهوراس Horace وأوفيد Ovid والمؤلفات التاريخية التي سطرها سالوست Sallust وليني Livy كانت تعنى جميعها أن في وسع روما أن تفاخر بمجموعة من المؤلفات الأدبية التي تحتضنها . وعلاوة على ذلك ، كان المواطنون الرومانيون ينفردون بميزة كبرى وهي حيازتهم لمستوى أدبي معروف يتخذ التقدير مدى إجادة الكاتب ، كما كان الحال مع الكتاب الإنجليز في العمود الأول ، إذ كان في وسعهم أن ينسجوا على منوال المؤلفات الفرنسية والإيطالية أو يقارنوا بينها وبين مؤلفاتهم .

بيد أنه يجب أن نضع نصب أعيننا عند الحديث عن الأدب أنه لم يكن من السهل دائماً الحصول على نسخ من أى مؤلف معين . كانت مهمة النسخ تقوم على عاتق الكتبة العبيد ، الذين كانوا يؤدون عملهم غالباً في سرعة فائقة ، مع ما يترتب على ذلك من إهمال وخطأ . قد يؤكد الوراق أن نسخته غاية في الدقة ، ولكن الناقد المدقق لا يعدم أن يجد أخطاء بها ، وكثيراً ما يشير الكتاب القدامى إلى نصوص الكتب الناقصة المعيبة . كما أن عدد النسخ كان محدوداً ، وقد أمر أحد المحامين الأثرياء عبيده ذات مرة بإعداد ألف نسخة من واحد من مؤلفاته ، لتوزع مجاناً ، ولكنه من المستبعد أن ينتج أى وراق ... نسخة من مؤلف واحد ، بل لا يرجح أن يبلغ عدد النسخ المعدة لأى كتاب نصف هذا الرقم . ورغم أن ثمن النسخة من ديوان مارشال Martial الذي ضمنه الحكم والأمثال ، ويبلغ خمسة دنانير (ما يقرب من خمس أوست شلنات) ، لا يبدو باهظاً ، إلا أنه كان يربو إلى حد كبير عن الأجر اليومي لكثير من الناس . ويندر أن نجد بين أبناء العالم القديم من كان يملك على أية صورة من الصور مثل هذا العدد من الكتب التي يملأ بها الباحث في العصر الحديث أرفف مكتبته ، كما كانت استعمارة المكتبة (وإغادتها فيما نأمل) تجري على أوسع نطاق حتى بين المثقفين أنفسهم . نسخة واحدة من خطب كاتو Cato الأكبر هي التي كانت متوافرة في روما نفسها ، كما يبدو ،

أن ماركوس أوريليوس كان يعتمد على صديق له في قراءة نسخة لإبكتيتوس . ولم تكن هناك سوى قلة من المكتبات التي تملك نسخا من مؤلفات المؤرخ العظيم تاكيتوس Tacitus هذا مع أنه لم يكن قد مضى على موته سوى قرن ونصف قرن على الأكثر ، حتى أن سمية الإمبراطور تاكيتوس (عام ٢٧٥) أمر باستخراج عدد أكبر من النسخ . وكان من الممكن أن تبلغ المؤلفات السهلة المأخذ رقعا عاليا في التوزيع في بداية ظهورها ، وقد سر بليني لأن مؤلفاته كانت تلقى رواجاً في ليون Lyons وابتهج مارشال إذ تذكر أن الضباط في بريطانيا أو بلغاريا سوف يقرأون قصائده ، ورغم أنه كانت هناك مكتبات في مدن الولايات ، يتطوع بتأسيسها عادة أحد المحسنين ، فلم تكن محتوياتها تتعدى المؤلفات التقليدية والكتب المدرسية العلمية التثقيفية .

والأمر متوقف على أية حال على روح العصر ، والاتجاه السائد فيه ، ومعرفة بمدى انتشار القراءة تعتمد أساما على أوراق البردى التي انتشرت من بين رمال مصر ، وإنا لنجد هنا أمرا يدعو إلى العجب ، ففي مدينة صغيرة نسبيا مثل أوكسيرنخوس ، كان في متناول أيدي الدارسين من سكانها في القرن الثاني طائفة كبيرة من المؤلفات الأدبية . فلم يكن هناك « هومر » لحسب الذي يعد دون. منازع الكتاب التعليمي الأول ، بل كان هناك هيزيود Hesiod أيضا ، كما كان بين أيدي القراء بها من المسرحيات التي كتبها كتاب المساة العظام ، أيسخيلوس Aeschylus وسوفوكليس Sophocles ويوريبيديس Euripides ، عدد أكبر مما آل إلينا في العصر الحديث . يقول سير ه . ا . بل : « لا بد أنه كان هناك جمهور كبير من القراء وتجارة رائجة للكتب » . وليس من المستبعد أن كانت هذه هي الحال في سائر المدن المصرية والسورية .

وإذا وجهنا السؤال الآتي : « ومن كان المؤلفون الأعلام ؟ » . لكانت الإجابة هي أن هومر يأتي دون شك في المرتبة الأولى في اللغة اليونانية ويليهِ يوريبيديس وديموسينثين وميناندر . أما في اللاتينية فهم فرجيل

ثم تيرنس Terrens ثم شيشرون . كان هومر وفرجيل من الأعلام الذين تنقشر مؤلفاتهم في كل مكان كما هي الحال في احتفاظ أغلب الأسر الإنجليزبة بنسخة من شكسبير (تكون جائزة مدرسية في الأصل) ، أما عن بقية الكتاب فقد كانوا يصلحون للخطيب الناشئ . إما باعتبارهم نماذج يحتذى أو مصادر للاقتباس الصحيح . ولا نرجح أن نسخا كثيرة من مؤلفات ثوكونيديس Thucydides أو أفلاطون كانت تباع للأفراد ، بل إن التاريخ الوطني الذي كتبه لينى لم يلبث أن بدا مسهبا طويلا ، فاستخرجت له مختصرات عرضت للبيع . وكان من الميسور الحصول على هذه الكتب من المكتبات العامة ، إذ كان لدى المدن الكبرى وكثير من البلدان الصغيرة مكتبات عامة ، وهي عادة ما تكون منحة من مواطنين أثرياء مدقوعين بحب الوطن . غير أن هذه الكتب لم تكن تتخذ فيما يبدو إلا مراجع فقط ، إذ يقول نقش وجد بأثينا ولا يسمح بخروج الكتب ، تفتح المكتبة من الساعة الأولى إلى الساعة السادسة .

وإلى هذا الحد ، لم تناول غير الأسماء الالامعة الشائعة ، وهي أسماء الكتاب الكلاسيكيين في الأدب القديم . فإلى الأعمال الجديدة الأصيلة التي ظهرت في عهد الإمبراطورية ؟ يجب هنا أن نقر في صراحة أننا نلاحظ بعد عام ١٢٠ هبوطا في الإنتاج ، كما لو أن استبداد الحكام المتزايد — وهي حالة وصفها كاتب معاصر بعبارة « كوتنا عبيدا أرقاء لسيد حسن النوايا » — أخذ يطغى على الروح المبدعة الخلاقة . فلم تكن هناك كتابات سياسية أو نظرية عميقة ، فيما عدا بعض البحوث الفلسفية الفنية حول شرعية الحكم الملكي ، كما لم تكن هناك خطابة مشهودة ، وخلا العصر من الشعراء المجيدين . بيد أن هناك بعض الأسماء التي تبرز قبل هذا التاريخ خلال القرن الأول ، وأشهرها في اللغة اليونانية بلوتارخ ، ويمثل روحا ندية ورعة دائمة ، كما كان يبت في تأليفه شيئا من جاذبية شخصيته . ومن الممكن أن ندرج مؤلفاته جميعا تحت اسم

« الفلسفة الشعبية » ، ولكن الواقع أنه خلق في مؤلفه « السير المتناثرة » ، (الذى كان يقارن فيه بين حياة بعض الساسة اليونانيين والرومانيين) عملا لم يلبث أن أصبح في عداد المؤلفات الكلاسيكية . وإن كان قارى هذه السير يشعر بين الحين والآخر بمحاولة متعمدة لتأكيد الفوارق بين أخلاق اليونانيين والرومانيين وطرائق حياتهم ، فإن أهمية هذا الكتاب تكمن في أن يونانيا قد تسكرم بالاعتراف بأن في وسع الرومان — قوادا أو ساسة أو خطباء — أن يقفوا على قدم المساواة مع اليونانيين ، وأن الـأمتين قد اشتريكتا معا في حمل مشعل الحياة المتمدنة . أما لوكيان Lucian ، فهو سورى من الشمال يحتمل أنه كان أبيقوريا ، وكان ناقدآساخرا يكره الخداع ، ترك لنا بعض المحاورات الطريفة والمفارقات التاريخية وحكايات سفر وترحال بارعة (تقارب في طريقة عرضها أسلوب سويقت الإنجليزى) وبعض المؤلفات الجادة مثل « السفينة والإسكندر أو النبي الكذاب » الذى يروى فيه قصة حياة الإسكندر من فورت أبونى وألوان خداعه المذهلة ، وكيف أنه استطاع بإطلته العرافة جليكو التى كانت على شكل حية ، وبطقوسها المعقدة التى تثير الروع ، أن يخدع لا أهل الولايات لحسب بل الحكام الرومانيين أنفسهم . وظهر قرابة هذا الوقت يونانى آسيوى آخر يدعى آريان Arrian كان يحلوه أن يصور نفسه بصورة اكسينوفون Xenophon الجندى والمؤرخ والفيلسوف القديم ، وقد ألف آريان أعظم رواية كاملة آلت إلينا عن فتوحات الإسكندر الأكبر (وهى رواية Anabasis Alexandri الشهيرة) بالإضافة إلى وصف رائع لتعاليم ومبادئ الفيلسوف والعبد المعتقد أبىكتيتوس (انظر الفصل الخامس) الذى كان قد استمع إلى محاضراته . كما خلف لنا أيضا عددا كبيرا من المؤلفات القصيرة عن الأساليب الحربية للفرسان وعن الصيد وعن جولات التفتيش ، إلى غير ذلك من الموضوعات . كما ترك لنا أديب يدعى لونجينوس Longinus قطعة شهيرة في النقد الأدبى فى بحث قصير عنوانه « عن سمو الأسلوب » وهى تكشف عن

إحاطته الواسعة بالأدب اليونانى ، كما تضم — لعظيم دهشنا — نصاً مقتبساً عن أسفار موسى الخمسة ، وتسلم أيضاً بدقة أحكامها ومحو ألفاظها ومعانيها . ولكن إذا ما انتهينا من تعدد هذه الأسماء — وهى ليست بقليلة — فيجب أن نقرر أننا لا نجد أمامنا سوى الكتب الدراسية العلمية التى تتناول مختلف الموضوعات مثل أصول الطبى وتفسير الأحلام والفروسيه وصيد الأسماك ، غير أن الجانب الأعظم من هذه الكتب الدراسية خصص للبلاغة وفنون تدريسها .

أما عن الجانب الرومانى ، فقد بلغ الأدب فى عهد أوغسطس ذروة ازدهاره وجمده ، فكان هناك فرجيل وهوراس وأوفيد فى الشعر ، وكان هناك لىنى بملحمته الثرية عن تاريخ الشعب الرومانى . أما عن الشعر فقد أخذت تخدم جذوته شيئاً فشيئاً إلى أن انتهت بملحمة لوكان Lucan البلاغية عن « الحرب الأهلية » وبالملاحم والمنظومات القصيرة لكل من سيليوس إيتاليكوس Silius Italicus و فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus وستاتيوس Statius . وبعد ذلك حل شتاء قارس جدت فيه — فيما يبدو — الروح المبدعة الخلاقة . أما عن النثر ، فقد كان لسينيكا الأصغر الذى كان فيلسوفاً ومصلحاً خلقياً و كاتباً للرسائل الأدبية ، أن يحمل مشعل التقاليد الإنسانية فى الأدب الرومانى ، كما تحدث بلىنى فى موسوعته الهائلة عن « التاريخ الطبيعى » عن كل ما تحت الشمس تقريباً (وبعض ما لم يكن له وجود قط) وقدم لنا بذلك كنزاً من المعلومات الغريبة ، أما كوينتيليان Quintilian فهو يشرح لنا مدى ما ينبغى أن يلم به الخطيب — فى اعتقاده — من علم وخبرة واسعتين عميقتين ، فيقول إن العبرة ليست بالإحاطة بأسرار صناعة البلاغة ، بل إن العبرة بشخص الخطيب نفسه الذى ينبغى أن يكون ذا شخصية قوية وثقافة عميقة . وما إن يحل القرن الثانى حتى نجد أنفسنا حيال المؤرخ العملاق تاسيتوس Tacitus الذى يأخذ مكانه بين أئمة الأدباء والمؤرخين ، لنشاطه ودأبه وإدراكه العميق

للدوافع السياسية والإنسانية ، ولأسلوبه الطلى الوقور الذى يزدان بموهبة خارقة فى استخلاص العبرة وصوغها فى عبارة قصيرة تجرى مجرى المثل . أما صديقه بلينى الصغير فقد خلف مجموعة من الرسائل الموجهة إلى مختلف معارفه ، تشمل مجلدا يتضمن الخطابات التى تبودلت بينه عندما كان واليا على بيثينيا وبين الإمبراطور تراجان ، يحوى خطاب من بينها ، ما رواه بلينى عما فعله عندما قدم إليه بعض المسيحيين للدحاكمة (انظر الفصل الثامن) ويبرز من بين الكتاب الصغار كورتوس كورتوس Q. Curtius الذى وضع تاريخا لفتوحات الإسكندر الأكبر ، وسيوتونيوس Suetonius وقد كتب أيضا لسير الأباطرة الرومانيين يبدأ من يوليوس قيصر وينتهى بدوميشيان ، وقد لا يعد سويتونيوس من بين المؤرخين الكبار ، غير أنه حفظ لنا بالفعل معلومات ووثائق على شيء غير قليل من الأهمية ، فلقد بسر لنا أن نقرأ عن الاحتياطات التى اتخذها أوغسطس ضد الصواعق وعن طباع تيريوس الذى كان عصييا ممتنما ، وأن نطلع على خطابات أوغسطس الخاصة إلى زوجته ، وإلى حفيده ، وإلى تيريوس ، وهى على أية حال معلومات طريفة إن لم تكن عظيمة الخطر .

غير أنه لا يبقى بعد هذا الكاتب الذى يعد من كتاب الدرجة الثانية ، وبعد ذكر الناقد الساخر جوفينال Juvenal إلا نفر قليل ، كانت هناك بعض المؤلفات الغلبية القليلة ، إذ كان المحامون والعلماء اللغويون ما زالوا دائبين على حمل رسالتهم ، ولكننا لا نجد أنزا بعد ذلك لآى عمل مبدع فى الشعر أو النثر . لقد حلت برودة الشتاء بهذا الميدان أيضا . والواقع كما يخيل لنا أنه عندما انقضى القرن الثانى وتلاه القرن الثالث أى عندما حل الاضطراب والقلق محل الهدوء والاستقرار الكاذبين اللذين اتسم بهما عصر اتونينوس ، فإنه لم يعد هناك الكثير من الناس ممن كانوا فى حالة تسمح لهم بالإقبال على الأدب الجاد ، فقد كان العصر عصر ضنك وشدة ، ومن ثم كان الإقبال على قصص السير

والمعارف الشعبية والعلوم الغربية وفلسفة السير ، وكان الحرب من الواقع إلى القصص الخيالية الرومانسية ذات النهايات السعيدة . ومن هنا ظهرت الرواية اليونانية ، التي كانت طليعة نوع أدبي عظيم ، صاغه وشكله مؤلفون روائيون مثل خاريتون Chariton وهليودوروس Heliodorus وأخيليس تانيوس Achilles Tatius ولونجوس Longus وإيامبليخوس Iamblichus . وكان موضوعها ذلك الموضوع الذي كان مألوفاً على مر العصور والأزمنة ، ولكنه لم يبلغ قط رغم طول عهده درجة من الابتذال تفقده قوة الإثارة إذا ما عولج معالجة صحيحة ، ألا وهو اللقاء الأول بين الحبيبين ثم الانفصال ثم الوصال السعيد في النهاية . كان هذا هو الخيط الرئيسى في الرواية ، غير أنه كان ينقطع بين حين وآخر بالمغامرات والأسفار والويلات التي يبتلى بها البطل في البر والبحر بين القراصنة والبرابرة المتوحشين القساة ، وتتخلله فقرات تصف مشاهد دموية ، وتردد فيه محاولات الأميرات الحاققات والساحرات الفاتئات للإيقاع بالبطل وثنيه عن حبه الصادق ، بيد أنه مهما ادلهمت الخطوب وعظمت الأخطار تخرج البطة سالمة ، وكيفما كانت ألوان الإغراء التي يتعرض لها البطل ، فهو دائماً المحب المخلص الوفي . وقد يرى الكاتب أن تجرى وقائع قصته — درءاً للبلل — بين مشاهد الخضرة والماء ، والغابات والينابيع والأغنام والماشية والقرودين الودعاء السذج ، إلى آخر ما يتصور ساكن المدينة المتحذلق أنه واجده في الريف . ولقيت هذه الروايات ، رغم بجافاتها للواقع — وربما لهذا السبب ذاته — ذيوها كبيراً ، وهيأت متنفساً مؤقتاً لكثير من الأنفس الموزعة الحائرة .

بيد أن الأدب لم يوجد في الأصل إلا للبلين بالقراءة والكتابة . فبالناس بمن لا يستطيعون أو لا يريدون القراءة ؟ كانت أمام الجماهير التي تعيش في المدن الكبيرة أو حواضر الولايات المتوسطة ، الفرصة لأن يشاهدوا في كثير من المناسبات عرضاً للوحوش الكاسرة أو سباقاً للعربات الحربية أو مباريات

للمصارعين . قد يعترض دعاة الأخلاق عليها فيكتب سينيكاً غاضباً وهو يقول :
 « إن الإنسان الذي يجب أن تكون له قدسيته لدى أخيه الإنسان ، نراه يقتل
 للهو والتسلية . » ووصفهم آخر بقوله : « إن هؤلاء الذين يقاتلون الوحوش يبدون
 وكأن لحومهم قد نهشت من قبل ، مثل أكوام من الجراح والأتربة والدماء ،
 فيذهب بهم الأمر إلى أن يلتمسوا منحهم الحياة حتى اليوم التالي ، رغم علمهم
 بأنهم سيلقون مرة أخرى إلى الأنياب والمخالب ذاتها . » بيد أن سخرأ شنيعاً
 كان يحيط هذه الرياضة ، حتى أن مثل هذه المباريات الدموية المثيرة استمرت
 عدة قرون ، رغم أصوات الاحتجاج التي كانت تعلو بين الحين والحين ، وانتهى
 الأمر بأن ألقى أحد الرهبان المسيحيين بنفسه بين أنياب الوحوش الضارية
 كي يضع حداً للقتال ، وبذلك أفاقت مشاعر الجماهير والأباطرة إلى ضرورة
 وقفها . وذهب الأمر إلى أن أصبحت للبدن اليونانية والآسيوية مباريات
 للمصارعين تقيمها بنفسها ، وكانت مثل هذه المباريات تجدد من يظاهرها من
 الأدباء الذين كانوا يستخلصون منها آراء مطروقةً مبتذلة تقول بأنها تقدم
 أمثلة على الرجولة والشجاعة والجسارة . بيد أن مدينة واحدة كان لها شرف
 الخروج على هذه القاعدة هي أثينا ، فعندما عرض البعض لإدخال مباريات
 المصارعين ، تدخل الفيلسوف ديموناكس Demonax فقال : « عليكم أولاً
 — وهذا أضعف الإيمان — أن تزيلوا المعبد المقام لإلهة الرأفة ، وكان بوسع
 الأباطرة والحكام والأثرياء من الموظفين أن يخطبوا ود الجماهير بإقامة مثل هذه
 المباريات ، حتى إن نهم الدماء لها ازداد بازدياد ما يعرض عليهم ، وعندما
 قرر ماركوس أوريليوس تخفيض العدد القانوني للمصارعين لقي الأمتنان
 والشكر ، لا لسبب إلا لأنه تخفف العبء عن خزائن الأغنياء !

غير أن هذه المباريات لم تكن تقام بكثرة ، ولذا فقد كانت هناك
 المسرحيات والتمثيليات الإيمائية . وكانت المسارح تقام في شتى أنحاء ولايات
 الإمبراطورية ، الشرقية والغربية ، بل كان لأقل المناطق مساحة مثل

« براو — أون — همبر » Brough-on-Humber (بالقرب من هل Hull بإنجلترا) مسرح خاص بها . وكانت هناك أيضا الفرق المتجولة من الممثلين الذين كانوا يقومون باستعراضاتهم في مراكز عدة ، وجماعات الممثلين المتنقلين ، وكانت تضم رجالا ونساء يقمن بالغناء والتمثيل والرقص في حفلات تشبه حفلات « مسارح المتنوعات » المعروفة . وكان المصلحون الأخلاقيون ينددون أشد التنديد بهذه المقطوعات الإيمائية ، كما كان الموظفون العموميون ينددون « بالأفلام » ، بيد أنه لم يقم ثمة دليل على أن هذه المقطوعات كانت مخلة بالآداب أو ضارة بشكل سافر . وتدل بعض النقوش التذكارية على أن هؤلاء الممثلين ، شأنهم شأن غيرهم من المسامرين والفنانين ، كانوا ينشدون مقطوعاتهم ويؤدون أدوارهم ، ويدخلون السرور على النفوس البشرية ، ويتيحون للرجال والنساء الفرصة لأن يتناسوا لحظات من الزمن ، أعباءهم وهوهمهم . ذلك لأن الاستعراضات والمهرجانات والمسابقات ليست بلسمًا شافيا للأعباء والهموم لحسب ، بل لمشاعر السخط أيضا ، ولا غرو فقد حرص الحكماء من الأباطرة على أن ينشئوا المهرجانات والمباريات في المدن ، لأنهم كانوا يدركون تماما ما للأعياد والمهرجانات وألوان الترفيه من عميق الأثر في نفوس البشر .

ومن بين ضروب الاستعراضات أيضا تلك المحاضرات التي كان يلقيها الأساتذة المتجولون ، وكان هؤلاء ممن يذيع صيتهم لبلاغتهم وسعة علمهم ، فيقومون بزيارة المدن ، وهي عادة ما تكون مبن اليونانيين العريقة في آسيا الصغرى ، حيث يؤدون أدوارهم . ومن مشاهير هؤلاء المحاضرين ، اثنان هما ديو Dio (من بروسيا) المدعو « فم الذهب » الذي عاش في أواخر القرن الأول ، وبداية القرن الثاني ، وأرستيديس Aristides (من أزمير Smyrna) وقد عاش في النصف الأخير من القرن الثاني . وكان يستمع إلى هؤلاء نظرا لذلاقة لسانهم

اليوناني وإبداعهم في إضفاء الرونق والجدّة على الموضوعات المطروقة المبتذلة ، ونظرا لاختيارهم للناسبات الاجتماعية الهامة لإلقاء محاضراتهم — جمهور كبير من المعجبين المتحمسين في مدن مثل أثينا أو رودس أو أزمير أو برجاموس ، ممن كانوا يصتتون بأذان واعية مدققة وإن كان هذا لا يمنع أنهم كانوا يستمتعون بها ويتذوقونها في شعور لا يختلف عن شعور رواد الحفلات الموسيقية عند ترحيبهم بعازف منفرد للبيانة أو عزف رباعي . لقد كانت هذه ألعابا نارية ، ولكنها كانت ألعابا نارية سامية مهيبة .

وبالإضافة إلى ذلك ، كانت أمام أهل المدن ، ضروب أخرى للهناء . عند عمدة الأباطرة الرومانيون على توالى عهدهم إلى تزيين روما ، حاضرة الإمبراطورية ومقر الملك طوال قرون ثلاثة ، بحمامات هائلة رائعة ، ولم يكن يوسع المواطنون في مثل هذه المباني التي كانت تشبه الكاتدرائيات في سعتها وضخامتها ، أن يغتسلوا لحسب ، بل كانت هناك الحجرات الملحقة الأخرى والقاعات الكبيرة والمدرجات الفسيحة حيث يمكنهم الاستماع إلى المحاضرات أو المقامرة أو النقاش ، أو لمجرد قضاء سحابة اليوم . وكانت للندن الصغيرة بالولايات حمامات أيضا ، هي في العادة منحة من مواطن كريم ، وقد تصل هذه إلى ما كانت عليه الحمامات التي ينشئها الأباطرة من أبهة وعظمة ، كما قد لا تعدو في مظهرها الحمامات البسيطة المتواضعة . وكانت تقام فوق المبنى الرئيسي لهذه الحمامات ، مساكن للإيجار ، بيد أن الإقامة بها لم تكن تخلو من عيوب ، فإن الساكن الذي يروم الهدوء ليتفرغ لدراسة لا بد أن تقلقه أصوات المياه المتطيرة والهمهمة والصفير الصادرين عن المستحمين في الطابق الأرضي ، وربما أزعجته أكثر من ذلك ، الظاهرة المألوفة في « غناء المستحم في الحمام » .

أما الريف ، فقد كانت تنتشر فيه دائما رياضة الريف : السباحة والاستحمام والصيد (وخاصة صيد الخنازير البرية والذئاب) وصيد الصقر

والأسماء ، وكانت رياضة الصيد من الهوايات المستحبة لدى الأجناس
السلتية في شمال إيطاليا وأسبانيا وبلاد الغال وبريطانيا ، وما زالت بين أيدينا
وصية أحد النبلاء الغاليين يرجو فيها أن تحرق مع جثته كل أدوات الصيد
التي كان يستعملها مثل الحرايب والسيوف والسكاكين والشباك والفخاخ . وعلى
الرغم من قسوة حياة الفلاح ، فإن هذه الدورة الشاقة الطويلة من حفر وعزق
وحرث وبذر وحصد ودرس وتسوير وحفر خنادق ، كانت تقطعها من وقت
لآخر الأعياد الموسمية والأسواق الريفية العظيمة في أماكنها التقليدية .
وكانت هذه الأسواق تضم في أيام الأعياد تجار الخيول والبائعين الجائلين الذين
يعرضون الآواني والأوعية والماساحل والفؤوس وطرادات المحاريت ، كما تضم
أطباء العيون وهم يصيحبون معلنين عن عقاقيرهم ومراهمهم المحضرة (ولا
نذكر كيف عرف صندوق من هذه الصناديق طريقه إلى جولدن في كوتشي
تيباري County Tipperary) كما كان يوجد أيضا الأراجوز بهرائسه ،
والعرافين ومفسرو الأحلام ، وبمختلف طوائف اللاعبين والمهرجين من راقصين
وحواة وبهلوانات يشنون على الحبال (ومن الغريب أن أحدهم قد منح حقوق
المواطنة في دنلي) وفي ذلك المكان أيضا نجد الزحام والضجة والضوضاء والخلق
الكثير والمتعة المعهودة في الأسواق . وعند ما تنتهي الأسواق العظيمة تبدأ
كل منطقة بإقامة ملاعبها ومهرجاناتها ، فتكون هناك السباحة والملاكمة والقفز
ورمي الرمح والمصارعة Corporaque agresti nudant praedura palaestras ، (١)
وتحتتم كل هذه الألعاب بالرقص والفكاهة ، حين تهتز الأرض لوقع أقدام
الشباب . .

ويجدد بنا أن لا ننسى ونحن بصدد حصر ألوان التسلية والملاهي الشعبية ،
حياة الأسرة . تكشف لنا المحاورات والكتيب المدرسية عن جانب لا بأس

(١) « عندما تمرى الأبدان القوية الصلبة للمصارعة الريفية » .

به من الحياة اليومية لدى الطبقات المترفة في المجتمع ، وتختلط هنا مآثرات كراسات النسخ مع أحاديث الطلبة مع إرشادات الصغار حول الاستيقاظ في الصباح والذهاب إلى المدرسة والقيام بالواجبات اليومية وتناول الطعام . يقول أحد الأشخاص : « سأذهب اليوم للغداء مع عضو في مجلس الشيوخ سليل آينياس Aeneas ورومولوس Romulus » ، ويصف آخر كيف أن أخاه قد تورط في شجار وقع في الحمامات « ويأسف من عدم قدرته على المجيء » . ويبدأ الصبي يومه على هذا النحو : « لبست حذاءي وطلبت ماء لوجهي ثم غسلت يداي أولاً ثم وجهي وجففته » ، ثم ارتديت ميدعة نظيفة وذهبت مع معلمي يقول : « صباح الخير ، لأبي وأمي » . ويتناول الصبي غذاء بسيطاً يتكون من الخبز الأبيض والزيتون والجبن والتين والبندق ولا يشرب غير الماء القراح .

وقد يخرج الكبار للتريض في المساء ، فيلعبون الكرة (وهي تشبه اللعبة الخامسة ، الإنجليزية) التي أوصى بها غالين بوجه خاص منوها بفوائدها الصحية ، أو يتناظرون (وكانت المناظرة تعد نوعاً من الرياضة) أو يتصارعون . فيقول أحدهم : « هيا بنا إلى جولة » فيرد الآخر بقوله : « الواقع أني لا أعرف كيف أمارسها ، أعفني منها بربك » ، فإني قد تركت المصارعة منذ زمن طويل . ولكنني مع ذلك سأحاول وربما استطعت . . . إن التعب يحل بي سريعاً . دعنا نمرخ أنفسنا بالزيت » . وبعد الرياضة تقام المآدب بالطبع ، وكانت هذه في بعض الأحيان تصل إلى درجة الولائم المفرقة في الإسراف والشراسة ولو أن معظم هذه الولائم ما لبثت أن اختفت بعد موت نيرون . ولكن الغالب أنها كانت مآدب طيبة ، قد تبلغ في بعض الأحيان حد البساطة المتناهية ، فتتألف من الخضروات والمشهيات والجبن والفاكهة ، وتتخللها المناقشات العلمية الشفهية ، وقد تسمو وتعظم ، فتحوى أصنافاً متعددة يتم تناولها الصنف بعد الآخر ، علاوة على مجموعة مختلفة من الخنور . أما عن أنواع الصحاف المختلفة فيمكن أن نلم بها من كتاب الطمسي لأبيكيوس Apicius الذي يكشف

عن كثير من الأطعمة التي كانت — أغلب الظن — شبيهة طيبة المذاق ، وإن كان بعضها يبدو غريبا ، وقلة منها جدد منفرة (تبدو أوفق لقزبان ساحرة ، منها لمائدة طعام) . ولكنه يبدو من خطابات بليني وفرونتو Fronto أن البساطة والدماثة كان لهما في أوساط المجتمع المتمدنين وبين المثقفين الاعتبار الأول ، ولكنه لا يخفى أن هذه البساطة كانت فيما يظهر متكلفة مصطنعة . وكان بوسع الأثرياء والمترفين ومن كان لديهم الفراغ الكافي للتفكير والتدبر في ما كلهم ، أن يخرجوا للرياضة قبل الأكل ويتغذون بالخبز الأبيض الرقيق مع الدجاج أو طيور الصيد (التي يوصى بها غالين) . ولكن على الرغم من وفرة واختلاف أنواع الأسماك واللحوم والخضروات والفواكه والجوز ، فإن للأكولين من أبناء العصر الحديث أن يتذكروا أن السكر والمواخ والبطاطس والطماطم والبن والشاي ، لم يكن لها وجود على الإطلاق ، وأن الزبد لم يكن يستعمل أصلا إلا لدى البرابرة ، وإن كان يدخل في التذكريات الطبية ، على حين أن القاري الإنجليزي قد لا يتصور كيف كان يعيش الساسة الرومانيون دون طباق أو نبيذ أو د براندى ، .

بقيت نقطة أخرى سنذكرها في إيجاز ، وهي حب الرومانيين للحدائق والأزهار . ففي قلب المدينة نفسها كان الفقراء من السكان ، ممن لا يملكون أرضا خاصة بهم ، يعرضون الورود والزهور البهيجة في أصص بنوافذهم . كما كان في وسع أهل الريف أن يزرعوا مخصصاتهم من الأراضي بالأزهار والبنفسج والزعفران والسوسن ، ويجب أن يتم هذا كله في شهر فبراير كما يشير العارفون . وكان يراعى في تخطيط هذه الحدائق قواعد معروفة لم تعدها عين الرائي الإنجليزي ، إذ كانت الخضرة والتخيل تختلف مع الأزهار والشجيرات في نسق بدیع رائع ، وكانت توجد في الغالب الممرات الممهدة ، وأحواض الزهور والتماثيل والنافورات ، وربما وجد معبد صغير ، أما حدائق

الآثرياء فكانت تشبه تلك الحدائق الرسمية العظيمة التي عرفها القرنان السابع عشر والثامن عشر .

إلى هنا لم نذكر شيئاً عما نسميه عادة بالفن ، أى فن التصوير والنحت والرسم الزيتي والتشكيل والحفر . والحقيقة أنه رغم أن زمن الخلق والإبداع ذهب وولى ، فقد بقي هناك بعض الصانع من تبوءوا مكانة مرموقة وظهر أثرهم في روح العصر . وحسبنا أن نلقى نظرة واحدة إلى الجواهر وقطع النقود التي سكنت في القرنين الأول والثاني حتى عهد ماركوس أوريليوس لتتأكد من أنه كان في مقدور فناني العصر أن يعبروا عن ذواتهم تعبيراً سليماً ، في مجال قوة الخطوط وجمال الشكل . كان في وسع الأباطرة مثل نبرون وهادريان أن يطلبوا حاجتهم من مشاهير الفنانين المبدعين ، أما الآثرياء غير المثقفين ممن كانوا يرغبون في تزيين دورهم وقصورهم ، بالرخام ، ونسخ من التماثيل الشهيرة فكانوا يجدون حاجتهم لدى نساخين أكفاء مقسطين ، وكانت هناك مصانع في عدة مراكز مثل أثينا ، تقوم بمهمة صنع مثل هذه النسخ وتوريدها . وتشهد اللوحات البارزة والصور المحفورة التي تنسب إلى المراكز الفنية في شمال الغال ونيوماجن ، والتي كانت تصور مختلف مشاهد الحياة اليومية في الإقليم ، مثل مرور الصنادل البحرية في مجارى الأنهار العظيمة أو عودة التجار من المدينة على صهوات جيادهم إلى قصورهم الريفية أو جانب من الحياة المدرسية أو عمال يفلحون الأرض أو سائس يخرج بجواده للتريض أو مستأجر يدفع الإيجار ، تشهد على ما كان في الإمكان القيام به من أعمال قوية معبرة حتى ذلك العصر . وكان في وسع أصحاب الأراضي الآثرياء في مقاطعة نائية مثل مقاطعة بريطانيا الرومانية ، أن ينفقوا ثمن الأعمال الفنية الكبيرة ، ولو أنه من غير المقطوع به أن هذه الأعمال كانت من صنع الفنانين المحليين . وتعرض لنا أرضية مرصعة بالفسيفساء وجدت في هوركستو Horkstow بلنكولنشير Lincolnshire ،

صورة مثيرة لسباق العربات الخيرية ، تندفع فيه العربات بسرعة قصوى ، ويستحث فيه الراكون المتحمسون جيادهم بينما نرى إحدى العربات قد انفصلت مجلتها وأوشك قائدها على السقوط من فوقها ، وتصور أرضية أخرى عثر عليها مؤخرا في لو هام Low Ham بسمرست Somerset سلسلة كاملة من المشاهد التي تصور وقائع إنياذة فرجيل ، في الجزء الخاص بقصة حب ديدو وآينياس . وتدل شواهد القبور أيضا وبعض أجزاء التماثيل التي عثر عليها في بريطانيا ودالماسيا وداكيا على أنه كان بوسع الفنانين المحليين والوطنيين أن يبنوا في التماذج التقليدية نفسها واقعية بشعة وطابعا خيفاً . غير أن غزوات البرابرة في القرن الثالث أدت إلى أضرار كبيرة ، وبحلول القرن الرابع انخفض عدد الصانع المهرة المدربين ، ولهذا لم يكن د قوس قسطنطين ، في روما عملا جديدا كله ، لأن كثيرا من لوحاته البارزة قد أخذت من آثار قديمة .

بيد أنه يجدر بنا قبل أن نترك الحديث عن موضوع الصور الزيتية واللوحات البارزة وفنون النحت وبخاصة تلك التي تتعلق منها بتصوير المشاهد الأسطورية أو الخرافية ، أن نلفت نظر القارئ إلى أن الجانب الأعظم منها يدخل في العصر الحديث في عداد الصور الخيلية أو المخلة بالآداب . ويتعذر الآن عرض الجانب الأكبر من الموحات الزيتية والرسوم التي عثر عليها في بومبي Pompeii (على سبيل المثال) ، على الجمهور للسبب ذاته ، بيد أن سكان الإمبراطورية الرومانية كانوا قد نشأوا بينها وألفوها ، ولذا يجاهر أحد الشبان المحبين في إحدى المسرحيات الكوميدية بقوله : « إذا كان جوبتر قد فعل ، فلماذا لا أفعل أنا ؟ » ، وكان من حق أهل الرأي والعلماء آنذاك أن يتفخروا بأنهم لم يسمحوا بدخول هذا الصنف من الصور إلى بيوتهم ، ولكنه يجب أن نضع نصب أعيننا الحقيقة المائلة في أن هذه الصور والتماثيل كانت ذاتة ذيوجا متقطع النظر ، وذلك إن كنا نريد أن نرسم في أذهاننا صورة صحيحة لحضارة العالم القديم .

وإن كنا نريد أن ندرك تماما مدى غيرة المسيحيين واستماتتهم في مناهضتها .

أما عن الفنون من الدرجة الثانية ، فقد تغبط الأسر الثرية نفسها على امتلاك أطقم الموائد الفضية والتماثيل الصغيرة التي كانت في الغالب بديعة النقش دقيقة الصنع ، تمثل الآلهة والآلهات والجنود والملاكين ، والجياذ والفرسان . وايقنع من لا يرتقوا إلى مثل هذه الدرجة من الثراء بالزهريات والأواني الفخارية التي تصور هيئات دقيقة مضحكة لسكان المستعمرات والأعيان مثل تلك التي وجدت في كولشستر Colchester أو لوحات النذور ، على حين أن في وسعهم شراء المناظر التي تتفق وأذواقهم والتي تزدان بها الزهريات الكبيرة الأعظم زينة ، فأمامهم مشاهد الصيد والقنص وأمامهم صور المصارعين والمجادلين (وهي أصلح المناظر دون شك لقاعات طعام الجنود أو دور النبلاء بالريف) والمشاهد المسخوذة عن الأساطير وقصص الأسفار والرحلات . وقد يعود المريض بعد شفائه برسم يصور قدرة المياه المعدنية على الشفاء ، كالميدالية الذهبية الرشيقة التي عثر عايتها في أسبانيا والتي كتبت عليها عبارة تقول « أوميرى من أجل الصحة » وتصور مريضا في مراحل علاجه المختلفة . وكان على الأسر الفقيرة أن تقنع بالأواني الفخارية غير المصقوفة ، وبما يذكر أن أرق الناس حالا كان يستخدم في القرن الثاني الأواني الزجاجية التي أصبحت زهيدة الثمن . إذ يقول أيباخوس في دفاعه عن نفسه أمام المحكمة : « إن الأواني التي تستعملها مصنوعة من الزجاج ، لأننا أسرة فقيرة تعيش في أحد الأكوخ » . وكان بكل ولاية من الولايات المحال والأفران الخاصة بصناعة الأواني الفخارية ، وكانت هذه تسد حاجة الاستهلاك المحلي ، غير أنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تؤدي جودة المنتجات إلى تصديرها للأسواق الخارجية ، وهكذا نجد أنه على الرغم من أن فخار بلاد الغال استأثر بكثير من الأسواق خلال القرن الأول إلا أن فخار مصانع رينلاند Rhineland ما لبث أن طغى عليه ، بل إن المصانع

البريطانية (في كاستر بالقرب من بيتربوره Peterborough على سبيل المثال) كانت تنقل منتجاتها في بعض الأحيان إلى ما وراء بحر المانش .

وإذا ما استعرض المرء ميداني الأدب والفن خلال القرون الثلاثة من عمر الإمبراطورية ، فإنه لا بد وأن يشعر بشعور لا يلبث أن يزداد رسوخا وعمقا ، بأن قوة الإبداع والخلق لا تبتم أن تتواري ويأفل نجمها بانقضاء عهد هادريان أو قريبا بعد منتصف القرن الثاني . فينعدم أثر الكتاب البارزين والفنانين الكبار ، وإن ما نجده لا يخرج عن كتاب متمرسين يخرجون السير التاريخية أو المؤلفون الروايات الخيالية أو يضعون الكتب العلمية الفقمية أو الدراسات الأثرية واللغوية . وقد يدل ذلك على ذبوع الثقافة بدرجة ما ، وعلى زيادة عدد المدين بالقراءة والكتابة ، بيد أنه لا يدل على عصر أصيل الإنتاج . كان في وسع الأباطرة وكبار موظفي الحكومة والأثرياء ، دون شك ، أن ينقدوا أمهر الصناع ، أما سائر الخلق فهم قانعون بالنسخ الملساء الناعمة للروائع الفنية المعروفة ، وإن لم يكن قباليدي والعرائس ، أما في الولايات القصية فقد كان في وسع الفنانين المحليين والوطنيين الذين لم يكونوا مقيدين — بدرجة كبيرة — بالقواعد والأسس التقليدية أن يصوغوا أعمالا فنية تتماز بالقوة وروعة التصميم وقد حققوا ذلك بالفعل . ولم تكن ازلمات القرن الثالث وتقلباته قد ولدت بعد ذلك الأسلوب الجديد في النحت والهندسة المعمارية الذي قدر ليزنطة أن تبلغ به غاية ازدهاره . وما تأتى بالفعل هو توفر مستوى عال من الكفاءة الفنية ، فقد أخذ الفنانون والصناع الذين تدرّبوا على التقاليد الدقيقة السليمة في الانتشار التدريجي في مختلف الولايات . بيد أن ذلك ليس بما يعيب هذا العصر ، ففترات النشاط الجارف الأصيل الخلاّق نادرة عرضية في التاريخ . وتتخلل هذه الفترات ، حقب يبدو فيها الفن وكأنه قد حط رحاله وقعد عن التقدم ، ولكنه لا يكون في الواقع إلا في فترة يستجمع فيها قواه وخبراته تأهباً للمستقبل . ويبدو أن مثل هذه الحقبة من السكون والهجوم

فقد حلت بالإمبراطورية آنذاك « بيد أنها لم تكن بحال فترة تخلف وتدهور .
 لم يكن هناك فقر في الرجال الأكفاء المتمرسين في البداية ، بل كان الفقر في
 الأفكار التي من شأنها أن تلهمهم وتثير أخیلتهم . لقد بدا كما لو أنه ليس في
 الإمكان أحسن مما كان ، وإن لا جديد تحت الشمس . بيد أن ثمة طائفة من
 الناس كان لديها هذا الجديد ، وهو الفكرة الموحية الخلاقة ، ألا وهم المسيحيون .
 ولكن نظرا لأنهم كانوا موضع شك وريبة ، وكانوا غير محيطين في البداية
 لإحاطة وافية بالأدب القديم ، فإن من كان قادراً منهم على الكتابة شغل في
 الغالب بإنتاج أدب التسويغ والتبرير وتدبيج الكتيبات في الدفاع عن العقيدة .
 ولكن يندر أن يأتي الدفاع عن صحة العقيدة والدين بأدب عظيم ، ولا تستثنى
 من هذه القاعدة تلك الكتيبات الأولى في الدفاع عن الدين المسيحي . ولعل
 عالم الإمبراطورية الرومانية قد بالغ في تقديره لمكانته الذاتية وفي الركون إلى
 السكينة والدعة والأخذ بأسباب التمتع في تكامل واسترخاء ، بأشعة الشمس
 الغاذية التي سبق أن أشرقت على القرنين الأول والثاني . ولعله كان في حاجة
 إلى وطأة الغزو وإلى الشعور بخاطر محدق لكي تنحفز شعوبه إلى العمل الخلاق .
 وعلى أية حال فإن دلائل النشاط الحيوي في الأدب والفن لم تظهر إلا بعد
 عام ٢٢٠ مباشرة ، حينما كان ظاهر الأمور يبدو معتماً حالكا .

الفصل السابع ثروة الامبراطورية التجارة والأسفار

ورغم ما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية من اتساع وامتداد ، فلم تكن أى من ولاياتها تكاد تتمتع بالاكتماء الذاتى ، أما عن بعض السلع المعينة ، مثل الأحجار الكريمة والتوابل والعقاقير والحريز ، فكان اعتمادها فيها على الشرق الأقصى على حين أنها كانت فى الغالب تستمد حاجتها من الرقيق والجلود من البرابرة الشماليين . بيد أنه كان فى وسع أى إقليم من الأقاليم أن يوفر لنفسه بوجه عام المواد الغذائية الضرورية كالقمح والخضروات والدهون واللحوم والزيت والنييذ والفساكة التى تعتبر غذاء مألوفاً لسكان منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وفى استطاعة المال أن يأتى دائماً بالأطياب النائية التى يتوق إليها الأكلون ، من تين وبلح من سورية ، وسمك التونة من البحر الأسود والسجق ولحم الخنزير من كل من الغال وأسبانيا ، والمحار من بريطانيا . ورغم ذلك ، فالأمر متوقف إلى حد بعيد على المحصول السنوى ، وشيخ المجاعة لا يزال البلاد قط (انظر الفصل الرابع) ، وهى التى يترتب عليها — بغض النظر عن أى شىء آخر — ارتفاع الأسعار ، ولو أنه بوسع الحاكم المتيقظ فى هذه الحالة أن يتدخل فى سبيل الصالح العام بفرضه رقابة مؤقتة . فى آسيا الصغرى قرابة عام ٩٣ عندما علم أنتستىوس رستىكوس Antistius Rusticus حاكم الولاية من المجلس البلدى ، لا نتيوخ بالقرب من بسيديا Antioch-by-Pisidia بأن أسعار القمح ارتفعت نتيجة لقلة المحصول

وما ترتب على ذلك من التعجيل بتخزينه ، أسرع بإصدار مرسوم يقضى بأن يقدم كل فرد من السكان بياناً في خلال ثلاثين يوماً إلى الموظفين العموميين بكمية القمح التي في حوزته ومكان تخزينها ، على أن يسمح له بأن يجتزى من هذه الكمية القدر الكافي للبذر ولسد حاجته الخاصة ، أما الباقي فيجب أن يعرض للبيع بالأسعار الجبرية ، وقضى المرسوم بأن حرية الأسعار لن تعود حتى أول شهر أغسطس ، وهو التاريخ الذي يمكن فيه بالطبع معرفة نتيجة محصول السنة الجارية . ونص المرسوم على العقوبات التي توقع في كل حالة من الحالات ، واختتم بالفقرة التالية : « ولما كنت قد أبلغت بأن أسعار القمح كانت قبل هذا الشتاء الطويل القاسي هي ٨ و ٩ آسات *asses* للكيل *modius* ، ولما كان من غير الإنصاف في شيء أن يجتني مواطن ربحاً يكون من شأنه تجويع إخوانه المواطنين ، فإنني أحرم زيادة سعر القمح عن سيسترتيوس *sestertius* واحد للكيل ، ومن إلمات الميزة الهامة لهذا المرسوم تلك الدعوة الظاهرة إلى العدل والتعاطف بين المواطنين ، أما عن السعر فقد كان السيسترتيوس يساوي أربعة آسات ، وعليه فإنه تقرر أن يباع القمح بسعر يقل إلى حد كبير عن السعر العادي . وهذا مثل على التدابير التي كان يوسع الحاكم أن يتخذها للتحكم في الأسعار .

وإذا غرضنا النظر عن فترات القحط التي قد تقع بين وقت وآخر ، فقد كانت المدن الكبيرة وحدها هي التي تتطلب إمداداً منتظماً من القمح . وثمة مشكلة تموينية حيوية كانت تعترض الحكومة ، وهي السبيل إلى توفير القمح للجيش وفي هذا ما يكشف عن الأسباب التي دعت إلى السماح بأداء الضرائب على صورة مواد غذائية ، بعد أن اختلت سبل النقل اختلالاً كبيراً فيما بعد عام ٢٥٠ ، كما يوضح لنا سر اللهجة القاسية البربرية التي تحدث بها مرسوم دقلديانوس الصادر في عام ٣٠١ (انظر الفصل التاسع) عن هؤلاء الذين يفنون بالاثمان الباهظة الجندي المدافع عن الإمبراطورية .

ورغم أنه كان في مقدور معظم الأقاليم الوفاء بضرورياتها الخاصة المباشرة، فقد كان ثمة عاملان شجعا وساهما في زيادة الإنتاج والنشاط التجارى في مدى قصير في ظل سلام الإمبراطورية الوارف، ألا وهما الارتفاع المطرد لمستوى المعيشة (الذى كان من شأنه أن يحيل كاليات جميل من الأجيال إلى ضروريات الجيل الذى يتلوّه)، وكثرة مطالب النظام المركزى للإمبراطورية. كل من الكهرمان نادراً باهظ الثمن في العصر الجمهورى، ولكنه ما لبث أن أصبح في وسع زوج أى فلاح يعيش في شمال إيطاليا، بعد مضي مائة سنة، أن تنهض بشن عقد الكهرمان الذى تزين به جيدها بهوكان على روما أن تستورد معادن الذهب والفضة والنحاس اللازمة لسك عملاتها. كما أن السبائك اللازمة لتطرية وتصليب المعادن المستخدمة في صناعة الأسلحة والسكتان والصوف اللازمين لنسج الأقمشة وإعداد أزياء الجنود، والجلود الخاصة بالخيام والأحذية، يتحتم الحصول عليها من مختلف الولايات. وفضلاً عن ذلك فقد سلم العمل في المناجم والمحاجر والعمل اليومى في فلاحة الحقول والمزارع، كما سلم النشاط التجارى والسياحى العادى من عوائق الحروب وما تجره من تخريب وتدمير. وكانت قد مضت أجيال لم يسلم فيها جزء واحد من حوض البحر الأبيض المتوسط من مصائب الحروب وويلاتها، وقد عاد سلام أوغسطس بالهدوء والراحة لأمدة عشرة أعوام أو عشرين عاماً لحسب بل لقرن كامل، لأن إيطاليا والولايات لم تشعرق بوطاة الحرب حتى عامى ٦٩-٧٠، وبعد ذلك التاريخ كان لها أن تنعم بالسلم قرناً آخر. ولعل جيلنا الحالى الذى عرك الحروب واكتوى بنارها أقدر على إدراك معنى سلم أوغسطس الثابت القوى الدعائم. قد تنشّب بين حين وآخر ثورات محلية، كقيام ثورة في بريطانيا أو في بلاد الغال أو أخذ بالثار في أسبانيا أو قد يثير أحد رؤساء العشائر المتاعب في إفريقيا، غير أن هذه جميعها لم تكن تعدو اهتزازات طفيفة في سطح هادئ ساكن. يؤكد لنا

الكتاب المعاصرون أن الحرب قد اختفت تماما من حياة الإنسان ، أما عن مصادر الفلق الأخرى كالقرصنة أو حوادث السطو أو الحكومات الفاسدة ، فقد قضى على جانب كبير منها . وكان لاستتباب السلم والقضاء على البطالة أن أزيلت بعض الأسباب الداعية إلى القرصنة ، كما كان من السهل قمع الثورات المنفرقة (كنكك التي وقعت في خلصيدونية Olinthion قرابة عام ٤٠٠) ، وكانت أساطيل الإمبراطورية الصغيرة تجوب الأنهار والمياه الساحلية بصفة منتظمة لحفظ الأمن (انظر الفصل الثاني) . كما قلت أيضا حوادث قطع الطريق للأسباب السالفة ذاتها ، فيما عدا المناطق الموحشة والجبلية الوعرة .. وإن شواهد القبور القليلة التي عثر عليها في البلقان والتي تنهى بمقتل أصحابها على يد قطاع الطرق (فيقول ابن عن أمه : قتلها المصوص ونأرت لها) لا تمثل في الواقع طبيعة الأحوال السائدة في كافة أنحاء الإمبراطورية . وكان من دأب الحكومة أن تعين ، درأ لهذه الأخطار التي تهدد سير الحياة الهادئة المنتظمة ، فرقا صغيرة من الحاميات (تحت قيادة قائد مائة في الغالب) للرباطة في مدن الأسواق أو في المراكز التجارية ، بل كانت ترسل جماعات من المحاربين القدماء للإقامة في المناطق المضطربة أو التي يشك في ولائها . بيد أنها لم تكن تقدم على ذلك إلا في أضيق الحدود ، كما لم تستجب إلى جميع الطلبات وإن ازدیاد عدد الجنود المراتبين stationarii وموظفي البوابس (eirenarchai) إزدیادا بينا بعد الربع الأول من القرن الثالث لدليل قاطع على اضطراب الأحوال وقلق الحكومة .

وأخيرا ، فقد بلغت أداة الحكم بوجه عام مستوى عالیا من الكفاءة والنزاهة ، رغم أن ذلك قد يصدق على الولايات الخاضعة للإمبراطورية بدرجة أكبر مما يصدق على الولايات التابعة لمجلس الشيوخ . وبدأ كما لو أن مثل ذلك الفساد وتلك الرشوة التي لطخت حكم بيلاطس البنطى Pontius Pilate أو ولايته

فيلكس Felix على اليهودية Judaea أو عهد ماريوس بريسكوس Priscus في إفريقيا عام ٢٠٠ ، قد قضى عليهما تماما ، فقد كان في وسع أهل الولايات على أية حال أن يعلنوا عن شعورهم في المجلس البلدى (انظر الفصل الأول) كما لم يكن الإباطرة يتهاونون مع الحكم الخونة أو الفاسدين . وكان هناك بطبيعة الحال ولاية يفضلون غيرهم ، فقد قيل عن أحد ولاية بيشينيا Bithynia في منتصف القرن الثالث : دلم تكن الولاية بحاجة إلى قوة مسلحة بل كانت تفتقر إلى الحاكم العادل البصير الذى لا ترتقى إليه الشبهات . وقد اجتمعت هذه الصفات في يوليوس سيفيروس Julius Severus ، إذ حكم الولاية ودبر شئونها في حياتها العامة والخاصة ، بصورة طيبة حدث بنا إلى أن نلهج بحمده حتى هذه الساعة .

ولقيت التجارة في ظل هذه الأحوال السلبية ، أعظم الرواج . وفي وسعنا الوقوف على بعض الفوارق الاقتصادية التى تميز الشرق عن الغرب ، ففي الشرق كانت تقع الولايات ذات الحضارات العريقة والمراكز الصناعية والتجارية العظيمة ، كالإسكندرية وأنطاكية ودمشق وطرنوس وأزمير وبرجاءوس وتسالونيك وكورثوس ، على حين أن عدة مدن سورية كانت تمثل المحطات النهائية لطرق تجارية طويلة آتية من الشرق الأقصى ، أما الولايات الغربية فلم يكن لها مثل هذا العدد من المدن العريقة أو المدن الكبيرة ، بيد أنها كانت غنية بالمواد الخام وخاصة المعادن ، وبحلول القرن الثانى ظهرت على المسرح منطقة جديدة هى المنطقة الشمالية الشرقية ، ومن ثم أخذت بلاد بانونيا وموزيا وداكيا (وهى أراضى الدانوب الحديثة) فى المساهمة بذهبها وفضتها وملحها وأخشاب غاباتها وقح سھولها فى البناء الاقتصادى للإمبراطورية . ويتعذر فى مثل هذا العرض الموجز أن نحصى جميع المنتجات فى الولايات المختلفة ، بيد أن نظرنا الخاطفة التالية ستكشف عن بعض المعالم الهامة البارزة .

لم تبدأ بريطانيا جدياً في دفع التكاليف التي تكبدتها روما لغزوها وإقامة الحاميات بها إلا بعد أن أوغلت في القرن الثاني . كان إنتاج المناجم الرصاص في بريطانيا محدوداً أول الأمر نتيجة للقيود التي فرضها أصحابها من الأسبان ، ولم تبرز في الواقع أهمية هذه المناجم إلا عندما بدأ إنتاج أسبانيا من الرصاص في الهبوط وذلك في عام ٢٥٠ على وجه التقريب . بيد أن الرصاص والحديد كانا متوفرين في بريطانيا ، كما ازداد العمل في صناعاتهما زيادة مطردة في أواخر القرن الثاني وطوال القرن الثالث ، وكان الرصاص يستخرج من منديبس Mendips في فلنتشير Flintshire ودريشير وفي يوركشير وبنابنز Pennines بالقرب من ألستون Alston أما مراكز صناعة الحديد الرئيسية فكانت تقع في ويلد Weald بمقاطعة ساسكس Sussex وفي فورست أوف دين Forest of Dean وكان في الإمكان استخراج الفضة من الرصاص بصهره وتنقيته . وكان هناك عدد من مصانع الفخار المحلية لا يقع تحت حصر ، ولكن الفخار لم يكن يصدر إلا في القليل النادر . كانت صادرات بريطانيا الرئيسية هي الصوف والسلال ثم القمح في الفترة الأخيرة ، بالإضافة إلى الحديد والرصاص ، ويحتمل أن يكون الرومان قد أفلحوا في تصريف المياه بالأراضي الواطئة بشرق أنجوليا Anglia لزراعة القمح .

وكان في حوزة الولايات الغالية (وكانت تشغل على وجه التقريب فرنسا وبلجيكا الحاليتين) النصيب الوافر من المعادن ومن الحديد والنحاس والقصدير ومن الفضة غير أن أهميتها الاقتصادية تكمن بوجه خاص في ناحيتين ، إنتاجها الزراعي والصناعات القائمة بها . فكانت ولايات الغال تصدر من الشمال القمح والنبذ والزيت واللحوم المجففة والسجق ولحم الخنزير والجبن ، وتصدر التين والكرز الوارد من الجنوب . وكانت الأقاليم الشمالية بأغنامها وقطعانها تنتج المنسوجات الصوفية بكميات هائلة في صورة عباءات ومعاطف وأغطية . أما

في الصناعة فإن بخاري جنوب شرق الغال استأثروا إلى أبعد حد بأسواق الغرب في القرن الأول ، وكانوا يصدرون منتجاتهم بالفعل إلى إيطاليا ، غير أن منتجي رينلاند ما لبثوا أن تغلبوا عليهم ، وكان لهؤلاء مراكر في كولون وتريفيس . كما تأسست صناعة الزجاج (وربما على أيدي المهاجرين السوريين) في نورمانديا ، ثم بعد ذلك في وادي الرين .

ولكنه لا نزاع في أن أعظم الولايات الغربية قيمة كانت تلك المنطقة التي تشغلها في الوقت الحاضر أسبانيا والبرتغال ، والتي كانت تتألف من ثلاثة أقسام هي بايتيكا Baetica وتراكونينزس Tarraconensis ولوزيتانيا Lusitania فهناك كانت تسكن ثروة معدنية مذهلة . لقد كتب بليني الأكبر عنها يقول : « إن كل أسبانيا تقريبا تفيض بمناجم الرصاص والحديد والنحاس والفضة بصفة رئيسية من المناطق الجبلية الواقعة في الجزء الشمالي الغربي ، كما اشتهرت فضة أسبانيا بأنها أغلى وأرقى أنواع الفضة . كما عثر على الرصاص بكميات وافرة ، وجرى تصديره على نطاق واسع ، غير أن اكتشاف الرصاص في بريطانيا ، قريبا من السطح بالفعل ، أدى إلى استصدار قانون في صالح الأسبان ، يقضي بتحديد الكمية المستخرجة من الرصاص في بريطانيا . كما اكتشف القصدير أيضا بكميات وافرة في أسبانيا ، بيد أنه ما لبث أن أفسح مكانه للقصدير البريطاني . وأغلب الظن أنه قد اشتط في استغلال الرصاص والقصدير خلال القرنين الأول والثاني وأنه عندما نضب معين المناجم الأسبانية أو توغلت آبارها إلى مسافات بعيدة في الأراضي غدت المناجم البريطانية تدر ربحا وفيرا . وكان الحديد يستخرج بكميات كبيرة في الجزء الشمالي الشرقي ، كما كانت الأسلحة والسكاكين المصنوعة في أسبانيا تلقى رواجا كبيرا . وكانت أسبانيا تصدر — بالإضافة إلى ذلك — القمح كما نال نبيذها وزيتها ، وخاصة ما كان يرد منهما من الجنوب (بايتيكا) ، ثناء العارفين . وقد أكد أحد الكتاب « أن

أسبانيا تتميز بوفرة محاصيلها من مختلف أنواع الفاكهة إلى الدرجة التي لا تكفل لها لحسب الوفاء بم حاجة سكانها ، بل تكفى لسد حاجة إيطاليا وروما أيضا . ولا زالت بعض الآثار المادية لتجارة الصادرات الهائلة هذه ماثلة في التل المجيب الواقع بالقرب من روما الذى يسمى Monte Testaccio (تل الفخار) والذى نشأ عن مجرد تكديس بقايا الأوعية الفخارية والجرار الواردة من مختلف البلاد . ويمكن أن نضيف إلى هذه القائمة ، الفلين والأصباغ والعقاقير على اختلافها والعسل والأسماك . ولقد عدت أسبانيا بحق أهم أجزاء الإمبراطورية وأعظمها قيمة ، نظرا لأن مناجمها كانت تخضع لإشراف الموظفين المالىين فى الإمبراطورية ، ونظرا لأن ضياعها الشاسعة كانت فى حوزة الأباطرة أو غيرهم من أصحاب الجاه ، فضلا عن مواردها الطبيعية العظيمة .

وكان للسبل الساحلى الإفريقى الممتد أهمية أيضا ، لأنه كان فى طريقه إلى أن يصبح مخزنا ثانيا لفلال روما ، كما أخذت ضياعه الواسعة تدخل الوحدة بعد الأخرى فى حوزة الإمبراطور . وثمة عادة كانت سائدة فى هذه الضياع - كما أشرنا من قبل (انظر الفصل الخامس) وهى أن يطلب السيد من الفلاحين المستأجرين أن يعملوا فى زراعته لعدد معلوم من الأيام دون أجر ، كأن يطلب يومين فى موسم البذر ويومين فى موسم الحصاد ويومين فى موسم الحرث ، وهى العادة التى قدر لها أن تنتشر فى بقاع أخرى وتتطور تطورا كبيرا . ولكن ليس فى استطاعتنا فى هذا العرض الموجز أن نتناول هذه التطورات جميعها ، وإلا أغفلنا ما هو أهم مثل الحديث عن الذهب والفضة التى تستخرج من مناجم الألب ، أو الحديث عن صناعات الحديد فى نوريكوم Noricum أو محاجر الرخام فى اليونان أو ضياع الأناضول الشاسعة ، أو محاصيل الفلال الهائلة فى مصر ، التى كانت لها أهمية حيوية بالنسبة للإمدادات الخاصة بروما من المواد الغذائية ، أو عن أحجار الحية والسماق والصوان التى كانت تجلب

من محاجر مصر ، والتي كان مآلها تزيين قصور الأثرياء في إيطاليا وأوروبا الغربية . ولنتقل من الحديث عن الوفرة البدائية في الولايات الغربية إلى الحديث عن صورة هي على النقيض من ذلك في سورية .

ونضم إلى سورية أراضى فلسطين وشرق الأردن الجنوبية . لأن هذه المنطقة الممتدة من الأراضى تمثل في مجموعها على نحو ما وحدة واحدة ، في امتدادها من شاطئ البحر بمرافئه العديدة وارتفاعها التدريجي حتى شوكة السلاسل الجبلية ، وبما يقطعها من الأنهار والوديان الخصبة ، حتى تصل إلى صحارات الشرق الجرداء . ولم تكن بهذه المنطقة أية ثروة معدنية ذات بال باستثناء بعض الحديد الذي كان يستخرج من أقاصى الشمال ؛ أما قطعانها وماشيتها فلم تكن لتبارى مثيلاتها في بلاد الغال وأسبانيا ، ومع ذلك فقد كانت سورية بالغة الأهمية من الناحية الاقتصادية . كانت أنطاكية تمثل مركزاً اقتصادياً يقف على قدم المساواة مع مركزى روما والإسكندرية ، أما مدن سورية الأخرى مثل دمشق وبيروتوس Berytus وأباميا Apamea وبيبلوس Byblus ولاوديكية Laodicea وصور وصيدا ، فقد كانت لها علاقات تجارية ترجع إلى قرون مضت . وكانت غابات لبنان الشهيرة مصدراً لحشب الأرز الذى كان يخصص لبناء الأساطيل الرومانية . وكان للريف محاصيله من التفاح والكمثرى والبرقوق والتين والرمان والبلح والعنب والزيتون ، وحقله من القمح والشعير والعنبد والفول . وكتب جوزيفوس يقول : « إن الجليل Galilee غنى وخصب ، تنبت فيه الأشجار من مختلف الأنواع ، وليست به بقعة واحدة لا تفلح » . كما اشتهرت دمشق بالفواكه المجففة . وكانت هناك مصانع للنسيج الكتان السورى في صورة عباءات وأردية في لاوديكية وبيبلوس وبروتوس وصور ، كما كان الحرير المستورد من الصين يجرى نسجه في المدن أيضاً أنواباً مترفة تصدر إلى الغرب . واشتهرت صور وصيدا بصناعة الزجاج ،

نظرا لنوع رمالها الفريد ، وكانت تحفها التي يهرها بأسمائهم صناعها العظام من أمثال أرتاس Artas وإينون Ennon تصدر إلى قبرص وروسيا الجنوبية وإيطاليا والغال وأسبانيا . وعرفت العطور والعقاقير أيضا طريقها إلى الغرب ، من هذه المدن الصاخبة .

كانت هذه هي المناطق ذات الأهمية الاقتصادية في الإمبراطورية . وكان نقل البضائع من جهة لأخرى ميسورا قليل التكاليف ، وهكذا كان أيضا انتقال الأفراد . فلم تكن هناك حاجة إلى تأشيرات المرور (إلا في مصر فيما يبدو) ، كما لم تكن الرسوم التي تفرض عند النقط الجمركية أو عند حدود الولايات تتجاوز حدود الممقول . وقد ينقل الطموحون من الصناعات مؤسساتهم بكامل هيئتها إلى الغرب ، إذ كانت روما أو الولايات الغربية بنبلائها الأثرياء في نظر السوري أو الآسيوي أرض الميعاد والمجال الحيوي للكسب والربح ، وهكذا يبدو أن أرتاس قد نقل مصنعه إلى روما ، وكان لمصنع جاسون Jason (من صيدا) فرع في كولون Cologne في أقصى الشمال . كما انتشر السوريون في كل مكان ، فكانوا في ملاقة Malaga بأسبانيا ، وكانوا في ليونز Lyons وفي غيرها من البلاد بالغال ، وكانوا على طول نهر الرين ، وكانوا في البلقان بل وفي داكيا نفسها . ولم تكن المغامرة والمشروعات الضخمة من نصيب التجار السوريين وحدهم . فقد حل تجار بيثينيون Bithynians بماينز Mainz وبوردو وأقام صائغ من ليسديا مصنعه في سويسرا ، ووصل بعض تجار تريفيس إلى رايتيا Rhaetia وداكيا . وتحدثنا المصادر الأدبية تارة ، والنقوش تارة أخرى عن أسفار طويلة ، إلا أنها تشهد بدورها على مدى التسهيلات النسبية واحتياطات الأمن التي كانت مكفولة للمسافرين . وإن رحلات بولس الرسول لمثل معروف مطروق على حرية الانتقال التي كانت مكفولة للمواطن الروماني ، فقد استطاع أن يزور مدن آسيا الصغرى الغربية ،

وأن يعود إلى زيارتها مرات ومرات ، وأن يتنقل بين مقدونيا واليونان بل يبلغ روما نفسها ويعلم هناك دون اعتراض من أحد ، كما كان مزعماً أن يسافر أيضاً إلى أسبانيا . وقد هاجر أحد اليهود وزوجه وهما Aquila وبرسكيلا priscilla من موطنهما في بوتوس Pontus للإقامة في روما ، وعندما رحلا مع اليهود بعد طردهم من روما ، قابلا القديس بولس في كورنثوس . ويذكر أحد الرجال العاديين من هيرابوليس Hierapolis في فريجيا ، ويدعى فلافيوس زوكسيس Flavius Zeuxis على شاهد قبره مفاخرأ بأنه مر أثناء رحلاته البحرية إلى إيطاليا بميناء كيب ماتابان Cape Matapan اثنين وسبعين مرة دون أن يصاب بسوء . ويفخر أحد تجار ميسيا Mysia بسبق عمائل : خمس عشرة رحلة إلى روما ورحلتان إلى ألمانيا وأربع رحلات إلى الدانوب ورحلتان إلى الإسكندرية ... وهلم جرا . وقد يقوم المرء برحلة بحرية بقصد الاستشفاء إلى مصر أو إلى بلاد الغال ، أو يأخذ طريقه مصعداً إلى شمال إيطاليا للاستمتاع بهواء الجبال النقي . وقد يحتفظ التاجر الثرى بمراكز متعددة له في مدينتين أو ثلاث ، وهكذا كان ماركوس أوريليوس لوناريس شيخاً لبلدتين هما يورك York ولسكولن Lincoln ، وقد خلف لنا نذرا في بوردر Bordeaux ، لإلهته الحارسة اعترافاً منه بالامتنان لرحلة عاد منها سالماً . وإنا لنميل إلى أن نتخيله في صورة أحد تجار النبيذ يقوم بتوريد النبيذ الفرنسي المعتق إلى المدن البريطانية وإلى الحامية البريطانية في يورك .

وإلى هذا الحد لم نتعرض في حديثنا إلا للسفر والتجارة في الأجزاء الآمنة من الإمبراطورية دون غيرها . بيد أن التجار الرومانيين كانوا على استعداد للمخاطرة بالتوغل إلى أبعد من ذلك . فتذكر لنا وثيقة مقطوع بصحتها أن فارساً رومانياً رحل في عهد نيرون من كارنونتوم Carnuntum (في الجزء المتوسط من الدانوب) مخترباً أراضي يسكنها البرابرة حتى بلغ بحر البلطيق

ثم إلى شبه جزيرة سامالاند Samaland حتى المحطات التجارية التي كان يجمع فيها
 السكرمان (انظر الفصل الخامس) وعاد بكية هائلة منه . ويصور محارب قديم
 من مايز ، في نذر الإلهة فورتونا ريدوكس Fortuna Redux ، نفسه بصورة تاجر
 للسيوف . وربما كانت مجموعة طرادات المحارث التي عثر عليها بالقرب من كاسل
 تمثل رأس مال أحد التجار . وإن الآثار التي عثر عليها في أنجاء متفرقة من
 النرويج والسويد وبولنده وفي شمال شرق ألمانيا ، وكانت تمثل أوعية معدنية
 وصحافا فضية وأواني زجاجية وسيوفا ، لتعد أبلغ دليل على قيام حركة مرور
 ونقل نشطة تجاوزت حدود روما بمسافات بعيدة . وإن كان يرجح أن الأشياء
 الثمينة من بينها كانت أسلحا استولى عليها من أحد المعسكرات الرومانية ، إلا أنه
 من المؤكد أن الأوعية المعدنية والأواني الزجاجية تم تبادلها بالطرق المشروعة
 العادلة ، وإن الطائفة الكبيرة من المعلومات التي تظهر في مؤلفات الكتاب
 الرومان عن شبه جزيرة الدانمرك وعن بحر البلطيق تدل على أن تجاراً من
 كانوا يتكلمون اللاتينية قد توغلوا فعلاً إلى هذه المناطق . ولم نقف بعد على
 القصة الكاملة للحملات الرومانية ضد سارماتيا Sarmatia التي يرجح أنها قادتهم
 فيما وراء كارباثيا Carpathia إلى بولنده الجنوبية وأكرانيا . وبما لا شك فيه
 أن التجار ووكلاءهم قد توغلوا إلى أعالي أنهار مثل سيريث Sereth وبروث
 Pruth ودينستر Dniester وربما تكشف لنا الحفريات فيما بعد عن بعض الآثار
 الهامة هناك .

وبرغم أن نشاط القوافل المتجهة إلى البلاد الشمالية كان موفوراً عظيماً ،
 إلا أنه يتضاءل أمام نشاط القوافل المتجهة من سورية شرقاً عبر باريثا إلى
 الصين والقوافل المتجهة من سورية جنوباً عن طريق مصر . ثم البحر الأحمر
 والمحيط الهندي إلى الهند وسيلان والملايو ونايلاند ومنها أيضاً إلى الصين .
 إذ كانت ترد من الشرق التوابل والأحجار الكريمة والحريير والنفائس

الأخرى ، كما تجلب منه العقاقير التي أثنى عليها الأطباء في القديم . وكانت الفواغل الضخمة المحملة بالبضائع التي نخضع كل منها لقائد ، تقطع الطريق بين دمشق وتدمر Palmyra والخليج الفارسي ، أو تصل إلى ما وراء ذلك ، إلى حمدان ومرو ، وذلك أنه على الرغم من أن الإمبراطورية كانت تؤدي أثماناً ما يحتاجه من بضائع بالذهب والفضة (مما يفسر عثورنا على مجموعة قطع النقود الرومانية في جنوب الهند) إلا أنها كانت تؤدي هذه الأثمان أيضاً بما تصدره من البضائع التي تنشدها دول الشرق مثل الرصاص والقصدير الوارد من أسبانيا والنبيذ الوارد من إيطاليا وآسيا الصغرى والأواني الزجاجية بمختلف أنواعها ، والسكتان والثياب والعباءات والغلمان والجواري لقصور الحريم الملكية .

ولا يعني ذلك أن التجار الرومانيين كانوا يقطعون بأنفسهم ذلك الطريق الطويل إلى الصين ، بل إن أقصى ما بلغوه فيما يبدو هو المنطقة الجبلية الوعرة الواقعة على حدود بلاد فارس وأفغانستان ، وقد أرسل أحد التجار المغامرين وكلاءه لارتداد الطريق جميعه وإبلاغه بالأحوال السائدة فيه . وعلم هؤلاء بالمراحل من الطريق التي تجتاحها العواصف حتى (البرج الحجري) وسراقول (Sarikol) وأن الرحلة من هذه النقطة إلى سيريس Seros (عاصمة الصين) تستغرق سبعة أشهر . وعلى طول هذا الطريق الطويل الشاق كانت ترد بالآث الحرير إلى الغرب ، مثل البالة التي اصفر لونها لطول عهدها والتي عثر عليها سير أوريل شتين Sir Aurel Stein أثناء رحلاته الاستكشافية . وكان الزجاج السوري يصل من الغرب إلى كابيلى Kapiisi (باجرام Bagram) ، وإلى مسافة أربعين ميلاً تقريباً شمالي كابول Kabul في أفغانستان آخذاً دون شك الطريق ذاته . وقدرة للإرساليات البيزنطية أن تبشر بالمسيحية في الهند قادمة من الطريق ذاته ، وأن يهرب الرهبان عنه أيضاً ديدان القز لتأسيس صناعة الحرير في اليونان .

وإذا كانت الرحلة إلى الصين بطريق البر طويلة شاقة ، فإن الرحلة بطريق البحر كانت أطول مدى وأشد خطورة . ومعرفة بقدر كبير من تفاصيلها ، يرجع الفضل فيها إلى الوصف الذى رواه قبطان غير معروف فى القرن الأول حول مراحل الرحلة جنوباً عن طريق البحر الأحمر ، بالمرور بسوكوترا Souotra ، وعبور المحيط إلى شاطئ ملبار Malabar ، ثم التوغل حتى بودوكا Poduca (بونديشبرى Pondicherry) والبنغال . جاء فى وصفه : « وهناك نهر يعرف باسم نهر جانجى Ganges ... وهو أعظم أنهار الهند قاطبة ، له مثل نهر النيل موسم للفيضان وموسم للتجاريق ، ويوجد على هذا النهر مركز تجارى يعرف باسم النهر نفسه ، وعنه يرد الملا باثروم ونبات النبل الهندى واللاكى* والموصلين ذو الأصناف الراقية . ويقال إن هناك مناجم للفحم فى هذه الجهات ، وإن هناك عملة ذهبية تسمى كالتس Kalis . وتقع فى مواجهة النهر وسط المحيط لإحدى الجزر ، وهى أقصى أجزاء العالم المأهول جملة الشرق ، وتقع دون الشمس عند شروقها مباشرة ، وتسمى خريسى (ملقا Malacca ؟) وهى تنفرد دون سائر المناطق التى تصادف المسافرين فى رحلة البحر الأحمر باحتوائها على أنقى أنواع أصداف السلاحف . وينصح هذا القبطان بأنواع البضائع التى تجلب من هناك وبأى السلع (بما فيها الفلفل) التى يحسن شحنها عند الرجوع إلى الوطن ، وأى الكشبان الرملية ينبغى تحاشيها ، وأى المناطق يقطنها « وطنيون معادون » . ولا يرجح أنه بلغ ملقا ، بيد أن التجار اليونانيين الرومان قد تجاوزوا هذا الموضع أيضا بعد مضى ما يقرب من مائة عام ، وقدموا أنفسهم إلى البلاط الصينى باعتبارهم مبعوثين عن الملك أنتون Antun (الذى قد يكون أنتونيوس بيوس أو ماركوس أوريليوس) . ولدينا من الشواهد الأثرية الدالة على هذا النشاط التجارى الشئ الكثير ، فقد عثر على قطع عملة رومانية فى الهند وكشف عن سلع أريتيانية ترجع إلى القرن الأول فى

مرفأ يقع بالقرب من بونديشيري Pondicherry ، واكتشف مصباح روماني في بونج توك Bông Tuk بتايلاند ، بل وجدت بعض قطع العملة الرومانية في الصين نفسها . ولقد اندثرت الأقمشة الحريرية والموصيلية التي جلبت في طريق العودة من الهند ، بيد أنه أمكن أخيرا العثور في بومبي على تمثال صغير من العاج لإلهة الرخاء ، الهندية ، لاكشمي Lakshmi . جىء به إلى أرض الوطن ليكون زينة مرفقة لقصر من قصور أحد ثراة التجار في بومبي .

وعلى النقيض من تلك الأرباح المغرية التي كان يمكن أن تعود بها هذه الرحلات المتجهة إلى الشرق ، حيث كان بوسع أى ثرى أن يدفع بماله وهو على يقين من الربح ، فإن تيارات الأطلنطي وضباب مياه الشمال لم يكونا يبشران بذلك النجاح . غير أن المعلومات عن الأراضى الشمالية والمياه الشمالية أخذت في الازدياد المطرد منذ عهد أوغسطس ، بل إن الأسطول أبخر في عهده متوغلا إلى الشمال حتى الدانمرك ، واستقر التجار الرومانيون في بوهيميا Bohemia تحت حماية ملكها ، وكانوا يقومون بتجارة رابحة . وقد توغل التجار أو وكلاؤهم بالفعل بعد هذا التاريخ في بحر البلطيق ، وأتوا بأخبار تقول إن الايستيين Aestii (وكانوا يقطنون الشاطئ الجنوبي الشرقى لبحر البلطيق ، وهم أسلاف الإستونيين Esthoniens في الوقت الحاضر) يتحدثون بلغة محلية قريبة من اللغة البريطانية . وبحلول القرن الثانى كانت كميات كبيرة من البضائع التى تصدرها الإمبراطورية كالزجاج الثمين والأقداح الذهبية والدلاء والآوانى المعدنية الزهيدة الثمن ، تصل في رحلتها لا إلى الدانمرك لحسب بل إلى النرويج والسويد أيضا ، ولا يمكننا لحسب أن نرد كثيراً من هذه البضائع إلى المصانع العالية ، بل إن وجود هذه البضائع في النرويج يرجح احتمال قيام نشاط تجارى يتركز على سواحل فرنسا أو بلجيكا أو هولندا ، على احتمال قيام هذه التجارة عن الطريق البرى القديم عبر ألمانيا والدانمرك . وما يذكر أن نظام الموازين الذى

كان متبعاً خلال عصر الحديد بالنرويج كان قائماً على أساس الدينار الروماني .
ولابد أن بريطانيا أيضاً قد هيأت موقعاً طيباً يسمح للتجار باتخاذ نقطة
بداية لرحلاتهم ، كما كان الحال بالنسبة للتاجر المجهول أنتوينانوس الذي
أقام قبيل تأهبه لرحلة تبدأ من بونيس — أون — سولوى Bowness-on-Solway
مذبجاً لتكريم بعض الآلهة ، ووعد بتغشية حروف النقش بماء الذهب إذا
ما أنعم عليه الآلهة بتحقيق آماله — في الربح — التي يعلقها على رحلته بهذه .
كما اكتشفت كل من أوركييز Orkneys وشتلانز Shetlands فقد أبحر العالم
والمستكشف اليوناني ، ديمتريوس الطرسوسي ، أثناء ولاية أجريكولا على
بريطانيا ، على ظهر الأسطول الإمبراطوري ، وعاد بقصص شعبية من
الهبريدز Hebrides . كما كانت البضائع والعملات الرومانية تصل إلى أيرلنده ،
وخاصة إلى الجزء الشمالي الشرقي منها ، ولو أن اكتشاف غاتم أحد أطباء العيون
في جولدن في كونتي تيبيراري County Tipperary يدل على أنه لابد أن مر
هو بنفسه أو أحد مرضاه بالقرب من المنطقة . وأخيراً فإن العثور على وعاء
روماني مصنوع من الطين الأسمر ، عند تطهير القاع بالقرب من بودكوبين
بانك Poreupine Bank ، الذي يقع على بعد ١٥ ميلاً غرب أيرلنده ، كما أن
اكتشاف ثلاث قطع نفود رومانية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الثالث
في قاع البحر بالقرب من شاطئ همرشورد Hammarafjord بأيسلنده ،
ليثيران مسائل شيقة وإن لم نتمكن بعد قد اهتدينا إلى حلها ، فيما يتعلق برحلات
الصيد الرومانية (بحول ما يحتمل من قيام مركز تجاري فيما بعد) وذلك في
المياه الشمالية النائية حول آيسلنده .

وما يسّر بلوغ حركة نقل البضائع من بلد إلى بلد هذا القدر من الصخامة ،
الحقيقة الماثلة في أنه كانت هناك إلى جانب العملات المحلية (التي لم يبطل استعمالها
قط) عملة واحدة رسمية مشتركة معتمدة عالمية تتمثل في قطعة ذهبية (aureus)

ورقطة فضية (aureus) مع جزئياتها ، وكانت قيمة الأوريوس ٢٠ ديناراً ، كما سكّت قطع نقود نحاسية ذات قيم مائلة . وخص أرغسطس نفسه وخص خلفاءه من بعده ، بضرب قطع النقود الذهبية والفضية ، أما عن حق سك العملة النحاسية والبرونزية فقد ترك لمجلس الشيوخ بصفة خاصة ، وربما اختص به وحده . وكان يحلو للكتاب القدامى أن يرددوا كيف أن البرابرة كانوا يفجئون بالعملة الرومانية لنقاوة معدنها وثبات وزنها ، وما من شك في أن ما كان يروى حول هذا الإعجاب قد جرت فيه يد التعديل والتشذيب بدافع من الشعور الوطني ، ولكن ذلك لا يغط من الحقيقة المائلة في أن العملات الذهبية والفضية التي أصدرها الأباطرة قد احتفظت (باستثناء بعض الهبوط الطفيف الذي طرأ عليها من حيث الجودة في عهد نيرون) بمستواها الرفيع ما يقرب من مائتي عام . بيد أن قيمة العملات الفضية أخذت منذ عهد ماركوس أوريليوس في الهبوط الهبط . وإن كان دون توقف ، وبلغ مقدار النقص في قيمتها ما يقرب من نسبة أربعين في المائة تحت حكم سبتيميوس سيفيروس . وأدخل كاراكالا تعديلاً نقدياً بأن خفض وزن الأوريوس تخفيضاً طفيفاً ، وقرر التعامل بقطعة فضية جديدة تساوي دينارين وتسمى أنتونيانوس Antoninianus . وتنعكس الأحوال السيئة المتفاقمة التي ظهرت في النصف الأخير من القرن الثالث في صورة انهيار عاجل محقق بالنظام النقدي ، فما إن حل عام ٢٥٠ حتى كان الأنتونيانوس قد هبط هبوطاً مزمياً فلم يعد يتعدى قطعة نقود نحاسية مغطاة بطبقة رقيقة من الفضة . وفي الوقت ذاته أخذت قيمة الأوريوس في التدهور حتى إنه انخفض إلى ٧٠ قبة فقط بعد أن كانت زنته في عهد أوغسطس ١٢٢ قبة . وكاد يصبح من المحال قيام أى نشاط تجارى أو صناعى ، وراجت طرق التعامل غير المشروعة وقوبلت بدورها بأحكام رادعة صارمة ، وما إن حل عهد جاليانوس حتى انقطع بالفعل صدور العملات المحلية . وأصبح من المحتم

تحصيل الضرائب عينا أو على شكل سبائك ذهبية أو فضية ، أو على أية صورة أخرى في الواقع غير العملة الرسمية . وآل أمر الدولة إلى حالة تسكاد تقرب من حالة الإفلاس السكلى ، وهكذا تلقى البناء الاقتصادى المحكم الدقيق للعلاقات التجارية القديمة ضربة قاصمة .

بيد أننا نتحدث الآن عن القرن الثالث وهو تاريخ بعيد . فما لا شك فيه أن نجاح روما في توفير الأحوال الملائمة لتجارة رابحة مزدهرة ، كان عملاً فذاً مجيداً . ولناخذ شاهداً من بين أعداء روما . كان يحلو للحاخامات اليهود أن يصوروا روما مائلة أمام كرسي الديان في يوم الحشر ، « روما هذه التى انتشرت عملاتها في جميع ربوع العالم ، والتي يعترف بسلطانها في كل مكان » . وأنه عندما يطلب الديان من الرومانيين أن يدافعوا عن أنفسهم ، يجيبونه بقولهم : « لقد أقمنا كثيراً من الأسواق ، وشيدنا كثيراً من الحمامات وزدنا من حصيلة الذهب والفضة إلى حد كبير ، ولكننا لم نفعل ذلك إلا لغرض واحد وهو أن نتيح للإسرائيليين فرصة التفرغ لدراسة التوراة دون ما عائق » . ولكن هذه الحججة لا تلبث أن تدحض في سر على أساس أن الرومان إنما فعلوا كل هذه الأشياء لكي يستمتعوا بها هم أولاً وآخرأ — غير أن ذلك لا يخل من الصورة السكلية التى تنطبع في أذهاننا والتي تقوم شاهداً على ما كان يشعر به الحاخامات تجاه أعمال روما الفذة ، وعلى اعترافهم لها بالفضل والسبق . أما عن الشهود الآخرين فلم يكونوا يكتفون كل هذه البغضاء لروما . فقد نسم العالم القديم منذ عهد أوغسطس وخلال فترة تربو على مائتى عام ، بحجة لم يعدها من العلاقات التجارية السلمية الآمنة . ولقد ردد الكانب إثر الآخر القصة ذاتها . فكتب ابىكتيتوس قائلاً : « لقد حقق لنا قيصر سلاماً شاملاً ، فلا حروب ولا معارك ولا سطو ولا قرصنة ، بل في مقدورنا أن نسافر في أى وقت من الأوقات وأن نبحر جيئة وذهاباً بين الشرق والغرب » .

وجهاء على لسان إيريناؤوس Irenaeus : د نال العالم السلام بفضل الرومان ، وأصبح في وسعنا أيضاً نحن المسيحيين أن نتحدث في الطريق دون خوف وأن نرحل إلى حيثما نشاء . ويستطرد الخطيب أرسطيدس في هذه الفكرة — كما هو متوقع — فيقول إن الحروب قد اختفت من الوجود بالقدر الذي يحمل المرء على النظر إليها على أنها أثر أسطوري من آثار الماضي السحيق ، وإن المرء ليرحل من بلد لآخر كما لو كان كل بلد ينتقل إليه وطناً ثانياً له ، فلم نعد نرهب مضيق صقلية أو نخاف الدروب الرملية الضيقة التي تصل ما بين شبه الجزيرة العربية ومصر ، كما أننا لا نجزع من ارتفاع الجبال أو اتساع الأنهار أو نخشى الشعوب البربرية التي تناصبنا العداوة . فكون المرء مواطناً رومانياً ، بل كونه مجرد فرد من رعيتك ، هو الضمان الكافي لسلامته .

الفصل الثامن

دين الدولة ودين الفرد

السحر المسيحية

على رغم أن الدين والمشاعر الدينية تعد من أصعب الأمور التي تحتل صدور الأحكام العامة بشأنها ، بالنظر لتلك الرفعة المترامية من الأراضي ، وذلك العدد الكبير من الشعوب التي ضمتها الإمبراطورية ، إلا أن هناك بعض القواعد العامة التي لم يكن يختلف فيها بلد عن بلد أو يتباين فيها شعب عن شعب . كانت جميع هذه الشعوب تعتقد في الغالب بأن الآلهة إنما هي كائنات غير مرئية ، عظيمة القوة ، أبدية أزلية ، وأنها بالطبيعة خيرة إزاء البشر ، وأنه لما كان الإنسان في حاجة إلى معونتها وحمايتها في كل مجريات حياته اليومية ، فله أن ينال رضاها وأن يحظى بمعونتها لو أنه كرمها بالتعبد لها بانتظام وبتقديم الذائح الواجبة وفق الطقوس التقليدية في بلده ، ذلك لأن الآلهة كانت أشبه بمواطنين غيورين غير مرئيين أشداء ينتسبون للبلد الذي ينال رضاهم ، كما أن طقوس الأولين هي الوسيلة الفعالة لكسب معونتهم وتأييدهم . كان الزارع في حاجة إلى معونة عدد من آلهة الريف المختلفة كي تنمي محاصيله وتصور قطعانه وماشيته ، وكان التاجر أو البحار في حاجة إلى المعونة الإلهية لتقوى عليه بالريح في أسفاره والرواج لتجارته ، كما كان الصانع في حاجة إلى معونتها كي تمنحه حذاق ومهارة في صناعته ، فالآلهة نافعة في كل لحظة من لحظات الحياة والعمل . وحتى الطبقات العليا من المجتمع الروماني التي كانت ترفع عن أن تؤمن بما يؤمن به رجل الشارع ، كانت تعتقد بدورها ، إن قدر لها أن تعتقد ،

في إله أعلى غامض مهم، تميل إلى أن تنخيله في صورة الإله المعروف «جوبيتر»، ومن ثم فهي تتعلق به بكل جوارحها، رغبة في صون الطقوس التقليدية القديمة. ذلك لأنه كما أن الشعب الروماني قد مد سلطانه، كذلك اتسع ملك إلههم القوى جوبيتر. فإن الآلهة الرومانية إن استرحمت على النسق الصحيح، فإنها ستظل دون شك المواطنين الرومانيين بحمايتهم وبذلك تصون ملك الرومان في امتداده وخلوده.

كما أصبحت بعض الآلهة الأخرى التي كانت آلهة شرقية في الأصل، والتي ما كانت لتقل قومية عن الآلهة الرومانية — مثل مثراس Mithras في بلاد فارس وإيزيس Isis بمصر — آلهة عالمية. ولكنه وإن كانت هذه الآلهة قوية عظيمة، إلا أنها لم تعد كونها آلهة يتعبد لها الأفراد ويستمدون منها عزاءهم، وقد تختار بعض النقابات أو الجمعيات مثراس راعياً لها، ولكنه لم يكن من الميسور مطلقاً في العصور الأولى النظر إلى هذا الإله على أنه الإله الأعلى الواحد الذي يمكن للدولة الرومانية أن تركز إليه. فذلك من شأن جوبيتر وحده.

وكان هناك إلى جانب جوبيتر د أعظم الآلهة وأفضلها، آلهة آخرون يمتازون إلى مجموعة الآلهة التي تعترف بها الدولة. فكان الإله مارس أباً للشعب الروماني، كما تروى الأساطير، وكان جباراً في الحروب، مقداماً جسوراً، يتولى حماية الجيوش الرومانية في ميدان المعركة، ويحظى بالعبادة الرسمية من الفرق والقوات الرومانية جميعها. أما فستا Vesta، فكانت إلهة نار الموقد التي لا تنطفئ، ورمز حياة البيت والأسرة، وعلماً على خلود روما، أما مينيرفا Minerva فكانت إلهة كل من كانوا يعملون بعقولهم أو بأيديهم، وهي التي تذكى مهارة الصانع الجاذق ودقة المحاسب. وكان يحتفى بهذه الآلهة جميعها، وبغيرها مثل جونو Juno ونبتيون في الأعياد الخاصة بكل منها وفي المناسبات

- ١٦٢ -

الكبرى . وكما أن السيد من البشر يكرم ويمجد بما يحيطه به أتباعه وحاشيته من ألوان الإجلال والتبجيل ، كذلك تعظم الآلهة بالطقوس التقليدية التي يقيمها كثير من العباد الشاكرين . ومن ثم يحق لهؤلاء البشر أن ينالوا تلك النعم والخيرات التي لا يستطيع أن ينعم بها غير الآلهة . ومن بين الحجج التي تدرج بها كاراكالا عندما قرر منح سائر سكان الإمبراطورية (انظر الفصل السابع) حقوق المواطنة الرومانية ، أن الآلهة الرومانية ستكون أكثر استغناءً وريحية لأن تجزى الشعب الروماني الورع وتسبغ نعمتها عليه ، إذا ما كرمت من هذا العدد الكبير من المواطنين الجدد .

ومن هنا جاءت أهمية دين الدولة ووفائه بالغرض المنشود منه ، إذ كان بوسع الجميع ومن واجبهم أن يأخذوا بنصيب في الطقوس التي تقام في أيام الأعياد الكبرى . أما عن قائمة أعياد الجيش فلم تكن سوى نخبة مختارة من قائمة الأعياد المدنية . وكانت العبرة بالاشتراك الفعلي في أداء الطقوس ، فلم يكن هناك محك للدين القويم يقوم على اتباع نواميس معروفة أو تلاوة قوانين للإيمان . كان واجب المواطن الروماني ، وعمله الدال على صدق إيمانه ، هو أن ينضم إلى المواكب في أبهى حلة ، ويشترك في الذبائح والقرابين وإطلاق البخور ، متوجاً بأكاليل الزهر .

ولم يكن يداخل العامة أدنى شك فيما لهذه الآلهة ولغيرها من قدرة ، وإن هذه القدرة قد تظهر في بعض الأحيان في صورة جليلة تثير الدهش والعجب . فعندما أبرأ بولس الرسول مفلوج ليستره Lystra دهش الجميع وصاحوا قائلين إن الآلهة قد نزلت إلى الأرض في صورة البشر ، كما سبق أن قالت الأساطير ، ولم يعتم كاهن جوبيتر أن أعد الثيران وأضافير الأغصان ليقدم قرابين الشكر . وإذا ما تهددت الأخطار الإنسان في البحر ، فله أن يتوسل إلى سارابيوس Sarapis فما هي إلا لحظة حتى يأتي الإله لنجدته كما شهد بذلك جندي مصري في

خطاب أرسله إلى أمه . كما أنه في كل مكان أيضاً تستشعر فيه الحياة ولقوة
والغموض — حينما ينبثق نبع من قلب الصخر ، أو ترتفع قمم الجبال بين
السحب ، أو تثير أجمة من الأشجار المعمّرة المهيبة شعوراً بالصمت والرهبة —
كان الروماني يحس بوجود قوة إلهية *numen* (كما سماها) . وجرت العادة في
الريف أن يقام إلى جوار هذه الأماكن المقدسة ، معبد ريفي صغير لتلقى
التقديمات المتواضعة التي يقدمها الاتقياء ، وهي تقديمات من اللبن أو الجبن
أو الغلال أو قد تصل إلى بساطة باقة من الأزهار . إن حوريات الغاب
والنيابيع ، و *Terminus* الإله الذي يحرس الحقول والحدود ، و *Faunus*
إله الأراضي والغابات والمروج ، و *Silvanus* الذي يمثل
القوة التي تتلحق فوق مظاهر الطبيعة الثائرة سواء أكانت في الغابات أو المستنقعات
أو المحاجر — إن جميع هؤلاء كانوا ينالون ما هم جديرون به من تكريم
وعبادة . قد لا تدانئ آلهة الريف أو الآلهة التي تحمي الصناعات والحرف
آلهة الدولة عظيمة وأبهة ، ولكنها مع ذلك كانت أوثق صلة بحياة الإنسان
وأعماله ، لذلك كانت أبقى على الأيام ، فظلت عميقة الجذور راسخة بالريف حتى
بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة (انظر خاتمة الكتاب) . وكانت آلهة
البلاد المغلوبة في حاجة هي الأخرى إلى الاسترحام والتكريم من جانب الغزاة
الغاثحين أنفسهم ، لأن الرومان كانوا يزعمون أنهم أعظم الأمم ورعاً وتمسكاً
بأهداب الدين ، وكان الرأي عندهم أن من الأفضل إرضاء هذه المخلوقات
ذات الأسماء الغريبة مثل *Zbelsurdas* في تراقيا أو رب دوليش
Dolicho في سوريا أو *Belatuoader* في بريطانيا ، فقد تكون في
الحقيقة آلهة رومانية في ثياب وطنية ، وعلى أية حال فهي آلهة لها من غير شك
سلطان داخل حدود أوطانها ، وعلى ذلك فلنكرمهم ولنقدم ندورنا إلى
«روح أرض بريطانيا» (*genio terrae Britannicae*) وبذلك نضمن حمايتها لنا .

ولم يكن هذا بإيمان الجاهل أو الأمين ، فإن ماركوس أوريليوس يقدم النصح بقوله : « أدعوا الآلهة دوماً إلى معونتكم ، ويعترف بأنه كثيراً ما تلقى منهم أحلاماً كان فيها النفع والعون . وإذا كان الحلم يستغرق على فهم الرجل العاوى ففى وسع العراف الحاذق أن يفسره له مقابل أجر ، وما زال تحت أيدينا أربعة فصول من بحث عن « تفسير الأحلام » وضعه شخص يدعى أرتيميدوروس Arimidorus (انظر الفصل الخامس) . وكان أرسطيدس Aristides المحاضر المتجول ، على استعداد دائماً لأن يقوم بكل ما كان أسكليبيوس ، إله الصحة يأمره به ، ولو تطلب الأمر القيام برحلات طويلة شاقة أو الغوص فى النهر فى أشد أوقات الشتاء برودة . إذ كانت الآلهة موجودة بين الناس تعيش بين ظهرائهم ، ويكاد يخطئها الحصر لكثرتها ، ولقد علق أحد رجال الأعمال ، ساعة الغداء قائلاً : « أيسر أن تجد فى هذه المدينة إلهاً من أن تجد آدمياً » . كما كانت مراكز العرافة تمتد به العون أيضاً لمن كان فى خيرة من أمره : هل سأصبح عضواً فى مجلس الشيوخ ؟ هل دس لى السم ؟ هل سيطلقنى زوجى ؟ هل أصابنى سحر ؟ إن هذه وغيرها من المشاكل المحيرة للألباب المستغلقة على الأفهام يمكن أن تحل كلها بحلول مرضية مقنعة بعون الإله الذى يقصد للشورة .

بقيت عقيدة أخرى جديدة بالذكر ، وهى عقيدة « عبادة الأباطرة » . والعبارة الأخيرة كما يجرى استعمالها عادة عبارة مضللة ، لأنه لم يحدث قط إلا فيما ندر أن أقيمت شعائر العبادة للإمبراطور إبان حكمه وفى أثناء حياته على اعتبار أنه إله بالفعل . ولكنه كان بما يتفق والأفكار السائدة فى العالم القديم أن يضم الحاكم العظيم بعد وفاته ، إلى قائمة أسماء من تعبدهم الدولة ، وبذلك يصبح إلهاً divus ، ولقد انتهت العقلية الفلسفية فى العصر الهلينيستى إلى أن بعض الآلهة كانوا فى الواقع فيما مضى آدميين غير مخلصين ، ولكنهم

دخلوا في عداد الآلهة نظراً لأنهم قاموا بأعمال فذة خارقة أو إصلاحات جليلة ، ولإظهارهم قدراتهم ومسلحتهم . وإذا كان الحال كذلك فإنه لمن خطئ الرأي أن نمسك عن الاعتراف بالفضل لرجال أفذاذ مثل أوغسطس أو تراجان أو سبتيميوس سيفيروس بمن نشروا ألوية السلام أو حققوا الانتصارات المظفرة أو انتشلوا البلاد من وهدة الحروب الأهلية . وعلى ذلك فقد كانت « السلطة الدينية المختصة » وهي مجلس الشيوخ الروماني أن يقرر عند وفاة أحد الأباطرة ما إذا كان الإمبراطور الراحل جديراً بشرف التأليه . ومن ثم يضاف في حالة الموافقة إلى قائمة آلهة الدولة التي تبدأ بجوبيتر « أعظمهم وأفضلهم » وتضم أولئك الحكام المعترف لهم بالفضل من أمثال قيصر وأوغسطس وفسباسيان وتراجان وهادريان وأنتونيوس وماركوس وسبتيميوس سيفيروس .

ومع ذلك فلئن طلب أحد الأباطرة أن تقام له شعائر العبادة وهو على قيد الحياة لاعتبر ذلك ضلالاً وزيفاً لا يقدم عليه إلا رجل على شاكله كاليجيولا أو دوميشيان . وعلى أية حال فإن مركز الحاكم ومكانته وسلطته أدت إلى أن بات يحاط ، أثناء الاحتفالات العامة والمواكب الرسمية ، بمشهد من دلائل التكريم والتعظيم ، لم تكن تفترق في الكثير عن العبادة الفعائية . قد يحرص إمبراطور مثل أوغسطس أو فسباسيان على التظاهر ببراهنه من كل ما يحيط بشخصه من الآبهة والعظمة ، غير أنه ما لبث في أواخر القرن الثاني أن اتخذت حشود المرافقين للإمبراطور ، والمشاعل المتأججة التي تتقدمه في المواكب والبخور الذي يطلق أمامه والصيحات والدعوات الإيقاعية التي تحيي مقدمه ، طبيعة الطقوس الدينية وشكلها . وكانت تتجسد في شخص الإمبراطور بصفة مؤقتة قوة روما وجبروتها الأبديان ، ولو أنه ليس في مقدور الناس التعبد له علانية فلهم أن يعبدوه ويقسموا بروحه (*genius*) . ولم يكن هناك ما يمنع

المواطن في حياته الخاصة ، بغض النظر عن الاحتفالات الرسمية ، من أن يقيم المذابح والمعابد لحاكمه الذي ما زال على قيد الحياة اعترافاً بفضله وانتصاراً له ، كما لم يكن هناك ما يمنع البحارة السكندريين الشاكرين من أن يسكبوا تقدماتهم بين يدي أوغسطس (انظر الفصل الأول) . وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه لما كان الإمبراطور ، في نظر القبائل والشعوب التي تعيش على أطراف الإمبراطورية ، حيث المشاعر الساذجة البدائية ، هو أعظم الخلق قوة على وجه الأرض تحميه أقوى الآلهة ، فقد كان موضعاً لعبادتهم وتكريمهم ، بحيث أصبحت عقيدة عبادة الأباطرة الراحلين والطقوس التي تقام أمام روح الإمبراطور الذي ما زال على قيد الحياة *genius* ، تهيء ديانة من نوع خاص تسمح للجميع بأن يشتركوا في طقوسها ، وأن يعبروا بها جميعاً — بغض النظر عن الجنس أو الوطن أو اللغة — عن حبهم العميق وولائهم لرأس الإمبراطورية ، وإن هذا لما يفسر العادة التي لوحظت كثيراً في التكريس باسم الإله المحلي مقروناً باسم الإمبراطور ، فقد كان الإمبراطور القاسم المشترك الأعظم لأضغاف مضاعفة من الآلهة والأرواح .

يتحتم أيضاً عند الحديث عن عبادة الأباطرة أن نوضح خطأ نظرياً قد يقع فيه الكثيرون . فبالإمكان أن تلفظي « العبادة » و « العقيدة » في نظر الفارسي الحديث لا تدلان لحسب على فرائض ونصوص التعبد والشكر ، بل تدلان أيضاً على طريقة توجيه الصلاة . فهي إما صلاة من أجل النفس أو من أجل الغير . ولكنه بغض النظر عن فقرتين أو ثلاث وردت لبعض الكتاب المتأخرين ، لا يبدو كما لو أن الرجل العاوي كان يتصور أن يقيم الصلاة لإمبراطور حيا كان أو ميتاً ، طلباً للنعم والبركات ، ولم يصل إلى على أيضاً أن حدث أن سجل لإنسان مشورة تلقاها في رؤيا أوحى بها أحد هؤلاء الحكام المؤهلين ، وإن كان الاعتقاد السائد هو أن هذه كانت من بين الوسائل التي يشترك فيها الآلهة إذا أرادوا

لأسداء معونة أي مـاية إلى واحد من بنى البشر . وإنه لمن الخطورة بمكان أن تقطع برأى فى مسائل شائكة مثل النظريات الدينية وطرق تطبيقها فى العالم القديم أو العالم الحديث ، ولكنه قد تكون أوفق نظرة إلى عقيدة وعبادة الحاكم ، هى أن تتخيلها فى صورة احتفال شعبي يشبه ذلك الذى يقام لرفع الشكر لله أو لإحياء ذكرى أحد المصلحين ، تقيمه طائفة من الناس فى المناسبات الكبرى وفى روح من الحماس الوطنى . أما فى المناسبات العادية ، ففعل الإمبراطور المقرون بإله آخر هو أن يكون بمثابة همزة وصل بين المصلى المتعبد وسائر المواطنين .

وإلى هذا الحين كان اهتمامنا منصبا على الدين سواء أكان الدين العام الرسمى أو الخاص بالأعمال والحرف ، حيث كان للتعبد أن يدعو الآلهة إلى صون الدولة وإطالة عمر الإمبراطور أو لأن تمن عليه بالثروات والمحاصيل الوفيرة والرحلات المربحة إلى آخر هذه المنافع المادية التى حسب العالم القديم أن فى استطاعته الحصول عليها من الآلهة ، على شريطة أن تلقى التكريم اللائق بها . أما إذا عجز الآلهة عن الوفاء بالتزاماتهم فى العقد ، فالويل لهم . إذ تخرب مذابحهم وتمسخ صورهم وتقذف معابدهم بالحجارة . وقد تبلغ حال مدينة يفقد أهلها الأمل ويعممهم السخط على الصورة السالفة ، درجة كبيرة من الخطورة ، حتى أنهم يفقدون روحهم المعنوية إذا تزعزع إيمانهم . لذا فرضت الدولة عقوبات صارمة على كل شخص تؤدى أقواله إلى استئثاره عقول الشعب الضحلة بمخاوف وهمية . إذ أنه لم يكن أمام الفرد العساذى ، إذا ما خاب ظنه وتملكه اليأس على الصورة السالفة أو هزته كارثة مفاجئة إلا أن يترك أحد سبيلين ؛ إما السحر أو إحدى العقائد الأجنبية .

إن شيوع السحر وانتشاره فى ذلك الزمن ، وعلى ذلك النطاق الواسع ، لحقيقة تدعو إلى الرثاء ، بيد أنه ليس لمثلها أن تشير الدهشة فى جيل لا يزال

علم الفلك يستأثر فيه بنصف نهر في بعض الصحف ولا زال للأحجية ومجلبات
الحظ والعرافين قسطاً من الذبوع . ومن الغريب أن تختلط في ذلك الخضم
الهائل من أدب السحر القديم ، الأهداف الروحية السامية مع المطالب الرامية
إلى إرضاء الشهوات المادية والجسدية . فكان الفلكي أو العراف على استعداد —
إذا ما سئل المشورة ، أن يقدم العلاج الذى يلائم جميع الأفراد ويتفق مع
كافة الإمكانيات المادية ، ففي وسع المرء أن يبتاع لديه خريطة تبين مواضع
نجوم والكواكب في مختلف الأوقات ، أو أن يتلقن عنه فن سحر أعدائه ،
وقد تنزل الفتاة المغضبة الحسود اللعنة بغريمتها التى سلبتها عشيقها فتفقد
قدرتها على السمع أو تشوه خلقتها أو تصيبها بالبلادة والخول ، أو أن يأمل
لاعب في سباق العربات الحربية أن يسحر جياد منافسيه فيشل أرجلها عن
الحركة . وقد كشفت أعمال التنقيب في الغاللية العظمى من الولايات عن مثل
هذه اللعنات والدعوات التى روى في دفنها أن تكون أوجه الألواح المكتوبة
متجهة إلى أسفل كي يتسنى للأرواح الشريرة — ذلك لأن أهل العالم القديم
كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً في وجود مثل هذه الشياطين الشريرة كما أنهم
كانوا يرهبون أشد الرهبة — أن تقرأ الرسالة المكتوبة في يسر ، وبعض
هذه اللعنات قد صيغ في لغة وأسلوب عاليين وبعضها كتب في أداء وهجاء
يكشف بوضوح عن أمية أصحابها ، بيد أنها جميعاً تميظ اللثام على نحو مؤسف
محز عن أحط المشاعر التى تنطوى عليها النفس البشرية . أما من اسودت
سرائرهم وأرادوا بإخوانهم الشر والسوء ، وتاقت نفوسهم إلى تحضير بعض
الأرواح وتسخيرها لخدمتهم ، فكان في وسعهم أن يتلقنوا — مقابل أجر —
تلك الأسماء الشاذة الغريبة للشياطين الأجنبية ذات السطوة والبطش مثل ريخارث
Richerith و باز اخوخ Bazaohuch ، بل وفي مقدورهم أن يتعرفوا على ذلك الاسم
الخفى الذى يحمل عن الذكر والذى يمكن له أن ينزل أعظم الآلهة من عليائه
ليكون عبداً مطيعاً لهم . وقد تتطلب العملية تكاليف باهظة وجهوداً شاقة من

صوم إلى تهجد بالليل إلى طقوس منفزة كريمة ، فقد قيل لامرى في إحدى الوصفات أن يمسك عن الطعام سبعة أيام ، وأن يحضر ديكا كبيراً أبيض اللون ، ثم يجتث رقبته عند شروق الشمس ، ويشرب دمه . وقد تنطوى على أخطار أيضاً ، لأنه كان عليه بعد مضي سبعة أيام أخرى ، أن يعد طعاماً ويأكله تاركاً نصفه ، وأن يأخذ طريقه إلى الغرب ثم يلتقي الجزء الذي لم يأكله ، وعند ذلك — كما تقول التعليقات — يجب أن تعود مسرعاً إلى مكانك وأن تغلق عليك بابك وإلا لحق (هو) بك ، لأنه إذا لحق بك ، فستلقى على يده الموت العاجل .

وقد يجد العابد الغيور الذي يرغب في مخاطبة إلهه وجهها لوجه ، غرضه المنشود لدى أحد الكهنة المصريين ، فيمتولى هذا الكاهن إدخاله إلى حضرة الإله ، بعد الصوم والتطهير اللازمين . وكانت هذه هي التجربة التي مر بها طيب فاشل يدعى ثيسالوس Thessalus ، قال : « أخذني الكاهن إلى إحدى الحجرات وطلب إلى أن أخبره بما إذا كنت أود التحدث إلى شبح أحد الأموات أو إلى إله من الآلهة . فأجبت أنه بآني أريد التحدث مع أسكليبيوس ، وأضفت بأنه سيتوج كل ما أبداه لي من عطف لو سمح لي بالتحدث منفرداً مع الإله فوعدتني بتلبية طلبي في شيء من الإعراض (ورأيت دليل امتناعه واضحاً على سرائر وجهه) بيد أنه قطع على نفسه مثل هذا الوعد على أية حال في النهاية . وهكذا فإنه بدأ بأن أغلق على باب الحجرة وطلب إلى أن أجلس في مواجهة العرش الذي ينتظر أن يتربع عليه الإله ، ثم استحضرت أسكليبيوس بقوة تعاويذه السحرية ، وعند ذلك أغلق الباب وأحكم الرتاج . وتركت في مجلسي ، وإذا بجسدي وروحي جميعهما قد استبد بهما الروح لرؤية مشهد رائع عجيب (وإن اللسان البشري ليعجز عن وصف طبيعة وجه الإله أو بريق الجواهر التي تغطيه) إذ رفع الإله يده اليمنى وخاطبني قائلاً : « أيها السعيد

ئيسالوس ، لقد أكرمك أحد الآلهة اليوم ، أما البشر فلن يلبثوا أن يحيطوك — عندما يصلهم نبؤك وماحقته من نجاح — بالإكرام والتعظيم كما لو كنت إلها . لك أن تسألني ما شئت وسأجيبك إلى طلبك كيفما كان عن كرم وسخاء . . وكشف الإله له في النهاية عن أسرار علم عجيب ، هو علم النبات الفلكي ، أى معرفة المواسم التى تبلغ فيها الأعشاب والنباتات غاية قوتها من حيث صلاحيتها للاختيار والإفادة منها . وغنى عن البيان أن ئيسالوس قد أترى بعد هذه الرؤيا ثراء فاحشاً . ويأتينا تعقيب ينم عن شك وارتياح فى هذه الرواية جميعها من كاتب مسيحي يدعى هيپوليتوس Hippolytus (كان يحمل لئيسالوس صغينة فيما يبدو) ، يشرح لنا فيه كيف أنه فى الإمكان « إظهار أى إله » ، وذلك بأن يخط على الحائط الرسم المطلوب ثم يلطخه بمزيج قابل للاشتعال أو بمواد فسفورية مضيئة .

وما من شك فى أن الكهنة لم يكونوا جميعهم من المخادعين، وأن كثيرين من اجتاحتهم الرغبة فى رؤية آلهتهم كانت لديهم مرام روحية-أمية ، بيد أن ذالبية من كانوا يسعون إلى الاتصال بالآلهة كانوا يرمون إلى اتخاذ ذلك وسيلة للتحكم والسيطرة على العالم المحيط بهم : ولا مرأ فى أن البعض كانوا يلتمسون الطمأنينة النفسية والإيمان ، وقد خلف لنا ضابط روماني ، كان معينا لحراسة سور عند كارفوران Carvoran على قطعة من الحجر ، نذرا واعترافاً جديرين بالاعتبار ، فقد اهتمدى خلال نوبات حراسته ووحده بالليل ، إلى أن الأرض جميعها تخضع لحكم إله واحد هو العدالة ، السبائية . غير أن الحقيقة الماثلة فى أن الكثيرين قد سعوا لنيل روى خاصة وفى أن البعض كان يعيش فى عالم تسكنه الأرواح والشياطين ، لتدل على أن دين الدولة لم يكن بكاف ، وأنه لم يمس أغوار النفس البشرية ويتعرف على آمالها ، كما لم يطفى ظمأها الروحي .

وقد يزعم البعض أن مثل هذه المخاوف ومثل هذه الآمال ما كان يعاينها

غير الجهاد ، على حين أن المثقفين إما أنهم كانوا يجدون العزاء في الفلسفة أو كانوا يسرون في طريق عقيدة تؤمن بإله واحد . ولكن الفلسفة لا تبرىء المرء بالضرورة من المعتقدات الخرافية ، كما أن التأملات اللاهوتية يندر أن ترضى نفس الرجل العادى الذى يريد جوابا شافيا لذلك السؤال المحير : ماذا أفعل لأخلص ؟ وكان بودفيرى Porphyry تلميذ أفلوطين (انظر الفصل الخامس) على استعداد — رغبة منه فى إحباط حملات المسيحيين (على الديانة الوثنية) وأملًا فى تعديل وتشذيب المعتقدات الدينية التقليدية فى الوقت ذاته ، لأن يتحلل من الكثير إلغاء الأساطير أو التماس المعنى الرمضى لها وإبطال التضحية بالذبايح الدموية وإدخال نظام تقدمات البخور ، ولكنه كان بذلك سيسلب الديانة القديمة روحها وينزع هذه الروح انتزاعا فى نظر الفرد من عامة الناس ، الذى يتشوف إلى الطقوس والمراسيم والاجتماعات ومظاهر الآلهة والعظمة . وبالنسبة لهذا الفرد الذى لا تطمئن نفسه إلى عقائد الدولة أو إلى الديانات الفلسفية ، وفى الوقت ذاته يأنف من السحر ، فلقد كان للآلهة الأجنبية والعالمية ، مثل مثراس وإيزيس (ونقتصر هنا على ذكر أشهرها) سحر كبير يستولى عليه .

وكان موطن مثراس الأصلى هو بلاد الفرس . وكانت الأساطير الفارسية تميل إلى تصوير تاريخ العالم فى صورة صراع عظيم هائل بين أهرامازدا Ahuramazda (قوة الحق والنور) وأهريمان Ahriman (قوة الباطل والظلمة) وكان مثراس يقف بالنسبة لهاتين القوتين إلى جانب الحق والصدق . وكان على من يريد عبادته أن ينضم إلى جماعة أخوية يتعاهد أعضاؤها عن طريق مراسم معينة للتدشين وعن طريق المآدب المشتركة ، على أن يخلصوا لبعضهم البعض ، وعلى أن يسلكوا سبيل الصدق والصلاح ، وهما خلتان تمدان الإنسان بالمقدرة على الثبات والصمود فى مواجهة متاعب الحياة الدنيوية وفى

الحروب الكونية أيضاً . وكانت اجتماعاتهم تعقد في كهف من الكهوف سواء كان طبيعياً أو صناعياً ، تثبت في أقصاء لوحة بارزة تصور مئراس في أعماله وآلامه بصحبة رفاقه وتابعيه ، وكان الداخلون في هذه العقيدة — الذين كان لهم أن يرتقوا رتباً دينية مختلفة — يوعدون بمراسم رمزية معينة ، بحياة مباركة في مستقبل أيامهم . وكان خليقاً بهذه العقيدة ، في تحييدها ودعوتها إلى الولاء والشجاعة والصدق والأخوة ، أن تجتذب الجند وتأسر ألبابهم ، حتى أن اجتماعات أتباع مئراس شاعت في مدن الحاميات وفيما حول معسكرات الحدود في الولايات الغربية وكذلك في الموانئ البحرية . ورأى بعض الباحثين ، استناداً إلى بعض الشواهد الواهنة فيما يبدو ، أنه كان من الممكن أن تصبح عقيدة مئراس بمعنى الزمن الدين الرسمي للرومان ، بيد أن ذلك لم يحدث على أية حال .

ورغم أن عقيدة مئراس كانت عقيدة سامية داعية إلى الكفاح ، إلا أنها لم تحت على الفضائل التي تفوق هذه رقة ونبل ، كما أنها قضت بوجه قاطع بإبعاد النساء عن حظيرتها . غير أن ثمة آلهة أخرى هي التي أوفت بما كانت تدعو إليه الحاجة ، وكانت هذه هي الإلهة إيريس . كانت مصر وطنها الأصلي غير أنه ما إن انتشرت عقيدتها وذاعت حتى زعم المؤمنون بها بأنها ليست مجرد إلهة وطنية بل هي الينبوع والأصل الذي نشأت عنه الحركة والحياة بمختلف صورهما ، وأن الآلهة والإلهات التي تعبد لها سائر الأمم إن هي في الواقع إلا إيريس بذاتها ، اهتدى البرابرة إلى بصيص وقبس من نورها تحت أسماء متباينة . وإذا دخلت ردهة معبد من معابدها العديدة ، فسيلاقيك تمثال قائم لامرأة شابة رقيقة رشيقة ، بيد أنها أم وملكة ، تحمل طفلها بين ذراعيها ، وعند قاعدة التمثال يرى نقش يروي أعمالها المجيدة ووعدوها : « إنني إيريس ملكة جميع البلاد . . . لقنت الشعوب كيف تكرم صور الآلهة ، وأقت معايد

الآلهة ، وأطاحت بعروش الطغاة ، وأنعمت على النساء بحب الرجال لهن ، وجعلت للعدل قوة تفوق قوة الذهب والفضة . . . وقننت جزاء للظالمين ، وأمرت بالرحمة للضارعين ، وإنى لأكرم من يأخذ بثأر عن حق ، العدالة هي في جانبي ، لأننى سيدة الأنهار والرياح والبحار ، أسكن أمواج البحر وأثيرها ، وأنا من أشعة الشمس ، وكل شيء رهن بإشارتى ، أطاق المأسورين ، ولى السيادة على أسفار البحر ، وأسست المدن المحصنة ، ولى الغلبة على القدر ، وينبئنى على القدر أن يطيعنى .

كانت هذه فى واقع الأمر إلهة قوية جبارة ، فهى أعتى من القدر المخوف نفسه ، إلهة تفخر بأن لها سلطاناً ، لا على الطبيعة وحدها ، بل على قلوب البشر أيضاً ونفوسهم ، وإنها مؤسسة كل مظاهر العدالة والنظام ، وكل أساليب الحياة المستقرة ، أى أنها كانت أصل الحياة المدنية ، وهى لم تنهض « بالعدل » وحده بل « بالرحمة » أيضاً ، وإلى جانب ذلك كانت هذه إلهة عانت تجربة الألم والحزن ، فهى لا تقدم يد العون لحسب ، بل تقدمها مشفوعة بالرحمة والشفقة . ولقد لقيت عقيدتها رواجاً عالمياً ، وأثار كهنتها بثيابهم البيضاء وأدواتهم المصرية الغريبة الفضول والرهبة . كما انتشرت معابد ديانتها فى جميع مدن الولايات الكبرى ، وكانت تماثيلها تزين فى الغالب بتقدمات وهدايا طائلة الثمن إلى حد يدعو إلى الدهشة ، ففى معبد أسبانيا بالقرب من أشبيلية Seville — على سبيل المثال — أبى أحد المتعبدين إلا أن يكسو تماثيل الإلهة إيزيس بأثمن الحلى وأغرها ، فكان أن قدم لها إكليلاً وقرطاً وقلادة وأساور وخواتم لأصابعها ، بالإضافة إلى اللآلىء والأحجار الكريمة التى ظهرت فى نسق يليق بعروس من القرون الوسطى .

ومع ذلك فإنه على الرغم مما حظيت به هذه الديانات من شيوع ونفوذ ، إلا أنه لم يكن لأى منها هيئة مركزية تتفرع إلى فروع ، وإلا لما سلت من

نظرات الشك والريبة . فإن الحكومة الرومانية لم تكن تلتقي بالالما قد يعتنقه المواطن من مبادئ ، فطالما أنه كان يسهم في الاحتفالات الرسمية للدولة أولا وقبل كل شيء ، فله مطلق الحرية بعد ذلك في أن يتعبد لآلهة أخرى ، على شرط ألا تكون عبادته هذه من العبادات التي تعتبر هدامة تخريبية أو من تلك التي يخشى منها أن تحول دون قيامه بواجباته الوطنية . ويلبغى أن تتخذ جميع الديانات والجمعيات صفة العلانية وأن تكون مباحة للجميع : كما يحتم الحصول على موافقة المسؤولين الحكوميين على طبيعة مثل هذه الجمعيات وقوانينها الداخلية ، أما إذا اجتمع رجال ونساء ببعضهم البعض في جنح الظلام وفي سرية فلا بد أنهم يتقنون شراً ويضمرون سوءاً . وكان شعور الرومانيين إزاء الاجتماعات الليلية السرية بصفة عامة ، هو أنها دون أدنى شك اجتماعات ثورية ، إن لم تكن منافية للأداب إلى جانب ذلك . ولذلك فإنه على الرغم مما كانت تبديه روما من تسامح بالنسبة لمعظم العقائد ، فقد كانت مضطرة بحكم شعورها الفطري وتقاليدها أيضا إلى النظر نظرة ريبة وشك إلى مثل هذه الديانات ذات الصبغة القومية كاليهودية والدرويدية ، لا لسبب إلا لأن هاتين الديانتين كانتا ترتبطان أشد الارتباط بالحياة القومية لليهود والغاليين وقد عمد الرومان ، في أعقاب الثورة اليهودية التي نشبت عام ٦٦ ، إلى تدمير هيكل اليهود في أورشليم لكي يشلوا نشاط هذا الدين ، فلم يبق أمام اليهود بعد ذلك إلا سبيلان هما إشعال نار الثورة ، فلا يلبث أن يسارع الرومان إلى قمعها ، كما حدث في بعض الحالات ، أو أن ينصاعوا ويبدأوا العمل في صون دينهم دون حاجة إلى الهيكل كما فعل يوحنا بن زكاى الذى لجأ إلى جامنيا jannia (وتبعد مسافة ثلاثين ميلا تقريبا عن أورشليم) حيث واصل العبادة في الجمع وبذلك ضمن الحياة والبقاء للديانة اليهودية .

ورغم أن الخراب والدمار قد لحق بأورشليم وهيكلها فقد ظل نصف

« الشاغل » الذى كان يؤديه كل يهودى ورجل خزينة الهيكل مستحقاً للدفع ، إلى الإله جوبيتر الرومانى فى هذه المرة . بيد أنه بقيت بعد ذلك مشكلة محيرة تتعلق بما ظهر فى صورة مذهب منبثق عن الدين اليهودى ، ألا وهو تلك العقيدة غير المشروعة التى كانت تمارسها طائفة من الرجال والنساء أطلق عليهم على سبيل السخرية « أتباع خريستوس » ، أو المسيح (Christiani) . وكان نيرون قد عاقب البعض منهم سنة ٦٤ بدعوى الحرق العمد ، ورغم أن نيرون لم يكن يحظى بسمعة طيبة إلا أن المواطن الرومانى العادى كان يشعر ، فيما يبدو ، أن المسيحيين ، حتى إن كانوا أبرياء من جريمة الحرق العمد ، إلا أنهم ينتظمون فى جماعة تحوم حولها الشبهات على نحو أو آخر . وأصبح إجراء نيرون سابقة تاريخية يمكن الاستناد إليها فى المستقبل .

كيف بدت هذه الديانة فى نظر الحكومة الرومانية ؟ لانا نعلم تمام العلم أن أتباع هذه الديانة كانوا يؤمنون بأنه قد تبدت لهم رؤيا جديدة عظيمة لله ، فى صورة الأب المحب لجميع البشر ، إذ ظهر الله نفسه فى جسد ابنه الذى عاش على الأرض كإنسان ، وعلم الناس « ببشارة الملكوت » ، وأيد تعاليمه بقوات وعجائب ، وحكم عليه الوالى الرومانى بالإعدام لارتيابه فى أنه حرض على الثورة ، إلا أنه كسر شوكة الموت وصعد مرة أخرى ، وقبل صعوده عن الأرض أسس مجتمعا جديداً تحكم علاقاته محبة الله والناس ، أما المسيحيون ، فقد كانوا يحيون ، بوحى من روحه القدس وفى انتظار مجيئه ، حياة صلاح ومحبة ، محققين رغبات سيدهم . أما بالنسبة للرومانيين الذين لم يكونوا يهتمون اهتماماً كبيراً بأحوال ولاية اليهودية — حتى أن ما رواه المؤرخ تاكييتوس عن الديانة اليهودية انطوى على أخطاء مزرية — فإن مؤسس الدين المسيحى بدا فى نظرهم ثائراً متمرداً نفذ فيه حكم الإعدام بالفعل ، أما عن أتباعه فهم يمثلون طائفة ينذر نموها المتزايد بالخطر . ذلك لأن الحركة قد انتشرت

بسرعة مذهلة في جميع أنحاء سورية وآسيا الصغرى وأحدثت بمدن تقع في قلب بلاد اليونان ، بفضل حماس الرسل والتلاميذ الأوائل في القيام بالتبشير ، حتى أنه بحلول عام ٦٠ بلغت الدعوة للدين المسيحي قصبة الإمبراطورية نفسها على يد بولس الرسول . وكان أوائل المعتنقين للدين الجديد من سكان المدن ، غير أن بلينى ، وإلى يثينيا علم لعظيم دهشته وعلعه عام ١١٢ بأن العدوى قد سرت إلى القرى نفسها ، وهي التي كانت دائماً أشد البقاع استمساكاً بأهداب الدين ، وأن الشعب قد أخذ في هجر الديانة القديمة . وكانت الدعوة إلى العقيدة الجديدة تبدو في نظر الرومان ، مقترنة في كل مكان بالاضطرابات وأعمال الشغب (وسفر أعمال الرسل يقدم لنا وفرة من الأدلة على ذلك) ، ثم إن امتناع أتباعها عن الاشتراك في المناسبات والأعياد المدنية ، . بالإضافة إلى طابع العزلة والانطواء الذي كان يبدو وبخاصة على الأميين من المؤمنين ، وما جرى عليه المسيحيون من جمع الأموال لمعونة المرضى والمعوزين ، كل ذلك أثار الريبة في النفوس ، وجر إلى نسج قصص تقول بالأعمال البشعة التي يمارسها هؤلاء وباختلاطهم وشذوذهم الجنسي ، وبأكلهم للحوم البشر وبتقديمهم الضحايا البشرية . ولعل ذلك يوضح الدافع الذي حدا بالوالى بلينى إلى ألا يسارع إلى إعدام من يقرون بأنهم أتباع للسبح Christiani لحسب ، بل من لم يستجيبوا إلى نداءات النصيح بالتخلي عن عقيدتهم ، رغم أنه كان يطلق سراح المنكرين لهذه العقيدة ، على أن يثبتوا صدق دعواهم بأن يسبوا المسيح ويسجدوا أمام تمثال الإمبراطور . ولقد أيد نيرون هذا الإجراء عندما استشاره بلينى ، ورغم أن نيرون لم يكن من دأبه أن يقبل اتهامات مبهمه غير محددة ، لأن في ذلك ما يجافى روح العصر ، فإنه أخذ برأى بلينى في أن هؤلاء المسيحيين المتعلقين بعقيدتهم قد حق عليهم العقاب . ذلك لأن الامتناع عن تقديم فروض التكريم للالهة الرومانية وتمثال قيصر إن هو إلا خيانة عظيمة .

وهكذا بات الاعتراف باعتناق الديانة المسيحية قرابة عام ١٢٠ جرما قد يفضى إلى الموت . ولو أنه لم تكن هناك حركة قمع حكومية منظمة ، إلا أن الحاكم الفاشل أو الحاكم الذى لا يتمتع بحب الجماهير ، كان يجد أن من الأوفق إلى أقصى حد ، إذا ما واجه سخطا مصدره قلة المحاصيل أو الفيضانات ، أن يصرف أذهان الشعب إلى هذه الجماعة التى لا تبدى شعورا بالتعاون والتى تحوم حولها الشبهات . بيد أن من كانوا يقدمون للحاكم سواء كانوا متعلمين أو غير متعلمين ، رجالا أو نساء ، كانوا يؤثرون أن يساموا العذاب والموت بين أنياب الوحوش الضارية فى الملاعب العامة ، على أن ينكروا المسيح أو يسبوه ، ويتجهجون بالشهادة لمحبه وسلطانة (ومن هنا جاءت لفظة شهيد) . لقد صاح القديس بوليكارب Polycarp قائلا : « خدمت سيدى ستا وثمانين سنة ، ولم يسئ إلى قط ، فكيف لى أن أسب مليكى الذى خلصنى ؟ » . إن هناك سلسلة طويلة من « أعمال الشهداء » تحبى ذكرى عجاكبتهم وأقوالهم ، وطريقة مقتلهم ، وكانت بعض هذه الأعمال قصيرة المبنى بسيطة المعنى مثل تلك التى كانت لدى أهل الريف فى سكيل Scill فى أفريقيا ، حيث كان المتهمون يقابلون النطق بالحكم وهم يلهمجون بالشكر لله ، وبعضها الآخر فيه إتقان وإحكام مثل رؤيا بيرلثيوا perpetua ، غير أن هذه تشترك جميعا فى أنها مؤثرة مخز فى النفوس . وترتبت على هذه المحاكات بمضى الزمن تليجئات الأولى هى الإعجاب غير الصريح لدى الوثنيين بهذه البطولة والشجاعة وما نتج عن ذلك الإعجاب من إثارة الفضول إلى معرفة دوافع هذا الاستبسال وأسبابه ، والثانية هى قيام حركة دفاع منطقي عن العقيدة المسيحية .

ومع أن ماركوس أوريليوس لم يلاحظ عن المسيحيين غير صفة العناد السافر ، إلا أن معاصره غالين كان كريما فى الإشادة بهم ، فكتب يقول : « معظم الناس لا يستطيعون متابعة البراهين المنطقية التى تعتمد على الاستنتاج والاستنباط ،

ولذلك فهم في حاجة لأن يتعلموا بضرب الأمثال . ولهذا نلاحظ في عصرنا هذا أن من يدعون بالمسيحيين يجمعون أطراف عقيدتهم من الأمثال . ومع ذلك فهم في بعض الأحيان يتصرفون كما لو كانوا فلاسفة لحما ودما . أما عن ازدراءهم للبوت فهو أمر نستطيع أن نشهده جميعا بأعين رؤسنا ، وفضلا عن ذلك فهم يأنفون ، بدافع من التواضع ، من الانسياق وراء الملذات الحسية ، وقد قطع بعضهم بالفعل أشواطا بعيدة في مضمار ضبط النفس وحكمها وفي السعى الحثيث لبلوغ مرتبة الكمال ، إلى حد أصبحوا معه لا يقولون مثقال ذرة عن الفلاسفة الخالص . كان هذا هو الشعور الذي انطبع في ذهن العالم المدقق فلما بالنا بالآثر الذي ترك في أذهان الرجال والنساء ممن لا يحكمون العقل بل بالعاطفة . وقد حدث في كثير من الأحيان أن تحركت نفوس الجنود القائمين بتنفيذ حكم الإعدام ، ودفعتهم إلى الاستفسار عن هذه العقيدة ثم إلى اعتناقهم إياها ، وكان استشهاد واحد من المسيحيين هو الذي حمل عماميا أفريقيا يدعى تروتوليان على الإيمان في نهاية الأمر ، وقد أصبح تروتوليان بعد ذلك من أشد أنصار الدين المسيحي ، وأثبتهم على الحاجة .

ومن ثم فقد كانت هذه هي النتيجة الثانية ، ألا وهي الدفاع عن العقيدة الجديدة ، والبرهنة على مسايرتها للعقل والمنطق . فعندما كثر عدد المسيحيين واجتذبوا بعض المثقفين إلى حظيرة كنيستهم ، قد شرع هؤلاء في توجيه الرسائل إلى الأباطرة يبرهنون فيها على أنه ليس هناك ما يحول بين المسيحيين وبين أن يكونوا مواطنين مخلصين يحترمون القانون ، وإنهم في الواقع كذلك ، ويخبرونهم أيضا بالحياة الجديدة السعيدة التي تأت لهم ، والعبرة كانت بالأعمال لا بالأقوال . قال أحدهم : « نحن لانحسن الحديث المنمق السامى ولكننا نحيا حياة سامية . » ويعلن آخر : « إن المسيحيين يعيشون على الأرض ، أما بملكوتهم فهي في السماء . » إنهم يحترمون القوانين الموضوعة ، بل يتجاوزون في حياتهم

عدالة هذه القوانين ، . ولكن هذا الأدب الدفاعي ، دفع بدوره إلى الهجوم
الفعلى أو بالأحرى إلى الهجوم والاحتجاج ، فقد أخرج أحد الرومانيين ،
ويدعى كسوس Oelsus عام ١٧٠ تقريبا مؤلفا أسماه « التقليد الحق » هاجم
فيه من ناحية قصة الإنجيل التاريخية عن المسيح وشخصه وتعاليمه ، وناشد
المسيحيين من ناحية أخرى ، بنقد هذه الزلة الحمقاء والبدعة المستحدثة
والعودة إلى « التقليد الحق » . ونادى بأنه لا سبيل إلى تجنب الأخطار التي
تهدد الإمبراطورية من جانب البرابرة إلا بتكثيل الجهود وتوحيد صفوف
الشعب (انظر الفصل التاسع) .

ولم يكن من شأن الهجوم العقلى المنطقي الذي رعى الديانة الجديدة بالنزق
والجهل إلا أن أسفر عن دفاع عنها يستند إلى الحججة والمنطق ، كما نتج عنه أيضا
هجوم مضاد يستهدف نزق الديانة الوثنية ومنافاتها لشرعية الآداب . وكان
سور تروليان Tertullian في أفريقيا وكليمينت Clement وأوريجن Origen
في الإسكندرية دليلا على أن المسيحية بدأت تستأثر بقلوب رجال من بين
المفكرين والمثقفين والأثرياء . كان في وسع تروليان أن يعي كل إمكانيات
خبرته القانونية للدفاع عن الحياة المسيحية وشرح غوامضها ، وكان في مقدور
كليمينت أن يستغل عليه الرفيع الأسر لكي يصبغ المسيحية بصبغة فلسفية ،
أما أوريجن فقد قدم بين يدي الكنيسة ، نظرا لطاقته الكبيرة وعلمه الغزير ،
نصوصا صحيحة ، وشرحا وفيرة ، وعلمها لاهوتيا يقوم على أساس الاستدلال
والاستنتاج (في تأملات جريئة إلى حد بعيد) . كما نشر أيضا كتيبا للرد
على كسوس ، وأتاح لنا كتيبه هذا ، لما تضمنه من فقرات كبيرة من أقوال
كسوس والحجج التي ساقها ، أن نستعيد محتويات كتاب « التقليد الحق »
الذي كان سيضيع تماما لو لم ينشر أوريجن رده .

وانفردت هذه العقيدة بخاصيتين لم تتوافرا لغيرها من العقائد ، أولاهما

جماعتها المنظمة المرآعية لسنن الدين ، وروح الخير والبر التي تظل الجميع .
لقد دعا كليمنت من روما (عام ٩٠ تقريباً) المسيحيين إلى أن يحذوا حذو الفرق
الرومانية ويتمثلوا بروحها ، فهم في ائتلافهم وولائهم للضباط المتولين عليهم
— أى الأساقفة والقساوسة والشمامسة — وفي الاتصال الدائم بين جماعاتهم
المختلفة ، أشبه بالجيش ، والاستعارات العسكرية شائعة معروفة . ووجدت
مشاعر المحبة المتبادلة مخرجاً ومتنفساً لها في الصدقات والهبات المنظمة . أطمعوا
الجائع واسقوا العطشان وآووا الغريب واكسوا العريان وزوروا المريض
والمحبوس ، كانت هذه هى وصايا ربهم وإلههم (متى ٢٥ : ٣٤ — ٤٠) ،
ولذلك فهم وصايا مطاعة طاعة حبور ومحبة . وكان ينظر إلى الافتقار إلى روح
المحبة والتعاطف على أنه دليل على الضلال والزيغ . إذ كتب إجناتيوس
Ignatius يقول : « انظروا إلى هؤلاء الذين يحملون أفكاراً خاطئة عن محبة
المسيح ، كيف أنهم يخالفون مشيئة الأب . إنهم لا يبالون بالمحبة ولا يهابون
بأرملة أو يتيم أو إنسان فى ضائقة ، وهم لا يهتمون بالسجين أو الكسيع ،
أو الجائع أو العطشان . ويتنحون بعيداً عن السر المقدس والصلاة
وبعد ذلك بأعوام عندما اجتاحت قرطاجنة الوباء وشاع فيها الخراب والدمار ،
ولاذ بالفرار من المدينة الموبوءة من استطاع ، بقيت الجالية المسيحية (تحت
قيادة كيريان Cyprian الموحية) صامدة ثابتة لتواصل أعمال الإغاثة ، كما أسهمت
بمبلغ كبير لاقتداء النساء والأطفال الذين أسره الغزاة النوميديون . قد تكون
موارد المسيحيين ضئيلة ، لأن كثيرين منهم لم يأخذوا بقسط من التعليم ، كما
كانت اجتماعاتهم تعقد فى دور خاصة ، سرا وخفية (لأن مبائى الكنائس لم
تكن قد وجدت بعد) غير أن ذلك لم يفت فى عضدهم أو يؤثر فى روحهم
المعنوية . كان بوسعهم أن يرحلوا إلى أى مكان دون ما عائق ، واستطاعوا
أن ينظموا أنفسهم ، بفضل الاجتماعات والمجامع التي كانت تعقد بقصد تبادل

الخبرات ومناقشة المشاكل ، في جماعة مترابطة متماسكة متينة البناء ، قوية الإيمان بالله وعظيمة الثقة بنفسها . ودعت الحاجة إلى الإكثار من المجمع والاجتماعات بين مختلف الجماعات ، ذلك لأن الدين المسيحي (شأنه شأن جميع الحركات الروحية الجديدة) بدأ في التلوث في محيطه الخارجي ، بجماعات غريبة متطرفة ، فظهر هناك الفيبديون والأديون الذين كانوا يأملون في أن يصلوا إلى المعرفة الإلهية بالتأمل والصوم والاستغراق ، أو هؤلاء المزمتمون الذين كانوا يأبون إلا أن يمتنعوا عن القيام بأبسط صور النشاط البشري وأبعدها عن الضرر . بيد أن عقد المجمع كان معناه أنه لم يكن هناك من مكان يخلو من قلب مركزي قوى شديد التمسك بالتقاليد القويمة .

وكان المسيحيون قد بدأوا منذ ذلك التاريخ ينزعون شيئاً من الإعجاب غير الصريح من جانب جيرانهم الوثنيين . فكان هؤلاء يقولون : درجل طيب حقاً ، فلان بن فلان ، إنه مسيحي ، أو : انظروا كيف يحبون بعضهم بعضاً . . ورغم أن الشهادة بالدين المسيحي كانت تنطوي على الموت ، إلا أن جماعة المسيحيين كانت تنمو وتكثر في سرعة مذهلة . وما إن اتت نصف القرن الثالث أو كاد حتى أصبح المسرح مهيباً لاختبار القوة بين أتباع الديانة التقليدية القديمة والمؤمنين بالعقيدة الجديدة .

الفصل التاسع

سؤالات الخطر

يمثل عهد سبتيميوس سيفيروس (١٩٣ - ٢١١) نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية. لقد كان عليه لبلوغ السلطة العليا أن يبرز في مضمار الدهاء والمكر، ثمصين من خصومه أحدهما ظهر في بريطانيا والآخر في سورية، وأن يتغلب عليهما أيدينا، وهكذا اهتزت أركان الإمبراطورية واضطربت أحوالها بشووب الحروب الأهلية، كما اختل - علاوة على ذلك الميزان - الاقتصادي بازدياد رقة الضياع الخاصة التي يمتلكها الإمبراطور - إلى حد كبير نتيجة لمصادره ممتلكات شخصية. ولا سبيل إلى إنكار ما تحلى به من صفات حميدة تجلت في قيادة رشيدة وفناذ بصيرة وعزم وتصميم، غير أن وحشيته وبطشه بخصومه قد جبرا إلى انكماش البقية الباقية من طبقة النبلاء المثقفين الذين كانوا يحيطون بالإمبراطور في القديم مما أوجب عليه الالتجاء في اختيار حكامه وولائه إلى طبقة أخرى تختلف عن سالفاتها في النشأة والنظرة إلى الحياة، على حين أن الثراء الهائل الذي رفل فيه العرش جعله محطاً للأناظر ومطمع كل قائد طموح. ولما كان سبتيميوس واقعي النظرة، فقد تبين الأخطار التي ينطوي عليها المستقبل، وأدرك الأهمية الحيوية البالغة التي ترتبط بتكوين جيش كبير يدين له بالولاء، ولم يعمد سبتيميوس، رغبة منه في ضمان ولاء الجيش له إلى رفع راتب الجندي لحسب، بل سمح له فيما يرجع بعقد قران روماني شرعي أثناء مدة خدمته، وبأن يعيش خارج الشكنات، ومن ثم يصبح أبناؤه مواطنين رومانيين يتمتعون بكافة حقوق المواطنة الرومانية،

كما لا يعدم أن يتبع هؤلاء الأبناء حرفة آباءهم . كانت نصيحة سبتيميوس لولديه وهو على فراش الموت د تضامنا وانقذا قوائكما عن سخط .. وماعليكما بعد ذلك أن تهتما بشيء آخر ، . لقد كان نصحا يتفق وحال دولة توشك أن تقا تل من أجل حياتها ووجودها ، وفي وقت هي في أشد الحاجة فيه إلى أن تعبي جميع إمكانياتها ومواردها من الرجال والمال والمتاع للذود عن حدودها . وفي مثل هذه الأحوال الطارئة كان للولاء التام وتآلف النفوس والأفهام ، أهمية بالغة ، كما لم يكن الإمبراطور هو الذى تنبه وحده إلى الخطر المحدق ، فقد وجه كلوسوس قرابة عام ١٨٠ رسالة بعنوان « التقليد الحق » لمناشدة المسيحيين الرجوع إلى سواء السبيل ، وقد كان كلوسوس رجلا مثقفاً مفكراً ، درس بعض الوثائق المسيحية ، وهاله ما اعتبره طبيعة هدامة تنذر بالشر الويل (انظر الفصل الثالث) . وقد أخذ كلوسوس على عاتقه ، خشية أن تثبت داخل حدود الإمبراطورية جماعة عنيدة غير متعاونة ، ترفض الانضمام إلى عبادات الدولة ، ولا تلتزم بالتقاليد المعروفة ، أن يقارع المسيحيين الحجة بالحجة وأن يكسبهم إلى جانب الحكمة والصواب . وأشار إلى ما بداله في العقيدة المسيحية من قبيل السخافات والأباطيل ، فقال إن الفكرة ذاتها التى تقول بنزول إله ما من الأعلى لى يشاطر الإنسان حياته الشقية السكادحة ، لفكرة عجوجة ، غريبة على الطبائع الإلهية . وهل من إله عاقل يواجهه عامداً الآلام والعذاب والموت ؟ كم هو قائد مهين ذلك الذى يتنخل عنه جنوده فى اللحظة الأخيرة ! إن ما ينبغى على المسيحيين أن يفعلوه هو أن ينبذوا هذه الحماقات وأن يعودوا إلى عقيدة آباءهم التقليدية وما درج عليه أسلافهم ، حتى يتسنى جمع الكلمة وتوحيد الصفوف تحت لواء الإمبراطور ، لصعد العدو البربرى ، وبذلك يتيسر صون الإمبراطورية وصون شعوبها وصون عقائدها (بما فيها عقيدتهم المسيحية) من الدمار والعدم .

وما من شك فى أن الإمبراطور كاراكالا ابن سبتيميوس سيفيروس كان

يضع نصب عينيه هذه الأهداف ذاتها عندما خطا في عام ٢١٢ تلك الخطوة المشهودة في منحه حقوق المواطنة الرومانية بالفعل لجميع السكان الأحرار في الإمبراطورية . ولن تغض بحال ، نظرة السخرية التي تنظرها في العصر الحديث إذ نقول إن مقصد كاراكالا كان زيادة عدد دافعي الضرائب الذين يسهمون في نفقات الإمبراطورية بزيادة عدد من يحملون حقوق المواطنة الرومانية ، لن تغض بحال من شأن هذه الخطوة الكريمة واللفتة النبيلة ، التي كانت المرمى البعيد لسياسة مدروسة مرسومة فيما يختص بمنح حقوق المواطنة الرومانية والتي كان لها أن تستأثر بأخيلة الأجيال المتأخرة . ومما يجدر بالملاحظة تلك الإشارة التي أوردها كاراكالا في ديباجة مرسومه إذ يقول إن الآلهة الرومانية خليقة بأن تبتهج بذبائح الشكر التي يقدمها هذا الحشد من المواطنين الجدد . إن اشتراك الجميع في عبادة الآلهة الرومانية ، إن هو إلا رمز ودليل على وحدة الإمبراطورية ، وهو قين بأن يحفظ رضا الآلهة ويكفل حمايتها للإمبراطورية من كل خطر يتهدها .

كانت نواقيس الخطر قد دقت خلال السنوات الأولى من القرن الثالث . وطرق سبيل الهبات والمنح التي تدفع للبرابرة ، بيد أن هذه لم تلبث أن تضخمتم وبهظت إلى حد كان لكاراكالا أن يعلن معه أنها قد أصبحت تساوى نفقات الجيش بأكمله . وفي النهاية لم تعد تجدى الرشوة ، وهبت العاصفة بعد عام ٢٤٠ هوجاء لا تبق ولا تذر ، وتدفقت حشود البرابرة على الحدود كالسيل الجارف من كل جانب ، ففي الغرب تدفق البرابرة إلى سويسرا وفرنسا ، بعد أن عبروا نهر الرين ، عامدين إلى السلب والنهب وسفك الدماء ، وأخذ الفرنجة طريق البحر ، وأغاروا على الشاطئ الشرقي لإسبانيا ، أما في الجهة الشمالية الشرقية ، فقد وصل القوطيون — وهم يتبعون المجارى المتجهة صوب الجنوب من الأنهار الروسية — إلى البحر الأسود ، وأوقعوا الهزيمة بالجيوش الرومانية في شبه

جزيرة البلقان ، تحت قيادة ملكهم كنيفا Kniva ، بل قتلوا الإمبراطور ديكْيوس Decius (٢٥١) . ثم أجبروا السكان الوطنيين على بناء السفن ومدّهم بالناقلات فأغاروا بها على شاطئ بوتوس Pontus (شمال شرق آسيا الصغرى) وإذ ازدادوا جرأة وجسارة ، شقوا طريقهم في بحر إيجه ، مستبِحين الجزر والمدن . وسارعت ميليتس وأفسس وأثينا وأزمير وغيرها من المدن القديمة الشهيرة التي لم تشهد أى صدام مسلح منذ قرون ، إلى إعادة بناء أسوارها وارتجال الاستحكامات ووسائل الدفاع . أما في الشرق ، فقد واجهت روما الأسرة المالكة الساسانية الفتية التي أطاحت بحكم بارتيا وهددت الولايات الواقعة على الحدود بالخطر . ولم يوقع ملكهم الجديد العظيم سابور الأول Sapor I الهزيمة بالجيوش الرومانية فحسب ، بل إنه أسر في عام ٢٦٠ بالفعل الإمبراطور فاليريان Valerian حيا .

وهكذا انتهكت خطوط الدفاع الرومانية في ثلاثة جوانب ، وكان وقوع الهجمات في وقت واحد شديد الوطأة على الإمبراطورية . لقد كان واضعوا الخطط العسكرية الأوائل في الإمبراطورية ، وهم يدعون ألا يتحد البرابرة قط ، ويلجأون إلى الحيل السياسية لدعم هذا الرجاء أيضا ، يكتبون بعدد ضئيل من الفرق بشرط نشرها في مواقع حربية ممتازة والاستعانة بنظام محكم للواصلات ، وكانوا على استعداد لأن يجرّدوا — بصفة وقتية — القوات الدفاعية عن منطقة من المناطق كي يدفعوا بالإمدادات إلى منطقة أخرى . بيد أنه لم يعد في الوسع الإسراع بنقل الفرق من الغرب لمساعدة الشرق ، فقد شغل الجميع على حد سواء . وثالثة الأثافي أن الإمبراطور لم يكن عليه فحسب أن يواجه البرابرة المغيرين من الخارج ، بل كان عليه أيضا أن يعالج أمر المتمردين في الداخل ، الطامعين في عرش الإمبراطورية . وقد اعتبر رئيس المدينة التجارية العظيمة تدمر Palmyra ، وهو أوديناثوس Odenathus نظراً

لخدماته ، حليفاً لروما ومندوباً لها ، ولكنه ثابث أن ازداد غرورا وطموحاً .
فإن حل عام ٢٦٨ حتى كانت أرملته زنوبيا Zenobia قد احتلت سوريا
ومصر وبذلك سيطرت على أعظم مصدر للقمح الذي تزود به إيطاليا والعاصمة
الرومانية ، هذا وإن كانت مقاطعة إفريقيا ظلت سالمة . واجتاح الوباء
الإمبراطورية ، علاوة على ذلك بين عامي ٢٥١ و ٢٦٦ .

وكان الموقف خطيراً للغاية . فقد قتل القوطيون أحد الأباطرة وأسر
الساسانيون آخر ، وانتهكت استحكامات الحدود في عدة مناطق ، بل أغرى
ضعف الإمبراطورية ذاته حشوداً جديدة من الغزاة ، ولما كانت الحاجة ماسة
إلى القوات المتمرسه للدفاع عن المراكز الهامة للواصلات ، فقد اقتضى الأمر
انتمان فرق أقل دربة وقوة على الحدود أو تركها في حراسة مستعمرات كان
أهلها من البرابرة في الأصل . ولم يكن بد من بذل بعض التضحيات ، وهكذا
انسحب الإمبراطور أوريليان (٢٧٠ — ٢٧٥) في الجزء الشمالى الشرقى إلى
ماوراء نهر الدانوب وتخلى عن داكيا وإن لم يسلم لبريطانيا . وكان على الأباطرة
في بعض الأحيان ، بدلا من أن يوجهوا البرابرة ، أن ينقلبوا أولا على الصامعين
في العرش ، ولو أنه يحدث في بعض الأحيان أن ينفذ بعض الجنود من حول
قائدهم الذى رفعوه هم أنفسهم إلى كرسى الحكم ، أو يقتلوه غيلة ، كى لا يواجهوا
حرباً أهلية . وأخذ البرابرة الكثيرين من السكان المدنيين عبيدا أرقاء في
بلادهم ، وجردت الحقول من العمال ، بل إن من بقى من الزرايع في عمله في
المناطق الآمنة بعض الشيء أنهكته مطالب الموظفين وشرقات الجنود
اليائسين المتعمدة المباشرة ، وانخفضت قيمة الفضة العادية إلى حد أصبحت معه
معدومة القيمة تماماً (انظر الفصل الرابع) ، وأضرب عمال سك النقود في
روما عامي ٢٧٠ و ٢٧١ عن العمل ، ولم يكن بد من تهديتهم بمعركة مسلحة ،
وبذلك الطبقات الغنية جهودا يائسة للتخلص من التكاليف البويلة التى يتحملها
أفرادها عند توليهم الوظائف العامة .

كان هذا هو الموقف خلال الفترة الكثيفة العصبية بين عامى ٢٥٠ و ٢٧٠ . وكان من حسن الطالع أن ظهر هناك أباطرة لم يقاتلوا الأمل قط في قضية الجمهورية ، و جنود مدربون متمرسون يفرزون أيضاً أشد الفخر بالفضائل الرومانية ، وبذلك أمكن بمجهود بطولية - تحت إمرة قواد أفذاذ مثل أوريليان وكلوديوس الثانى وبروبوس ودقلديانوس - أن يوقف فى النهاية تيار الغزو ، وأن تستعيد الإمبراطورية المتداعية وجديتها . وكان الجنود والقواد على حد سواء يقدون فى الغالب من إليريكوم (وهى أراضى البلقان) وكانت نقودهم تحمل أسطورة الفخار التى تقول « ببسالة إليريكوم ، Virtus Illurici » كما أن صورة الذئبة ترضع توأميها التى تحملها هذه العملات تدل على أن هؤلاء الريفيين المتشبعين بالروح الرومانية كانوا يشعرون بأن بسايتهم وشجاعتهم تستوى مع تلك التى كانت للجنس الرومانى ، وأنهم جديرون بالدود عن مدينة صمدت عشرة قرون . وإن كان قوادهم ، الذين لم يعودوا بعد شيوخا أو نبلاء ، بل كانوا جنوداً نشأة ومولداً ، يفتقرون إلى الثقافة وإلى علم بالأسس الاقتصادية ، إلا أنهم أقدموا بالفعل على اتخاذ تدابير حاسمة فى موقف كان جد خطير ، كما دلت إصلاحاتهم التى انتهت بالصورة الجديدة التى ظهرت عليها الإمبراطورية فى عهد دقلديانوس على أن فى وسعهم أن يأخذوا العبرة من أخطاء الماضى وأن ينقلوا ما يصلح من خبرات أعدائهم . ولكنه ينبغى قبل أن نشرع فى سرد هذه الوقائع ، أن نعود إلى الصدام بين الحكومة والمسيحيين ، الأمر الذى زاد من مرارة هذه السنوات العصبية .

بالرغم من أن المسيحيين ظلوا هداة للشك والريبة منذ أن أنزل بهم نيران العقاب بدعوى الحرق العمى ، إلا أنهم لم يتعرضوا حتى ههنا الحين لأى نوع من الاضطهاد الحكومى الواسع النطاق . قد تفلح الأحقاد الشخصية فى بعض الأحيان فى إثبات إدانة الخصوم ، وقد يلجأ إلى ذلك بعض الموظفين

من لا يحظون بحب الجماهير ليصرفوا الأنظار عن مساوئهم ، وعلى أية حال فإن هذه الطائفة كانت تنمو وترداد ، وضمت إلى صفوفها رجالا مثقفين متفهمين (هكذا كان أناتوليوس ، على سبيل المثال ، فرغم أنه كان مسيحيا إلا أنه كان على قدر من سعة العلم والاطلاع حدث إلى دعوته إلى نظارة المدرسة الأرستطالية في الإسكندرية) ، وكان في وسع الكثيرين منهم أن يتوجهوا بالانتماسات إلى السلطات الحاكمة وأن يؤلفوا لجمهور القراء وثائق مكتوبة في الدفاع عن العقيدة المسيحية . وقد أشرنا من قبل إلى أسماء البعض منهم (انظر الفصل الثامن) ، ويطالعنا في القرن الثالث رجلان بلغا أقصى ما يمكن أن يبلغه عالم وثني من علم ، استفلا عليهما وملكات الشرح والتوضيح لديهما في مناصرة الديانة والدفاع عن قضيتها . وكان كلاهما من الإسكندرية . ويأخذنا أولهما ويدعى كليمنت بتسامحه الكبير وسعة أفقه ، فن رأيه أن القانون قد مهد السبيل لمعرفة طريق السيد المسيح ، وأن الفلسفة كانت هاديا لليونانيين إليه ، قال : « إن الطريق إلى الحق واحد ، بيد أنه كالنهر الذي يجري على مدار السنة ، تتدفق إليه قنوات لا حصر لها من كل حذب وصوب » . كما يستنبط من العنوان الذي وضعه لواحد من مؤلفاته والذي يقول : « كيف يمكن للرجل الفنى أن يخلص ؟ » ، إنه أثرياء ومثقفين من الرجال والنساء قد أخذوا إبان هذه الفترة في الانضمام إلى صفوف الكنيسة ، فحرص كليمنت على أن يعلم هؤلاء كيف يستغلون ثرواتهم على النحو الصحيح . أما أوريجن Origen ، فإنه رغم اقتناره إلى طلاوة الأسلوب ودماثة الخلق اللذين كانا لسلفه فإنه كان مفكراً بعيد الغور ، ومصلحاً عظيم الطاقة ، ولعله كان أيضاً أول عالم لاهوتي مدقق في الكنيسة المسيحية . ولقد سبق أن تحدثنا عن تعليقاته وشروحه للكتاب المقدس وعن دحضه لحجج كلوسوس (انظر الفصل الثامن) . ولما كان مفعماً بالإيمان الصادق بأن النصر سيكتب في النهاية لمشية الآب في المحبة ، فقد كان له أن ينغمر في تأملات ذهنية بلغت حد الجرأة ، كما لم يتردد في أن يشير إلى ستخف تفسير

بعض نصوص الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً ، كما هو حال الإصحاح الأول من سفر التكوين . ولعل معالجته للمشكلة التي حار فيها بالفعل علماء عصره ، وهى المشكلة المتعلقة بحقيقة كاتب الرسالة إلى العبرانيين ، تكشف لنا عن منهجه النقدي وعن تعقله واتزانه . فبعد أن يشير إلى أنه لا بد لآى امرئ فى مقدوره إدراك الفروق بين أسلوب وآخر أن يلحظ على الفور أن الأسلوب اليونانى الذى كتبت به الرسالة أنصع فى الواقع من أسلوب بولس المعروف ، رغم أن الشاعر الذى أعرب عنها لا تقل قوة بحال عن الشاعر الذى وردت فى كتابات الرسل الموثوق بها والمقطوع بصحتها ، يدلى بوجهة نظر خاصة فيقول : « إن الأفكار هى أفكار بولس الرسول غير أن الأسلوب وطريقة التعبير هما لشخص تذكر تعاليم الرسول ، ثم أخذ يكتب فى فسحة من الوقت ما قاله معله . وعلى ذلك فإذا نادى كنيسة بأن هذه الرسالة هى من وضع بولس الرسول ، فلتحمد على ذلك ، لأن الواقع أن الأولين لم يسلبوها للأجيال التالية قائلين جزافاً بأنها له . أما عن الكاتب الفعلى للرسالة فعلم ذلك عند الله وحده . » ولم يكن هناك بأس من أن يؤمن رجال علم وثقافة كهذين الرجلين ، بالقوة الكامنة فى الإقناع بالنقاش والمحااجة وأن يراودهم الأمل فى كسب العالم الرومانى فى النهاية إلى الدين المسيحى بهذه الوسيلة . والواقع أن بعض أقطاب المسيحية مثل الأسقف ميليتو Melito أسقف سارديس Sardes كانوا على استعداد فيما يبدو للتفاوض مع الحكومة للوصول إلى نوع من « التوفيق » .

ولكن عداء الحكومة ما لبث أن ازداد ، كما لو كان الأمر خارجاً عن إرادتها ، باقتراب الأخطار التى تهددت الدولة . فى ٢١ أبريل سنة ٢٤٧ أحيى روما ذكرى العام الألفى لإنشائها بإقامة احتفال عظيم قدمت فيه النذور وآيات الشكر لآلهتها . وقد طلب إبانها الإمبراطور ديكىوس القائم بالحكم آنذاك إلى جميع المواطنين أن يظهروا روحاً جماعية مؤلفة ويعربوا عن ولائهم

بالاشتراك في هذه الذبائح ، وسارع كل من رغب في أن يبعد الشبهة عنه أو شاء أن يعلن على الملأ عن إيمانه ، إلى استخراج « شهادة التضحية » من السلطة المختصة ، وقد آل إلينا عدد من هذه الشهادات على أوراق بردية . ولكنه لما لم يكن في وسع المسيحيين أن يعبدوا الآلهة الوثنية — برغم أن بعضهم كان على جانب من الثراء ونفاذ البصيرة بحيث حول على شراء مثل هذه الشهادات دون الالتزام بفروض العبادة الوثنية — فقد صبت الحكومة جام غضبها عليهم ، وبرغم أن ديكْيوس توفي بعد فترة وجيزة (٢٥١) إلا أن الإمبراطور فاليريان Valerian واصل سياسته . ولقد بلغ الاضطهاد والعنف في منطقة من المناطق هي بوتوس — ولو أن ذلك لم يحدث إلا في هذه المنطقة وحدها — درجة سوغت لبعض سكانها من المسيحيين ، إمامن سخط أوياس ، أن يعاونوا بالفعل الغزاة بإرشادهم إلى الطرق الداخلية في البلاد أو بإخبارهم بمواضع الضياع الغنية (انظر الفصل الثالث) .

يبد أن الإمبراطور جاليانوس Gallienus أمر في عام ٢٦٠ بوقف الهجوم وسمح للمسيحيين ببناء الكنائس وامتلاك العقارات ، فلم يعد بهم حاجة إلى الاجتماع في الدور الخاصة سرا وخفية ، وأصبح في الإمكان توجيه أموال الصدقات إلى بناء الكنائس وتأسيسها وتزيينها . وإن ضخامة كنيسة نيكوميديا Nicomedia أو روعة الآنية والأثاث الذي زودت به كنيسة كيرتا Oirta بإفريقيا التي كانت تحتوى عند مصادرتها في عام ٣٠٣ ست كؤوس فضية مع الشمعدانات والمصابيح ، ليدلان على مدى استجابة المسيحيين للموقف الجديد من جانب الحكومة الرومانية . وسارت عملية « التوفيق » في تدرج بطيء ، فشرعت الطائفة في نبذ بعض مظاهر انطوائها القديم ، وانخرط المسيحيون في جيوش الإمبراطورية وعمل بعضهم في مجالس البلديات وتقلدوا الوظائف العامة ، بل تولى بعضهم مناصب كهنوتية وثنية . والجدير بالذكر أنه كان في وسع المدافعين

عن المسيحية أن يشربوا في نجر إلى أن تاريخ الجاليات المسيحية يتسم في معظمه بالولاء للحاكم ، فلم يتآزر المسيحيون قط ، فيما عدا الحالة الوحيدة الخاصة ببعض المزارعين في بوتوس ، مع عدو أي كان ، كما لم يظهروا مسيحيون خائفا .

وقبل أن نتناول بالحديث الأسباب التي حالت دون إتمام التوفيق المنشود ، ينبغي أن نرجع على ذلك العمل الفذ الذي حققه الأباطرة المحاربون العظام ، ألا وهو استعادة وحدة الإمبراطورية . لم يكن بغريب أن يحسب الناس خلال الفترة الحالكة التي مرت بها روما عامي ٢٥ و ٢٧ أن روما قد يقضى عليها قضاء مبرما . فقد خرب القوطيون المدن الواقعة على بحر إيجه واستباح الفرنجة مدن أسبانيا ، وبدأت الغزوات على بريطانيا من جانب الساكسونيين والإيرلنديين ، وإن كنوز قطع العملة الخبأة لأبلغ دليل على الذعر والانكسار ، لأن هذه دفنها أصحابها المرتاعون المذعورون على أمل أن يعودوا لاستردادها يوما ما . لكنهم لم يعودوا قط . وأطل الطامعون والمطالبون بعرش الإمبراطورية رؤوسهم من كل مكان ، بعضهم كان يعمل بدافع من أطماعه الخاصة ، والبعض الآخر رفعته جماعة ساخطة من الجيش ، فظهر في الغال بوستوموس Postumus وتتريكوس Tetricus وادعى قابالات Vapallath في تدمر بأحقية في عرش الإمبراطورية . ولكن هذه الحركات لم تكن في غالبيتها تهدف إلى الاستقلال أو الانفصال عن الإمبراطورية ، والواقع أن الولايات وبخاصة الجنود الذين ولدوا بها ، قد هبوا لنجدة الإمبراطورية في تمثل للروح الرومانية يكاد يبلغ حد المغالاة والشطط . وكان القواد المحليون يسيطرون ، كما هي الحال ، على أجزاء من المحيط الخارجي بينما كان الأباطرة يخوضون غمار المعركة في قلب الخطوط الدفاعية ذاتها . إن الحقيقة الماثلة في أن هذه الأجزاء الصلدة من الإمبراطورية قد نهضت للوقوف في وجه الأعداء ، ونظمت استحكاماتها الخاصة بها ،

لتدل على أن لفظة كاركالا الكريمة قد لقيت جزاء وفاقا، وعلى أن المواطنين الرومانيين الجدد كانوا على استعداد، لا لأن يمارسوا ما للبواطنة الرومانية من حقوق بل يضطلعوا أيضا بما تفرضه من واجبات. ولم يبق هناك أى دليل على رغبتهم فى الانفصال أو شق عصا الطاعة، كما لم تجددهم أنفسهم قط بالانضمام إلى الغزاة، وقد خطت كثير من الولايات — بمحض إرادتها — خطوات جريئة. ويمكن القول بأن الحكومة لم تقدر بالفعل عظم الطاقة والحماس اللذين كانا لهؤلاء السكان المحليين، وأنها لم تولهم ما هم جديرون به من ثقة، وفى هذه المقتة بالذات يظهر سوء تصرف الحكام فى معالجة الموقف.

ومع أنه كان فى وسع القواد والوحدات الإقليمية أن توقف زحف المغيرين — بصفة مؤقتة — إلا أنه كان فى استطاعة الجيش النظامى وحده، بقوته وتماسكه وروحه العالية، أن يصددهم ثم يوقع الهزيمة بهم، وتطلب الأحوال الجديدة تعديل نظم الجيش الرومانى البائدة تعديلا كليا، وتغيير خططه وأسلحته. ولعل جاليانوس كان أول من وصى الدرس وأول من أدخل تعديلات ماسة. لم يكن سلاح الفرسان قط من الأسلحة القوية التى يعول عليها فى الجيش، وكان يزود عادة بفرق من القوات المساعدة، فأنشأ جاليانوس لمواجهة ضرورة جديدة سلاحا للفرسان *Equites* (جندوا من الماشيا) يخضع لقيادته مباشرة، مقره ميلانو التى كانت تمثل مركزا هاما للواصلات. كما أخذ عن الفرس نظام الفرسان الذين يحملون الأسلحة الثقيلة *Catafractarii* (أى القوات المدرعة التى كانت دروع السلاسل تستر فيها كلا من الفارس وجواده) والراحين الذين يتسلحون بمثل أسلحتهم والذين ظهر خطرهم واضحا أمام أعين القواد الرومانيين إبان صراع روما مع بلاد فارس. كما لم يعد هناك غناء عن رماة السهام الراكبين، وكانت روما تجند خيرة رماتها من بين أبناء المنطقة الشرقية، من مملكة أزو هوين *Osrhoene* الصغيرة. ولم تظهر أهمية هذه

التشكيلات إلا في أواخر القرن الثالث ، كما كون جاليانوس ، بالإضافة إلى ذلك جماعات جديدة من الحرس الخاص (*Protectores divini lateris*) ينتقون من بين كبار الضباط للقيام بالخدمة في مقر قيادة الإمبراطور ، وبذلك تحولت هذه الجماعة إلى ما يشبه كلية أركان حرب لتخريج القواد العظام .

وهكذا يتضح أن القواد الرومانيين ، المحافظين على تقاليدهم ، لم يكونوا يتعلمون من هزائمهم فحسب ، بل ينقلون عن أجدادهم أيضا ، كما كان لوقع الغزوات آثار أخرى . فقد باتت المدن التي لم تشعر قط منذ قرون بالحاجة إلى الوقاية ، والتي تجاوز عمراتها نطاق أسوارها القديمة ، تواجه مشكلة عاجلة تتعلق بإقامة التحصينات ووسائل الدفاع . وأصبح من الضروري إقامة الأسوار الجديدة على جناح السرعة ، وهذه لم تكن تهدف إلى تمكين المدن من الصمود أمام الحصار ، لأن البرابرة لم يعرفوا شيئا عن فنون الحصار ووسائله ، بقدر ما كانت تهدف إلى معونتها على حماية نفسها من الفرسان المغيرين ، فقد كانت الحاجة تدعو إلى العوائق الفعالة لا إلى التحصينات المنظمة المحكمة . ولعل أشهر الأمثلة على ما حدث هو ذلك السور الهائل الجديد البالغ طول قطره اثني عشر ميلا ، والذي بنته أيدي مدنية لا أيدي عسكرية مدربة ، والذي أحاط به الإمبراطور أوريليان مدينة روما . غير أنه كلما نالت الاختراعات الجديدة ، على مر الزمن ، ظهرت أسلحة أخرى للهجوم والدفاع . فقد طور المهندسون الرومانيون أنواعا مختلفة من آلات إطلاق القذائف المعتمدة على قوة ضغط الحبال المقتولة ، فكان سلاح المدفعية هذا يتألف من المنجانيقات *catapultae* (والقلقة التي يعرفها جيدا كل تلميذ بالمدرسة هي صورة مبسطة لها) و *ballistae* (التي أطلق اسمها على علم المنجانيقات) « والبغال ، *onagri* » (وسميت كذلك لشدة ركلها وعنفه) التي كانت باستطاعتها أن تقذف أحجارا يبلغ وزنها ١٠٠ رطلا فضلا عن مداها الذي يصل إلى مسافة ٨٠٠ قدم . وكان في الإمكان

استخدامها أول الأمر ضد المهاجمين من البرابرة ، ومن ثم أصبح من الضروري إعادة بناء أسوار القلاع المتاخمة للحدود كي تسمح بإقامة قواعد تستطيع تحمل ثقل هذه الآلات وقوة ارتدادها . وبعد هذا التاريخ أيضا جرى تحصين المراكز الهامة والعواصم العسكرية بتطبيق نظام بحكم الأسوار المزودة بالشرفات والفتحات التي تنصب عليها المدفعية ، بالإضافة إلى أبراج الأركان التي توفر النيران المتقاطعة ، إلى جانب الأخذ بكل التدابير الممكنة لإحباط خطط المغيرين وتمزيق صفوفهم . ولقد استطاع الأباطرة المقاتلون العظام وهم كلوديوس الثاني (٢٦٨ — ٢٧٠) وأوريليان (٢٧٠ — ٢٧٥) وتاكيثوس (٢٧٥ — ٢٧٦) ويريوس (٢٧٦ — ٢٨٢) ، بهذه التشكيلات الجديدة وهذه القوات المتخصصة في مختلف الأسلحة وهذه الأسلحة الجديدة ، واستنادا إلى ما هو أعز من ذلك وأبقى ، ألا وهو الروح العالية والنفوس التي لا يتطرق إليها اليأس ، استطاعوا أن يردوا الغزاة على أعقابهم وأن يستردوا الأراضي التي اجتاحتها العدو وأن يدعموا كيان الإمبراطورية المتداعى . وقدر لإمبراطور مقاتل وعبقري آخر في شئون الإدارة والحكم ، ألا وهو دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) أن يضم في نظام موحد جديد جميع هذه التدابير التي اتخذت للدفاع عن الإمبراطورية وصيانتها ، وبذلك أتاح للدولة سنبل مجابهة مشاكل العصر والتغلب عليها .

كان دقلديانوس ينحدر عن أب يشتغل بالزراعة في إليريكوم التي برهنت من قبل على أنها أعق أجزاء الإمبراطورية وأشدّها بأساً ، وعرف أثناء خدمته بالجيش بتقلبه السريع في مراتب الجند وبزه لأقرانه ، وقد بلغ كرسى الملك بقتل شاغله . وكان من الطبيعي أن يعقد دقلديانوس عزمه ويحزم أمره على ألا يتكرر مثل ذلك بالنسبة له ، فأصبح من المقرر أن يتمتع الإمبراطور منذ ذلك التاريخ بأعظم قسط من الحماية . كما بات من الضروري العمل على

وضع خطة منسقة للدفاع تشمل عدة حدود مجتمعة ، وتخضع لقيادة ضباط أكفاء يمكن الاطمئنان إلى ولائهم وإلى أنهم لن يرفعوا راية العصيان . كما رأى ألا تقوم هناك حركات انفصالية ، بيد أنه لم يكن هناك مفر من الاعتراف بالوحدات الإقليمية التي نمت بالفعل (مثل وحدة نوفيمبويولانا Novempopulana في ولاية أكويتانيا Aquitania التي يبدو أنها قد أصبحت تمثل في القرن الثالث وحدة إدارية منفصلة) .^١ ولقد روعى في وضع خطة دقلديانوس الدقة البالغة في جميع تفاصيلها لجاءت متناسقة متنسقة الأجزاء ، غاية في الإحكام ، ويكفي هنا أن نذكر خطوطها الرئيسية .

أولا : تقسيم السلطة ، شعر دقلديانوس أنه لم يعد في وسع إمبراطور واحد أن يتخذ بمفرده القرارات وأن يصدر الأوامر بالنسبة لمثل هذه الرقعة المترامية من الأراضي ، ومن ثم ينبغي أن يكون له شريك ومعاونون ، وعلى ذلك فقد دعا ماركوس أوزيليوس فاليريوس ماكسيميانوس *Maximianus* ، ويدعى عادة ماكسيميان إلى الاشتراك معه في حكم النصف الغربي من الإمبراطورية ، بالرغم من أنه كان من المؤكد أن مركز دقلديانوس بإرادته الحديدية وشخصيته الفذة سيفوق في القوة مركز شريكه ، وحمل ماكسيميان مثله لقب أوغسطس *Augustus* وكان لكل منهما مساعدون ينتمون قياصرة توكل إليهم مهام الحكم في مناطق معينة . وهكذا أصبح لدقلديانوس — في الوقت الذي كانت له فيه السيطرة أيضا على شريكه — الإشراف على النصف الشرق من الإمبراطورية (ويشمل جميع الأراضي الواقعة شرق البحر الإديرياتيكي) وقد عين جاليريوس *Galerius* مساعدا له أي قيصرًا ، وولت إليه مسئولية الإشراف على أقاليم البلقان بوجه خاص . وكان ماكسيميان هو أوغسطس النصف الغربي من الإمبراطورية ، أما مساعده القيصر كونستانتينوس *Conatantius* ، فكانت تخضع له ولايات الغال وأسبانيا وبريطانيا . وارتبط

الشركاء الأربعة بأواصر المصاهرة ، وعلى حين أن الشريكين الكبيرين كانا يلقبان بالجوبيترين *Jovii* (واللقب مأخوذ من اسم الإله جوبتر ، نظرا لمرتبتهما السامية) فإن الشريكين الصغيرين كانا يحملان اسم الهركليين *Hereulei* ، نظراً لأن كلا منهما كان يؤازر سيده بما يقدمه من خدمات وما يبذله من جهود ، بالإضافة إلى أنهما كانا يعملان على دعم الإمبراطورية . وقيل — وإن لم تثبت صحة هذا القول — إن دقلديانوس لم يتيسر له بذلك التخلص فحسب من خصومه الذين قد يظهرون في المستقبل ، بل ضمان تتابع الأباطرة على العرش بطريق نظام ثابت للتنازل يقضى بأن يخلف كل قيصر الأوغسطس الذى يتأمله ، وأن يتخذ هو بدوره مساعدا له .

وسار دقلديانوس فى خطة التقسيم أشواطاً أخرى . فنقرر ألا تترك أية وحدة من الأراضى أو أية وحدة إدارية على قدر من اتساع الرقعة أو القوة بحيث تغرى الوالى عليها بالاستقلال بها . وفى وسط هذا الحشد من الموظفين ، كان للتنافسين والخصوم أن يراقبوا بعضهم البعض ، وأن يحد كل منهم من حرية الآخر . وكان معنى وجود حكام أربعة ، قيام أربع عواصم ، وعلى الرغم من أن جيوش كل من الحكام الأربعة ، كانت جيوشاً متنقلة ، وأنه كان فى وسع أى حاكم أن يقيم مفر قيادته فى أفضل نقطة يراها ملائمة ، فإن هذه العواصم لم تلبث فى الواقع أن استقرت فى كل من ترييفيس (تراير *Trier* على نهر موسيل *Moselle*) وميلانو فى شمال إيطاليا وسرميوم *Sirmium* (متروفتزا *Mitrovitza* على نهر سيف-Save) ونيكوميديا *Nicomedia* فى غربى آسيا الصغرى . ولا جدال فيما كان لهذه النقطة من أهمية كبرى باعتبارها مركزاً لطرق المواصلات . وعلى الرغم من أن مدينة روما نفسها قد تدهورت سياسياً ، بعد أن هجرها أباطرتها الرومانيون ، إلا أنها ظلت تتمتع بهيبة ومكانة بالعتين ، كاتناً سنبدأ وعوناً للأسقف المسيحي الذى أقام بها بعد ذلك بقرون . أما بالنسبة

للولايات ، فقد تقرر أن يكون حاكم الولاية منذ ذلك الحين موظفا لإدرايا فقط ، ليست له الإمرة على القوات التي قلدت قيادتها ، للكونتات (Comites) والدوقات (Duces) وتحددت رقعة الولايات ونضاء لت نتيجة لتقسيم الولايات إلى ولايتين أو أكثر بحيث بلغ المجموع الكلى ما يقرب من مائة ولاية . وانتظم هذا الحشد الكبير من الوحدات الصغيرة فى منظمات جديدة أوسع نطاقا تمثلت فى اثنتى عشرة منطقة إدارية يدير شئون كل منها نائب Vicarins وكانت بريطانيا بولاياتها الأربعة تؤلف منطقة إدارية واحدة ، كما كان الحال مع أسبانيا بولاياتها الست ، أما فى الشرق فإن منطقة أورينز Oriens كانت تضم ستة عشر ولاية ، وآسيا عشر ولايات وهلم جرا ، ولا بد أن نفقات الحكم وحدها مع وجود أربعة أباطرة وأربع معيات ، قد ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، واقتضى الأمر لتوفير المال اللازم لذلك وضع نظام جديد للضرائب ، وعلى ذلك أعيد مسح أراضي الإمبراطورية من جديد وفرضت ضرائب جديدة (قابلة للتعديل مرة كل خمسة عشر عاما) .

وتميزت هذه الخطوة شأنها شأن جميع الخطوات التى اتخذها دقلديانوس بالدقة والإحكام . فجاءت عملية مسح الأراضي وإحصاء السكان دقيقة صارمة . وحملت الوحدة الضرائية اسما لاتينيا قديما iugum ، بيد أنها لم تعد مقياسا مساحيا بسيطا . ففسد تقرر أن يجرى تقدير مختلف أنواع الأراضي على أساس القدرة الإنتاجية لكل منها وبحسب عدد الأفراد المشتغلين فى فلاحتها . فتقدر أراضي زراعة الغلال الخصيبة فى شمال إيطاليا أو شمال إفريقيا بتقدير يفوق تقدير أراضي المراعى والغابات فى الولايات الشمالية . ورنى أن يعدل التقدير الأصى للضرائب الذى وضع سنة ٢٩٧ مرة كل خمس عشرة سنة ، وسميت مدة الخمس عشرة سنة هذه فيما بعد بالاصطلاح الدال عليها : indictio . ولم يكن بغريب أن يقابل النظام الجديد بالهجوم والانتقاد باعتباره نظاما صارما

جائرا ، ولاغرو فما من نظام ضرائبي قوبل بالهتاف والتصفيق . ولكنه يبدو كما لو أن هذا النظام قد أفلح في توفير الأموال اللازمة للدفاع عن الإمبراطورية الجديدة وتصريف شئونها ، وكيفما كان الحال فقد أحل بالفعل الانتظام والانساق (مع الأمل في التعديل) محل الفوضى العارمة أو الجبايات القسرية التي كانت سائدة خلال العهد البائد . ربما كان ثمن ذلك باهظا بيد أنه دفع مقابل العودة إلى سيادة القانون والنظام .

وبمثل هذه التدابير سعى دقلديانوس إلى وقاية الإمبراطورية من الأخطار الرئيسية التي أتهكت قواها في الماضي ، في الوقت الذي وضع فيه — باستخدامه عملة جديدة — حدا للتدهور النقدي المزرى وللوضى المالية التي كانت سائدة من قبل . فتقرر ضرب قطعة نقود ذهبية جديدة هي الأوريوس aureus وزن واحدا من ستين من الرطل ، على حين كانت القطعة الفضية وزن واحدا من ستة وتسعين من الرطل ، ويساوى الأوريوس الواحد خمس عشرة قطعة فضية أو مائة سسترت Sestertii . وفيما بعد حل محله السوليدوس Solidus الذي أدخله قسطنطين ، وكان وزن واحدا من خمسة وسبعين من الرطل ، وجرى تداول هذه القطعة بعد سنة ٣٢٤ (انظر الفصل العاشر) في جميع أنحاء الامبراطورية .

وأعاد دقلديانوس أيضا تنظيم خطط الدفاع وأساليب القتال في الإمبراطورية فدعم بذلك الإصلاحات التي تمت خلال العصور السالفة . وأمكن التغلب على خطر اختراق العدو لعدة جهات في وقت واحد ، بأن وضعت أربعة جيوش جديدة تابعة للإمبراطورية Palatini تحت إمرة القواد الأربعة . وكانت هذه الجيوش الأربعة تضم مجموعة من القوات المتنقلة السهلة الحركة التي روعيت في اختيار أفرادها وفي تدريبهم العناية الفائقة ، وكانت هذه تصاحب الإمبراطور في حملاته (Oomitatenses) ومن ثم كان في الإمكان أن يهرع بها — إذا مادعت

الحاجة — للدفاع عن أية نقطة يتهددها الخطر ، اما على طول الحدود ، فكانت ترابط قوات من الدرجة الثانية (Limitanei) لتلقى صدمة الغزو الأولى (وصد الغزاة إن أمكن) . بيد أنه على صخرة الجيوش « البلاطينية » الصلدة وحدها كانت تتكسر في النهاية موجة الغزو ويرتد الغزاة على أعقابهم . وقد أخذت طائفة كبيرة من القوات المتخصصة — مثل الفرسان المسلحين بالأسلحة الثقيلة وجنود المدفعية وقوات الهجاة والحفارين والمتسللين إلى آخرهم — مكانها في الجيش الجديد .

ففي كل ناحية من النواحي ، ابتدع دقلديانوس (أو نقل عن آخرين) تدابير جديدة لدرء الأخطار التي تهددت الجيولين السابقين . فاستعيد كيان الدولة الرومانية واستردت الأراضي التي كان العدو قد اجتاحتها ، ورد البرابرة على أعقابهم ، أى أن الدولة أصبحت تتمتع — من الوجهة النظرية — بالأمن والسلم ، بعد أن خرج أباطرتها من الحرب مظفرين ، بيد أنه لا جدال في أن جهود الحكام جميعها كانت تتجه إلى ربط كافة موارد الإمبراطورية بهجلة الحرب والتأهب لكل طارئ . والحقيقة أن كل شيء كان يتوقف خلال هذه الحقبة — كما كان الحال أيضا خلال القرن الماضي — على كفاءة الجيوش الرومانية وولائها ، ومن ثم كان لهدف الاحتفاظ بكفاءة الجيش وولائه الأسبقية على كل شيء . فرفع سيفيروس راتب الجنود بالفرق الرومانية ومنحهم امتيازات عدة (منها السماح لهم بعقد قران شرعى أثناء مدة خدمتهم) وكان الجندي في طريقه إلى أن يصبح طفل الدولة المدلل . وتتردد الشكوى من إغارتهم وسرقاتهم التي كانوا يرتكبونها ضد المجتمعات الريفية المسالمة ، بين طيات العرائض التي كان يرفعها أهل الريف في القرن الثالث (راجع الفصل الرابع) ، ولذلك كانت هناك حاجة ماسة إلى حاكم على جانب كبير من القوة يستطيع فرض نظام صارم ، فكانت استجابة دقلديانوس لهذه الحاجة من

أجل الخدمات التي أداها . ولكن طاعة الجنود الواجبة للإمبراطور لا تقل أهمية عن شعورهم بأنهم يجدون فيه لا القائد لحسب بل النصير والظهير .

ويتمثل هذا المبدأ على نحو واضح جلي في الديباجة الغربية التي قدم بها للرسوم الشهير الذي صدر في عام ٣٠١ ، وكان يقضى بفرض حدا أقصى لأسعار كافة السلع المباعة تقريبا . تستهل الديباجة في انزان وهدوء برفع آيات الشكر إلى الآلهة من أجل النصر على العدو واستعادة السلام وانخفاض الأسعار لصالح العالم ، ولكنها لا تلبث أن تلهب ظهور الموردين والتجار لشحهم وجشعهم برمهم بأقذع العبارات وأعنفها ، فتقول : إن هذه الآفات تحط بالجندي العامل ، حينما تزابط قوات من الجيش ، وتشتط في الطلب وتهبط الثمن إلى حد د يعجز فيه اللسان البشرى عن أن يجد الألفاظ التي يصف بها هذا السمر أو ذلك العمل . قد يحدث في بعض الأحيان أن يجد الجندي عند شرائه لسلعة واحدة ، نفسه وقد سلب كلا من راتبه ومنحته ، وهكذا يذهب كل ما أسهم به العالم لإقامة الجيوش ليتخيم هؤلاء اللصوص وأرباحهم البغيضة ، ويبدو أن جنودنا يقضون بأيديهم على الأمل فيما سيحصلون في مستقبلهم وعلى ثمار جهودهم الماضية أيضا ، إزاء حيل هؤلاء الانتهازيين ، وهكذا ينتزع هؤلاء المفسدون الناهبون للدولة نفسها ، من الجنود يوما بعد يوم أكثر مما يمكن للجنود في واقع الأمر تحصيله .. وهم جرا . وتمم اللهجة السائدة في المرسوم جميعه عن غضب جامح وحشي ونقمة على أعداء الدولة ، تنتهى بفرض عقوبة الإعدام على من يخالف فئات الأسعار التي حددها المرسوم والتي تمثل الحد الأعلى maxima . « ولا ينبغي أن يظن أحد منكم أن هذه عقوبة صارمة ، لأن في وسعكم لو اتبعت طريق الاعتدال والقسط أن تتجنبوا في يسر هذا المصير . »

كما يكشف هذا المرسوم عن نقطة ثالثة . فقد ساد الاعتقاد إذ ذاك بقدرة الدولة على الإشراف على كافة الأمور ، كما اعتور هذه الحقبة تدهور في الناحية

الانسانية للقوانين والعقوبات . لعله من اليسير أن نسخر من عبث فرض حد أعلى للأسعار دون النظر إلى المنطقة التي يتم فيها التعامل ، وصحيح أيضا أن المرسوم لم يلبث أن أصبح حبرا على ورق . بيد أنه لا يبدو من الإنصاف أن ننحى على دقلديانوس باللائمة لجهله بالحقائق الاقتصادية التي ظلت خافية عدة قرون . ولكنه بغض النظر عن هذه الناحية ، فإنه لما يثير أعظم مشاعر النفور والعجب أيضا ، والأمر الذي يتعارض أشد التعارض مع الروح التي سادت القرن الثاني ، عقوبة الإعدام الوحشية الصارمة التي كانت جزاء أقل مخالفة . لاجدال في أن أثبت الأمراض تتطلب أخطر سبل العلاج ، غير أننا نلاحظ في كافة قوانين ذلك العصر إيمانا لا بالمنطق والإنصاف ، بل بالقسر والإجبار المقرونين بالإرهاب .

وثمة ظاهرة رابعة اتسمت بها هذه الفترة هي تألق نجم آسيا الصغرى التي أصبحت بمثابة همزة وصل حيوية في شبكة المواصلات ، واعتبرت منطقة منتجة للمواد الغذائية لتزويد الجيوش المرابطة في الشرق وفي الجهة الشمالية الغربية . واقرن تألق نجم آسيا الصغرى بازدياد أهمية المضائق ، وليس أدل على ذلك من إقامة دقلديانوس مقر قيادته في نيكوميديا ، ثم بلغت ذروة مجدها عندما وقع اختيار قسطنطين للديانة اليونانية القديمة بيزنطة على الجانب الأوربي لتكوين قصبة للبلاد ومركزا للإمبراطورية الموحدة جمعاء .

كان شبح مشكلة الدفاع الحيوية جاثما على الإمبراطورية طوال السنوات الأخيرة في الجزء الثاني من هذا العصر . إن صون سلامة الإمبراطورية تتطلب تجنيد القوات ، وكانت الجيوش البلاتينية الأربعة التي استحدثت مؤخرا - كما أسلفنا - القلب الصلب لنظم الدفاع ، بيد أنه كان يتحتم أيضا أن تتوافر القوة للجنود العاديين Limitanei الذين كانوا يرايطون في القلاع والحصون المتاخمة للحدود . وعلى حين كانت الجيوش البلاتينية جيوشا متقلة ، فقد آل أمر قوات الولايات هذه إلى أن أصبحت ترابط في نقط ثابتة وتجنبد محليا . ومنذ أن سمح سيفيروس

للجنود العاملين بالزواج ، أصبحت الزوجات والأبناء يألون الحياة في أحياء
مدنية تقع خارج المعسكرات أو أسوار الحصون ، وكان من الطبيعي أن
ينشأ كثير من الأبناء على حرفة آبائهم ويلتحقون بفرق الآباء عيها . وغالبا
ما كان الأباطرة يلجئون رغبة منهم في الإسهام في الاحتفاظ بأعداد القوات
ثابتة عن طريق إمدادها بأفواج متلاحقة من المجندين ، إلى إقطاع الأراضي
للكثريين ولو كانوا من البرابرة وإلى تشجيعهم على الاستقرار والزراعة ، على
شريطة أن يلتحق أبناؤهم بجيوش الإمبراطورية . وبالنظر إلى ذلك يمكن
القول بأن عملية صبغ الجيش بصبغة بربرية كانت قد بدأت بالفعل . ولكن
الأمر كان متوقفاً على أية حال على معدل قبول هذه العناصر النصف رومانية
بل وغير الرومانية على الإطلاق بالجيش . وكان من الممكن أن تحقق مثل هذه
السياسة نتائج طيبة ، لو تيسرت لها فسحة من الوقت ولقيت ظروفًا سلبية ، بيد
أنه لو استمر الضغط الخارجي دون انقطاع فلاسييل للإمبراطورية منبهة القوى
أن تحتل ذلك طويلا . وإذا لم تكن الجيوش متشعبة تماما بكل من الروح
والتقاليد الرومانية ، فهل يؤمن جانبها في المحن والأزمات ؟ إن الرد المباشر
على هذا السؤال في نظر رجال مثل الأباطرة المقاتلين هو وجوب العمل على
تطهير الجيوش من العناصر البينة القدر أو غير الجديرة بالثقة ، ويبدو كما لو
أنه قد تم طرد المسيحيين فعلا قبل عام ٣٠٠ . وأصبح الواجب أن الرئيسيان
والمشكلتان اللتان تشغلان الأباطرة منذ عام ٣٠٠ هما الاحتفاظ بكفاءة
القوات المسلحة وولايتها أولا ، وضمان ترويضها بالإمدادات التي تعتمد عليها
دون انقطاع ثانياً .

الفصل العاشر العمل من أجل الوحدة قسطنطين

إن النظام الجديد الذى وضعه دقلديانوس (انظر الفصل التاسع) قد ضم فى خطة شاملة محكمة كافة الإصلاحات العسكرية والأساليب الناجحة لحماية الضرائب والقواعد الصارمة للإشراف الحكوى التى دلت التجربة على حاجة الإمبراطورية الماسة إليها جميعا . ولا يمكن أن تقطع بما إذا كان دقلديانوس قد اتوى أن يبقى نظام التقسيم الرباعى للسلطة وللأراضى قائما أبدا ، وذلك لأن الظروف الطارئة سلّته القدرة على التحكم فى زمام الموقف كله ، غير أنه بما لا شك فيه أن نظامه الجديد أفلح فى استرجاع الحدود القديمة وفى سحق عناصر الفوضى الداخلية . بيد أن ذلك النجاح عيئه الذى أحرزه دقلديانوس فى مضمار استعادة البلاد لوحدها قد جر بعض زملائه إلى المطالبة بتحقيق قدر أعظم من الوحدة الشكلية الظاهرية . كان قيصر دقلديانوس الخاص يدعى جاليريوس ، وكان راعى غنم أباً عن جد ، وارتقى فى مراتب الجيش بفضل بأسه ووحشيته ثم لم يلبث أن برهن على جدارته واستحقاقه لأن يعين فى منصب القيصر بالتصاراته فى جهة الدانوب وأمام الفرس . ولما كان جاليريوس أحد مواطنى إلبريكوم ، ممن تشبعوا بالروح العسكرية الصارمة وتطبعوا بالطابع الرومانى المتطرف الذى عرف عن هذه المنطقة ، ولما كان متحمساً للوحدة متعصباً لها ، فقد ساءه أن يكثر عدد المسيحيين وتقوى شوكتهم ورأى وجوب الحد من نفوذهم وإرغامهم على الانصياع . بيد أنه لم يكن لدى دقلديانوس أدنى رغبة فى الالتجاء إلى أساليب الضغط والقمع وظل على هذه الحال حتى وقعت سلسلة من الحوادث

كانت من بينها حادثتان من حوادث الحرق العمد (التي لا يستبعد أن يكون جاليريوس هو مدبرها) فدفعه ذلك في النهاية إلى إصدار طائفة من المراسيم في عام ٣٠٣ تحتم على جميع المواطنين الرومانيين (دون أى من تلك الاستثناءات التي كان يسمح بها في الماضي) القيام بتقديم الضحايا الوثنية المعروفة وتأدية فروض الديانة الوثنية في المناسبات المقررة، على الوجه الأكمل، وتقضى بأن يطرد من يتمتع من الجنود عن ذلك من الخدمة، أما إذا ما ركب أى مسيحي رأسه فليلق به في السجن ويوقع عليه العقاب وتصادر ممتلكاته، وتدمر مبلانيه، على ألا تراق في ذلك الدماء، وهكذا بدأ في الثالث والعشرين من فبراير، العهد الذي أطلق عليه المسيحيون «عهد الاضطهاد الأعظم». وقد دمرت فرق من الجنود كنيسة نيكوميديا وخربتها وأجبرى المسئولون تحقيقات مع القساوسة والشمامسة طالبيين إليهم تسليم الأناجيل وأثاث الكنيسة، كما سجن وأعدم الكثيرون منهم. وإن روح العصر التي كانت تتمثل في الالتزام القاتل بحرفية القانون لتنعكس في وضوح وجللاء على الحقيقة الماثلة في أن بعض المسيحيين كانوا يساقون قسرا إلى المذابح ويجبرون بالقوة الغشوم على وضع البخور في المباخر، على حين أن بعض الجلادين كانوا يملأون في بعض الأحيان كف بجثة هامدة بالبخور ثم يقدفون بها إلى نيران المذابح، كما أنما يجب أن تنفذ هذه الأيدي سواء أكانت حية أو ميتة ما قضى به المرسوم الإمبراطوري.

بيد أن الاضطهاد لم يقع بدرجة متساوية، فلم يكن جميع الحكام على استعداد لأن يذهبوا إلى أقصى حدود التطرف والوحشية. فلو أن قيصر واحدًا، جاليريوس، كان هو الموعز بالاضطهاد المحرض عليه، فإن قيصر الغرب، كونستانتينوس كلوروس Constantius Chlorus عالج الأمر باعتدال كبير. وقد زعم أنه كان عريق الأصل كريم المعتقد، إلا أن الثابت أنه كان وجلا مثقفا موهوبا، أما عن ديانته فقد كان من أتباع عقيدة «الشمس القاهرة»

التي لا بد أن ابنه قسطنطين قد ألم بها . فاكثني بتدمير كنائس المسيحيين ، دون أن يقتل أحدا منهم . وما يذكر أن دقلديانوس نفسه الذي أصدر هذه المراسيم ، لم يكن متحمسا لها شمس قيصره التابع له . والحقيقة أنه لم يمض وقت طويل على إصداره لمرسومه حتى أصيب بانتهيار عصبي واحتجب عن الأنظار مدة ثمانية عشر شهرا . ولم يظهر على الملأ بعد هذه الفترة في عام ٣٠٥ ، وقد ظهرت عليه دلائل السقم والمرض ، إلا ليعلم تنازله وتنازل زميله ماكسيميان عن العرش ، وما إن تم ذلك حتى رفع كل من قسطنطين وجاليريوس إلى مرتبة الأباطسة Augusti واختارا بدورهما قيصرين Caesares لهما ، وأصبح في وسع دقلديانوس بعد ذلك أن يتقاعد في قصره الجديد في سبلانو Splanو لكي ينعم بجلال القصر ووحده . أما في الشرق فقد كان هناك جاليريوس وقيصره الجديد ماكسيمين دايا Maximin Dacia ، وقد جمعا بين التصفيم والعزم والتسوة والبطش والموهبة الحارقة في وضع التدابير والخطط الرامية إلى استئصال شأفة هذه الطائفة المنبوذة والقضاء المبرم على مبادئها الخطرة ، ولم يكتفيا بقمع المعاندين لحسب ، بل أعلنوها حربا شعواء ، بالدعاية والمؤتمرات الشعبية وبث الأفكار ، بل استعانوا بالتدابير الإصلاحية الإيجابية أيضا . فكان على التلاميذ بالمدارس أن يتشربوا بشعور معاد للمسيحية باستظهار وثيقة ملفقة مزورة تحمل اسم « أعمال بيلاطس » Aeta Pilati على زعم أنها أقوال بيلاطس البنطي عن محاكمته للسيد المسيح ، أما في الريف فإن « شعور السخط الذي تشربت به الجماهير من تلقاء نفسها » قد طفح في صورة عرائض وملتمسات تطالب الحكومة باستئصال شأفة هذه الطائفة الويلة ، وأهم من ذلك أنه تقرر أن يرفل السكينة الوثنيون في أفخر ثياب علاوة على مراعاة الدقة البالغة في اختيارهم من بين المعروفين بمكاتبهم ووقارهم وسمو خلقهم . واستطاع الأباطرة بمثل هذه التدابير أن يتصدوا للمسيحية وأن يقاوموها مقاومة فعالة ، وقدر لهذه الخطة وذلك الإصرار أن يحقق الغرض المنشود لعدة أعوام مقبلة .

وفي هذه الأثناء توفى كونستانتينوس في الغرب سنة ٣٠٥ ، ونادى الجيش البريطاني في يورك بابنه قسطنطين في اليوم ذاته (٢٥ يولييه) لإمبراطورا . ولم يكن هذا يتفق بحال مع الخطة الموضوعة ، ولكنه لما كانت هناك بقية من القوات المعادية يجب التصدي لها وقهرها ، فقد اعترف جاليريوس في النهاية — باعتباره الإمبراطور الأكبر — بالأمر الواقع : وإن تم ذلك على كره منه . وأفلح الحكام الأربعة وهم جاليريوس وماكسيمين دايما في الشرق وماكسنتيوس (Maxentius) (ابن ماكسيميان) وقسطنطين في الغرب في الاحتفاظ بسلامة الحدود ، فلم يجرؤ أى فريق من البرابرة على اختراقها ، وتوجت بذلك أنظمة دقلديانوس بالنصر . وإذا كان جاليريوس مشغولا بالشئون الداخلية ، ماضيا في اضطهاد المسيحيين في وحشية وقسوة ، اتتبه مرض ما لبث أن اشتد عاما بعد عام إلى أن اضطر في النهاية إلى إصدار مرسوم في إبريل سنة ٣١١ يقضى بوقف الاضطهاد . وحينذاك أعلن وهو على فراش الموت في صوت متهدج متقطع متخلله الأناث والآهات ، كيف أنه كان يؤمل أصلا في أن يحمل المسيحيين على الرجوع عن طريق الضلال ، ولكنه يفتي السماح لهم الآن بالحياة مرة أخرى ، وبإقامة الدور التي يجتمعون فيها ، واختتم حديثه قائلا : « وفي مقابل هذه المنة فإنهم ملزمون بالدعاء لإلهم بصوتنا وصون الدولة وصون ذواتهم ، حتى تتوافر للدولة السلامة من جميع النواحي وكى يعيشوا هم في دورهم في ظل الهدوء والأمن » . وثمة ناحية جديرة بالتنويه في تلك الفسكرة التي استبدت بذهن الإمبراطور إلى ساعة وفاته ، والتي تتمثل في وجوب المحافظة على سلامة الإمبراطورية بأى ثمن ولو تطلب الأمر أيضاً التضحية بالمبادئ والقيم التي يؤمن بها المجموع .

ولم يكن هناك مفر من أن يؤدي موت جاليريوس في مايو سنة ٣١١ إلى قيام المؤامرات والفتن والمنازعات بين المطالبين بالعرش على اختلاف درجة

أحقيتهم به . ففي الشرق أفلح *Valerius Licinianus* ليلاينوس ، ليلاينوس *Licinius* في أن بوطه في النهاية . كره في منصب الأوغسطس ، أما في الغرب فقد نشب النزاع على الحكم بين *Licinius* ، الذي دانت تدين له بالولاء كل من ولايات بريطانيا وأسبانيا وفرنسا من بجانب ، وما كستتيوس ، الذي كان يسيطر على إيطاليا وإفريقيا ولايات شمال الأناضول ، من بجانب آخر . وعقد قسطنطين العزم في النهاية وبتأييد من جنده على الإقدام على غزو إيطاليا نفسها . وكان ما كستتيوس قد بذل في السنوات الأخيرة كثيراً من الجهد والمال في سبيل تزوين روما وإعادة بنائها ، كما وضع في اعتباره دعم استحكاماتها وحصونها ، ولهذا السبب نادى بنفسه على قطع العملة بأنه دحامي مدينته *Conservator urbis suae* ولكن من الغريب حقاً أنه قد خلف وراءه فعلاً أمن استحكاماته الجديده — ولعله غلب على أمره من جراء نصائح الدهماء — لينازل قسطنطين خارج أسوار المدينة في معركة حاسمة ، فلقى جيشه هزيمة منكرة في معركة ملفيان *Milvian Bridge* (وتبعد ثلاثة أميال عن روما) وذلك في الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ٣١٢ ، ومات هو غرقاً في مياه نهر التيبر أثناء فيضانه الخريفى . ولم يكن ثمة خصم ، له من القدرة ما يمكنه من منازعة قسطنطين في مناداته بنفسه أوغسطساً على الغرب ، كما سارع قسطنطين لكي يكشف لنفسه بعض الأمن في المستقبل القريب ، إلى الاجتماع بليكينيوس زميله في الشرق وعقد آصرة مصاهرة معه .

بيد أنه كان مقدراً لمعركة ملفيان *Milvian Bridge* أن تسفر عن نتائج أعظم شأنًا ، وأشد خطراً ، فإنها وثقت في الواقع صلة قسطنطين بإله المسيحيين وزادت في ولائه له ، وبذلك غيرت بالفعل وجه التاريخ العالمى . بيد أنه لا يجب أن نخطئ فهم اللفظة التي يجرى استعمالها في أغلب الأحيان ، وهى لفظة واعتناقه ، للمسيحية ، إذ لم يعلن قسطنطين قط بصورة علانية وفي التو عن إيمانه بإله

المسيحيين ، كما لم يحاول أن يفرض بالقوة الدين المسيحي على رعاياه . فقد كانت العملية أشد من ذلك تعجيدا وأكثر تدرجا . فلا بد أن مشكلة المسيحيين ولهم قد شغلت ذهنه منذ وقت طويل ، كما قد شغلت أذهان كل الحكام المتأخرين . لم يتحسأ أبوه كنستانتينوس للاضطهاد قط ، ولا يستبعد أن كان بين أهل بيته أتباع للدين المسيحي ، لأن إحدى بناته كانت تحمل اسم أنستاسيا Anastasia ومثل هذا الاسم مسيحي دون شك . ولم يكن ليفوت قسطنطين أن يلاحظ أن أباه ، دون أبناء جيله تقريبا ، قدم مات في فراشه ميتة سالمة . أما الأباطرة الأوائل الذين ناصبوا المسيحيين العداء — نيرون ودوميشيان وديكيوس وفاليريان — فقد تعرضوا لمبتات انطوت على وحشية أو مهانة ، فقد ضرب دقلديانوس في السنوات القليلة الماضية بالعجز والمرض ، ومات جاليريوس من أثر داء مبرح قاس ، واختطف الموت ماكستتيوس غريفا في مياه نهر التير وقت فيضانه ، وبدا كما لو أن أوفق سبيل — وبالنظر إلى الحقائق السافرة — هو عقد صلح ، مع هذا الإله القوى .

ويبدو أن قسطنطين قد مر وهو في هذه الحالة النفسية الذهنية بتجربة دينية عميقة ، قص طرفا منها (وإن لم يحدث ذلك إلا بعد انقضاء عدة أعوام على الحادثة) على صديقه المؤرخ الكنسي أوسيبوس Eusebius . ومؤدى ما رواه قسطنطين لأوسيبوس هو أن حيرته وقلقه وتردده في اختيار السبيل الأوفق لمواجهة القوات العارمة التي حشدتها عدوه ماكستتيوس ، صلى إلى إله أبيه (ولا بد أن ذلك هو الشمس القاهرة) صلاة طويلة لحوثة . وإذا به يرى هو (وجيشه) في أصيل يوم من الأيام ، في أفق السماء صليبا واضح المعالم يقع فوق قرص الشمس ، وعليه كلمات تقول : بهذه العلامة تغلب أعدائك . وظهر له المسيح في تلك الليلة في حلم ومعه علامة الصليب التي ظهرت نحو ظهر ذلك اليوم ، وأمره أن يصنع لها صورة يحملها في المواقع كترس يحميه من

أعدائه . فاعلم أن استدعى العمال لصنع الراية الشهيرة *Labarum* وهى راية عسكرية انفرد بها ، على شكل حربة تحمل صورة الامبراطور يعلوها لإكليل نقش داخله حرفا *xp* وهما الحرفان الأولان من اسم المسيح *Christos* .
ربما كانت هذه الرواية عن سيرة قسطنطين تعود إلى عشرين عاما انصرمت بعد وقوع معركة ملفيان بريدج . بيد أن لدينا قرينة أخرى أسبق تاريخا هى ما كتبه لكتانتىوس *Lactantius* ، وكان مسيحيا ، فى عام ٣١٥ ، إذ قال إن قسطنطين قد جاءه فى حلم عشية المعركة أن يضع « الشارة المقدسة للآب » على دروع جنوده ، واستجابة لهذا الأمر خاض جنوده المعركة ضد ماكستيتوس وقد ظهرت على دروعهم علامة *xp* . وأسفر هذا اليوم التاريخى المشهود وهو ٢٨ أكتوبر عن نصر مؤزر ، نصر لم يكن ينتظر قط (فمن كان يحلم أن يهجر ماكستيتوس أسوار روما التى دعمت استحكاتا وحصونها مؤخرا ؟) بيد أنه كان انتصارا سريعا تاما ساحقا .

والرأى عندى أن هاتين الروایتين اللتين تصفان — فيما يبدو — رؤيتين منفصلتين ، وقعت إحداهما فى وقت ما قبل المعركة والأخرى عشية المعركة ذاتها ، صيحتان صادقتان إلى حد بعيد نظرا لأنهما تتفقان فى الواقع تمام الاتفاق مع طبيعة العقلية الوثنية . ولم يكن قسطنطين فى صلواته التى رفعها آنذاك وفى تنفيذ الأوامر الصادرة إليه منكرا بالضرورة فى تلك اللحظة عينها للآلهة الرومانية ، فالأمر لا يعدو أنه كان يبتهل لإله آخر ، إله غير روماني بالطبع ولكن قوته فيما يقال عظيمة . ولا مرأ فى أن إلها يستجيب إلى الصلوات بمثل هذه السرعة وينعم بذاك الانتصار الساحق مجازاة لقسطنطين على طاعته له ، لا بد أن يكون حاميا جبارا شديد البأس ، ولا عجب بعد هذا البرهان أن يعقد عزمه دوما على تأييد عقيدة هذا الإله المسيحى وفرائض ديانتهم .
والحقيقة أن قسطنطين أمر عقب انتصاره بإقامة تمثال له فى مدينة روما يصوره حاملا صليبا فى يده اليمنى ، مع نقش يوضح أنه أحرز النصر « بهذه

العلامة المنقذة ، ولكن الظروف لم تكن تسمح له بالإفصاح علانية عن معتقده الخاصة مهما كانت قوتها إلا بطريق تدريجي تراعى فيه الحيلة والحذر ، وإلا فيبقى على وحدة العالم الروماني التي تحققت بشق الأنفس . وبالنظر إلى ذلك لا يمكن اعتبار قسطنطين « مسيحياً » ولكنه أقرب إلى شخص موال ومؤيد للإله المسيحي ، ولم يكن في الإمكان إعلان القبول التام للدين إلا بعد مضي فترة من الزمن .

وعلى الرغم من ذلك فإن خطواته التالية جديرة بالتنويه . فلما كان قد أصبح بالفعل حاكماً للغرب ، فقد اتفق على عقد اجتماع مع أوغسطس الشرق الجديد ليكيينوس في ميلانو في أوائل عام ٣١٣ ، وتعمد الشريكان بكفالة الحرية المطلقة للعبادة لجميع المواطنين ، وكان ذلك معناه وقف اضطهاد المسيحيين . وهكذا لم يزد ليكيينوس وقسطنطين على أنهما « أجازا » رسمياً اعتناق الدين المسيحي ، ولكنه على حين أن ليكيينوس لم يزد على اعترافه بالإله الأعظم *summus deus* ، فإن قسطنطين وثق صلته بالآباء المسيحيين ، وأعرب عن رضائه على رجال الإكليروس المسيحي *clerici* نظراً لأن صلواتهم ونصرعاتهم تثبت دعائم الإمبراطورية ، ومنذ سنة ٣١٨ يمكن تبين الحرفين الأولين من اسم السيد المسيح *XP* وإن لم يكونا بارزين واضحين ، على الخوذة التي يلبسها قسطنطين في صورته على قطع العملة . وفي التشريع أيضاً برزت كثير من النقاط الجديرة بالملاحظة . ولكنه وإن كان قد تيسر لقسطنطين وليكيينوس أن يتفقا على الإيمان بإله أعظم *Summa deitas* أو على أى اصطلاح آخر يتوخى جانب السلامة في عموميته وعمومه ، فقد برزت بمضى الزمن نقط للخلاف حول مسائل أعظم خطراً ، ولم يكن هناك مفر من وقوع شجار بين الشريكين اللذين لم يلبثا أن انقلبا إلى خصمين ، انتهى بخروج قسطنطين منه بعد معركة خريسوبولس *Chrysopolis* في ١٨ سبتمبر سنة ٣٢٤

متوجهاً بالنصر ، فأصبح بذلك الحاكم الأوحد لنطاق السلطة الرومانية .
وهنا أيضاً لم يلجأ قسطنطين إلى الإصلاحات الجبرية الصارمة . فإن الهدف
الأول لـأى إمبراطور ، كما يدركه كل مواطن روماني هو تحقيق السلم والوحدة
والأمن للدولة الرومانية ، وليس من سبيل إلى ذلك بغير شعب موحد متآلف
يذود عن حياته جيش قوى ، ثم يتحتم لتزويد ذلك الجيش بالمؤن ألا
يتوقف دولا العمل في كل من ميدان الزراعة والصناعة ، ثم إن أمر القيام
بنفقاته يستلزم جباية الضرائب على نحو دقيق صارم . وليس بوسع إمبراطورية
تظللها وحدة حقيقية أن تتبع نظام التقسيم الذي وضعه دقلديانوس ، فقد
استنفد هذا النظام أغراضه ، وينبغي الآن أن يكون لها إمبراطور واحد
وعاصمة ثابتة بدلاً من أربعة أباطرة لكل منهم عاصمته المتنقلة وبلاطه الخاص .
كما ينبغي أن تقع هذه العاصمة في موقع يني بمقتضيات العصر ، في مركز خطوط
المواصلات ذاته على الطريق الممهد العظيم الذي يربط بين الحدود الشرقية
والحدود الشمالية الغربية . ولم يعد في مقدور روما أن تفي بهذه الحاجة ، ووجد
قسطنطين ضالته في المدينة التجارية اليونانية القديمة بيزنطة التي تقع على بحر
مرمرة ، وتشرف على النقطة التي تفصل بين أوروبا وآسيا . ولما كانت هذه
المدينة تحتل موقعا طبيعيا حصينا — وقد كادت خطط سبتيميوس سيفيروس
الجنسور العاق لإبان حصار دام ثلاث سنوات — ولما كانت الطبيعة قد وهبتها
مرفأً ممتازا هو القرن الذهبي ، فقد كانت تمثل الموقع الأمثل للعاصمة الجديدة
في الدولة التي أرسيت دعائمها من جديد ، أما عن مدينة روما القديمة بما كانت
تحمله ذاكرتها من صور الحياة في ظل النظام الجمهوري ، وما كان عليه
شيوخها الأرستقراطيون المثقفون من التعصب والتشبث بتقاليد الماضي ، فكانت
تبعث في نفسه الضجر والسأم ، وهنا وفي العاصمة الجديدة لن تقدم الذبائح
قط إلى الآلهة الوثنية ، بل ستقام بها على عكس من ذلك كنيسة شاحخة جديدة
تمجد الإله الواحد الحق .

وهكذا أصبحت القسطنطينية (وهي مدينة استانبول الحديثة) تلقب «بروما الجديدة»، وبانت عاصمة ورمزا في الوقت ذاته للإمبراطورية الناهضة. بيد أن هذه الإمبراطورية كانت في حاجة أيضا إلى الجيوش، لأن رؤيا بروبوس حول استتباب السلام الوشيك (انظر الفصل الرابع) لم تكن بعد قد دخلت في عالم الواقع، وكان من الضروري التأهب للحرب والدفاع. ومن ثم وجب على كافة الطبقات أن تواصل نشاطها، وتطلب هدف ضمان توفر الأيدي العاملة أن يتخذ الأبناء حرف آبائهم وأصبح العمل سواء أكان في الأرض أم في مصانع الأسلحة والملابس أم في وسائل النقل بمشابة حرف متوارثة. ولما كانت مسألة ضمان توفير المواد الغذائية مسألة حيوية، فقد شرع قسطنطين بمقتضى مرسوم من قبله، ما كان مألوفا بالفعل في بعض المناطق، ألا وهو ربط العمال الزراعيين coloni بالأرض التي يفلحونها. وقد آلت إلينا الفقرة الرئيسية لهذا المرسوم. ويمضى قسطنطين بعد أن يقرر واجب ملاك الأراضي في إرجاع المزارعين الفارين ودفع ضريبة الرأس المطلوبة فيقول: «ويحسن أن يصفد المزارعون coloni الذين يعمدون إلى الفرار حيننا بعد حين بالأغلال، ويعاملوا معاملة الرقيق حتى يجبروا على القيام بالواجبات التي لا تليق إلا بالأحرار». والجانب المظلم للبعث الذي تنطوي عليه هذه العبارة الأخيرة مؤداه في إيحاء: «إذا أبنى إنسان أن يواجه المصير الذي قدر له، فليرد إلى الرق والعبودية». وما من شك في أن حاجة الدولة هي التي دعت إلى ذلك، بيد أن هذا المرسوم مهد الطريق لنظام الرق، وبانت العصور الوسطى على الأبواب.

وكان قسطنطين يشعر أن من واجبه أن يبرهن بكل ما يملك عن امتنانه لهذا الإله المسيحي الذي كان له نعم التصير والمعين. وما من شك في أن الله سيعين الإمبراطورية ويصونها إذا ما اجتذبت إلى عبادته جماعات أخرى من المواطنين، وعلى ذلك فقد أعفى كهنته (Clerici)، بمقتضى مرسوم صدر عام ٣١٩

من جميع الواجبات غير الكهنوتية . جاء في المرسوم د ويعني الذين يسمون
بالإكليروس Clorici إعفاء كلياً من كافة الواجبات (Munera) ، حتى لا يتسنى
لأى امرئ* يريد انتهاك حرمة الدين ، أن ينتزعهم من خدمتهم الكهنوتية
المقدسة . وفي سنة ٣٣٢ قرر قسطنطين نهائياً إعفاء المسيحيين جميعاً من
مؤونة الاشتراك في مراسيم الدولة الوثنية ، كما شرع في بناء الكنائس بنفسه
وقوى في الآخرين الدافع إلى ذلك ، وأمر بزيادة عدد نسخ الكتاب
المقدس حتى تتوفر للكنائس الجديدة النسخ^(١) الخاصة بها ، كما أسبغ على
رجال الدين المسيحي طائفة أخرى من الامتيازات . وكان يشعر أولاً وقبل
كل شيء بأن الله قد وضع على عاتقه عبء الحيلولة دون وقوع شقاق بين المؤمنين
المسيحيين ، وكان يؤمن بدوره ، وقد نشأ على الطوائع الوثنية ، بأن الانقسام
حقيق بأن يؤدي إلى انهيار بنيان الدين القويم ، فيكون من جرائه
ابتعاد رحمة الإله الذي لحقت به الإساءة . عندما واجه قسطنطين المهرطقة
والبدع الدينية لجأ أول الأمر إلى وسائل الضغط والقمع ، ولكنه ندم على
ذلك فيما بعد ، فقال : د ليس لغير الأحق أن يأخذ سبيل الانتقام ، في حين أنه
يجب أن نكسب ذلك إلى الله ، لا سيما وأن من واجبات ديانتنا أن توقن بأن
كل ما تعانيه من خجل هذا الصنف من الناس إن هو في نظر الله إلا استشهاده .
وقد روى أن وسيلتي النقاش والإقناع أجدي من القمع . حدث منذ خمسة قرون
مضت أن استدعى حاكم روماني ، عن حسن نية ، أقطاب المدارس الفلسفية
المختلفة ، وطلب إليهم أن يسعوا بكل سبيل إلى حسم الخلافات المذهبية القائمة
بينهم . أما قسطنطين فقد استدعى بدوره وفي واقعية رومانية بحتة ، أساقفة
جميع الولايات لحضور مؤتمر عام في نيقية Nicaea ، وفي مايو عام ٣٢٥

(١) وتطلب ذلك البت في أمر الكتب التي يجب تضمينها «العهد الجديد» من الإنجيل،
ومن ثم تم تقرير القانون الكنسي .

اقتتح بنفسه رسميا هذا الاجتماع الجليل (وهو أول المجامع المسكونية الكنسية) وأعرب عن أمله ورجائه في أن تتم وحدة المسيحيين واجتماع كلتهم .

وهكذا توصلت الإمبراطورية الرومانية بعد ما راودها من شكوك وما أظهرت من عداء طيلة هذه الأعوام إلى نوع من الوفاق مع الدين المسيحي الذى كان مقدرا له أن يصبح الدين الرسمى للإمبراطورية ، وذلك في خلال ثلاثة أجيال . لقد كانت هذه في الواقع خطوة جبارة ، وإن كان هذا لا يمنع أن تنتقد ويثار بشأنها الجدل ، وهل كان من الخير للكنيسة المسيحية أن تقبل على هذا التحرر رعاية وحماية الدولة التى ساءمتها العذاب والاضطهاد ؟ وربما قيل أيضا إن غزم الكنيسة المسيحية من جراء ذلك كان أفدح من غنمها . فعلى حين أن الجهر باعتناق الدين المسيحي كان ينطوى فى الماضى على خطر كبير ، ومن ثم يتطلب شجاعة نادرة فقد بات منذ ذلك التاريخ مأهون العاقبة ، بل عونا على قضاء الحاجات ونيل الرغائب ، ومن ثم لم يكن ينتظر من الأجيال التالية أن تحتفظ بالروحانية السامية والحماس والغيرة على الدين اللذين عرفا عن الأجيال السالفة . ولقد احتدم الجدل طويلا حول الدوافع التى حدثت بقسطنطين إلى إحداث هذا الانقلاب الخطير وحول مدى إخلاصه فى ذلك ، ولكن لما كان من المحال الحصول على براهين قاطعة ، ولما كان الميل والهووى حقيقين بأن يؤثرأ فى الحكم على هذه المسألة ، فلا يسعى هنا إلا أن أعرب عن وجهة نظرى الخاصة .

نشأ قسطنطين فى عالم وثنى يؤمن بتعدد الآلهة ، عن أب كان يميل دون شك إلى ضرب من ضروب الإيمان بإله واحد يتراعى فى صورة الشمس ، كما تشبع خلال سنى تكوينه الأولى بالإيمان بالشمس ، باعتبارها ربة الإمبراطورية .

الرومانية ، ولا يستبعد أن فرنسا قد أتاحت له من قبل لأن يتعرف على الإله المسيحي « شمس البر » ، ولا بد أنه أطل التفكير والتأمل في قوة ذلك الإله وفي عقيدة أتباعه ، وإذا كان قسطنطين قد آمن بعدالة قضيته ضد ما كستتيوس (الأمر الذى تدعمه كافة القرائن) ، فإن مغزى كبيراً تنطوى عليه الحقيقة الماثلة في أن الأمر الذى تلقاه رداً على صلاته كان مرتبطاً بالرمز المسيحي المميز ، وهو الصليب الذى شوهد فوق قرص الشمس التى كان أبوه يتعبد لها .
ولئن كان قسطنطين قد سعى بعد ذلك النصر المؤزر الذى أسيغ عليه إلى أن يبنى بدينه بإقامة المباني الفخمة وإحاطة رجال الدين المسيحي بمظاهر التكريم وشمول الكنيسة بوجه عام بعطفه ورعايته ، فرد ذلك تعلقه بروح الديانة الوثنية وبعقيدة الإنسان البدائي . بيد أنه عندما شرع قسطنطين ، فيما بعد ، بدافع من شعور عميق في هذه المرة بفضل الله عليه في أن يسائل نفسه قائلاً : « ومن أنا حتى يفعل الله كل ذلك من أجلي ؟ » ، فلا نعود نلاحظ روح الاحتزاز الوثني أو التقيد بتنفيذ عقيد ملزم ، بل نلس بدلاً من ذلك دلائل قاطعة على اتضاعه وإيمانه .

ولا شك في أنه شرع منذ عام ٣١٢ وما تلاه ، يوثق علاقته بالأساقفة والآباء الروحيين ، ليستزيد منهم بجوهر عقيدته علماً ، كما حاول أن يتعلم المزيد ممن كانوا يبدون أقدر من غيرهم على إدراك وتفسير مشيئة الآب .
ولنا لا تتجاوز حدود الإنصاف إن قررنا — لو حق لنا أن نحكم استناداً إلى أقواله التى تأكدت نسبتها إليه في العصر الحديث — إن هذه الأقوال تميظ اللثام عنه في ثوب رجل يؤمن بإله كان له أن يطلق عليه اسم « الآب » ،
بيد أنه أب من طراز الآباء الرومانيين القدماء ، في صرامته واستبداده ، وهذا الإله ذو قدرة وجبروت ، كما أنه وإن كان يرضى عن عمل بشرائه ، إلا أنه قاض عادل وإن كان صارماً شديد البطش في عقابه . ولا تنطوى هذه هذه النظرة على مشاعر تميز الروح المسيحية بوجه خاص ، إذ أنها لا تكشف

عن محبة الله بقدر ما تكشف عن رهبته . وليس لنا أن نعجب ، لو كانت هذه هي نظرته حقاً ، عن امتناعه عن التقدم للعمودية حتى أصبح على فراش الموت ، إن المعمودية كما علمنا ترتوليان وغيره تغفر جميع الخطايا ، ولذا فالويل للإنسان الذي ينساق إلى الزلات من جديد بعد معموديته . وفي هذه النقطة بالذات كان هناك الكثير مما يثير مخاوف الإمبراطور وقعه ، فلا بد أنه كان يدرك ما كان عليه خلقه من حدة وانحراف ، الأمر الذي أدى به عام ٣٢٦ إلى أن يقضى بالموت في ساعة واحدة على ابنه كريستوس Crispus وزوجته فاوستا Fausta لأسباب يتعذر التحقق منها في الوقت الحاضر ، ولو أن الكتاب الوثنيين كانوا أسبق إلى إلصاق النهم الخلقية بهما . وكيفما كانت دوافعه ، فإنه لم يقبل المعمودية على يد أوسيبوس إلا بعد أن أدرك أنه قد أشرف على الموت ، وعند ذلك صعدت روحه إلى بارئها في الثاني والعشرين من مايو سنة ٣٣٧ .

وبرغم أننا لا نستطيع أن نتبين في معتقدات قسطنطين الدينية كثيراً من مبادئ الدين المسيحي إلا أن الجانب الأعظم من القوانين التي سنّها بعد عام ٣١٥ تكشف عن طبيعة إنسانية خيرة . كما اتسمت بعض التدابير التي اتخذها بالجلال والسمو ، وكشفت عن احترام وتقدير للنفس البشرية ، في عصر قسّ فيه الحروب المتتالية والمعارك المتلاحقة قلوب الناس وسلوكهم وطبعتهم بطابع من الوحشية والقسوة . لم يبلغ الرق — وما من حاكم من بني البشر أمكنه أن يفعل ذلك بجمرة مزدقله — بيد أن قسطنطين وضع في اعتباره ألا تشرد العائلات التي تعمل في ضياع الإمبراطور في حالة بيعها ، كما أنه قضى بأن يدان السيد الذي يعامل عبده بفظاظة وقسوة تفضي به إلى الموت ، وفي النهاية ، تهيأت للعبد جميع الفرص كي يبرهن عن جدارته واستحقاقه للحرية والعق .

وثمة قوانين أخرى كانت ترمى بوجه خاص إلى مساعدة الفقراء والضعفاء

أو المنكوبين ، فإذا ما عجز مزاد عن الوفاء فإنه فلا ينبغي أن يحجز على عبيده العاملين في الحرث أو الثيران التي تجر المحاريث ، لاستيفاء هذه الديون ، لأن ذلك سيحرمه من الوسيلة الوحيدة التي يملكها والتي تمكنه من سداد الدين ، وقضى مرسوم آخر بحماية الأبناء الذين يفقدون أماتهم من جوع آبائهم أو خداعهم ، وفرضت في عام ٣٢٠ عقوبات رادعة على جريمة الاغتصاب . والقانون لا يمكن أن يتأثر بالأشخاص ، فقط ، وعلى ذلك تقرر أن يحاكم المتهم بجريمة جسيمة في الولاية التي ارتكبت بها ، لا في موطنه حيث قد يؤثر جاهه ونفوذه على مجرى العدالة . وقضى بالألا يثقل كاهل الكهنة والحاخامات اليهود بالواجبات المدنية بل يعفون منها شأنهم شأن الكهنة المسيحيين . وسن قسطنطين لسكان المدينة — رغبة منه في تخصيص يوم للراحة — قانوناً يقضى بأن « تغلق المصانع ودور المحاكم في يوم الشمس المكرم (وهو اليوم الذي ما زال يسمى في الإنجليزية يوم الشمس « الأحد ») ، وإن كان لا يحق أن تتعطل في ذلك اليوم أعمال البر أو الرحمة مثل إطلاق سراح العبيد ، كما أنه لا ينبغي أن يضيع عمال الريف فرصة جمع المحاصيل والغلال . وصدر عام ٣١٦ مرسوم يحتاج على عادة وسم وجوه المجرمين بوصمة العار لأن هذه الوجوه قد رسمت على صورة طلبة الله البهية . ولا ينبغي كذلك إجبار المجرمين المدانين على احترام المصارعة أو ممارسة أى عمل إجرامى لأن مثل هذه المشاهد الدموية أصبحت نابية غريبة على عصر سلم وهدوء . ولعل آية ذلك التغيير الذى طرأ على الطابع السائد في التشريع ، المرسوم الذى صدر في عام ٣٢٠ والخاص بمعاملة المساجين داخل السجن . فقد قضى بالألا يصفد المساجين بأغلال حديدية ثقيلة تحجز في الأبدان ، بل ينبغي أن تكون الأغلال خفيفة . وأن يسمح لهم بالضوء الكافي وبممارسة الرياضة اللازمة لأبدانهم ، كما تقرر أن يعاقب السجانون عقاباً رادعاً على فظاظتهم وقسوتهم . وأخيراً فقد سن قسطنطين عام ٣٣١ قانوناً يقضى بحرمان الآباء من أبوتهم لأبنائهم الذين

يطرحونهم في العراء ويتخلون عنهم ، وهذه عادة شاعت في أوساط الوثنيين وقد نهى عنها كلية الكتاب المسيحيون ، وقضى هذا القانون بأن من يعثر على طفل مطروح وينقذه ، فله الحق الكامل عليه .

ولعل في هذه النخبة المختارة من القوانين ما يكفي لإلقاء بصيص من الضوء على الطابع الإنساني الخير الذي ظهر على بعض تشريعات قسطنطين ، لقد كان الإمبراطور يرى بمثل هذه التدابير وتلك القوانين إلى تحقيق ثلاثة أهداف في وقت واحد ، وهي مواجهة متاعب الحالة الاقتصادية والاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية ، والعمل بما اعتقد أنه يمثل مشيئة الآب . ذلك لأن العالم لم يعد ينعم بذلك العيش الرغد في ظل الثقافة والعلم ، الذي كان ينعم به في عهد مثل عهد أوغسطس أو هادريان ، فإن سبعين سنة أو تزيد من القتال والكفاح قد هبطت بالمستوى الذهني والعلمي في البلاد ، واستنفدت موارد الإمبراطورية ، فلقد كان الأباطرة الذين تولوا الحكم في مستهل القرن الرابع جنوداً أولاً وقبل كل شيء ، لهم الحماس والقوة ، ولهم الصلابة والإيمان والعزم ، وإن كانوا ينزعون — عند ما تعوزهم الحيلة — إلى الأمر والنهي والردع والقسر . وتكشف الأقوال التي وردت على لسان قسطنطين — رغم صدقها الذي لا شك فيه — عن حال رجل لم تتيسر له فرص التعليم الرسمي العام ، فباتت نظره الألفاظ المطولة والعبارات الرنانة الطنانة . بيد أنه اضطلع بواجباته على خير وجه وأبلى فيها البلاء الحسن ، بأن كان على حد تعبيره « عين الله الساهرة على من هم خارج حظيرة الكنيسة » ، وهو وإن احتل أعلى مرتبة يمكن أن يبلغها لإنسان على الأرض ، فهو يعترف في خشوع بأنه عبد خاطيء . وهو لم يدخل إلى أحضان الكنيسة إلا وهو على فراش الموت . وبهذه الصورة قضى ذلك الرجل الغريب الأطوار العظيم المسكاته منحه ، وغرابة أطواره تكمن في جمعه بين متناقضات فهو مخلص سليم الطوية ، داهية واسع الحيلة في الوقت ذاته ، وهو مؤمن بالدين المسيحي متوجس متخوف تخوف الوثني ،

وعظم مكائنه تمكن من أن يمتد رومانياً خالص الطبع في حكمته وقدرته على حسم الأمور ، وفي تقديره الفعوى لساعة التحفز وساعة الهجوم .

ربما راوده الأمل بمرور على فراش الموت في أن يتولى أبناؤه الثلاثة حكم الإمبراطورية التي قدسوا قبا بينهم ، في ظل السلام والوئام ، ولعله أمل أيضاً في ألا تكون لوسيلة الإمبراطورية انفصام ، بيد أنه كان حقيقاً به أن يدرك أن آماله لم تكن إلا سراباً . ذلك لأنه ، رغم جميع الإصلاحات التي تمت ، فقد ظل البرابرة وأقربهم بالمرصاد خارج الحدود ، على أهبة واستعداد لأن يقتحموها عند ضعف أية نقطة منها ، ولم تعد الدولة تتجه بإمكاناتها إلى السلام والوفرة والإنتاج بل سخرت مواردها لمواجهة أزمة دائمة متفاقمة ، تثقل فيها كواهل جميع طبقات الشعب بالضرائب الباهظة ويدفع أبناؤها إلى العمل دفعاً . وبغض النظر عن النفقات المعهودة لسكل من الجيش والجهاز الحكومى ، فلا بد أن كانت التكاليف الإضافية التي استلزمها أعمال البناء والتحصين والتزيين لمدينة القسطنطينية ، (كما عرفت طوال ستة عشر قرناً تقريباً) ، أو روما الجديدة ، ضخمة باهظة .

لقد تغيرت نظرية الحاكم والحكومة تغييراً شاملاً في روما الجديدة التي انتقل إليها مقر الحكم ، بعد ثلاثة قرون ونصف قرن من إعلان رئيس الجمهورية الأول الحرب على كليون باثرة رغبة في الاحتفاظ بسيادة روما وإيطاليا . ففي عام ٢٥ ق م . كان يدير دفة الأمور في الإمبراطورية ويمسك بقيادتها رجل ذو سلطة عليا ، لا يزيد مع ذلك عن كونه مواطناً عادياً لا يتميز بشيء عن سائر المواطنين ، يفخر بأنه يلبس التوجا ، وهو اللباس الوطنى العادى . ويحميا في دار لا تختلف عن الدور البسيطة التي كان يقطنها النبلاء الرومانيون ، وكان قريب المنال رهن الإشارة خاضعاً لأحكام القانون . وقرابة عام ٣٣٧ كان هذا العالم ذاته يخضع لحاكم له كل سلطات ومظاهر العاهل المطلق ، وإن كان لا ينقصه إلا أن يلقب بذلك ، ويعلو درجات ودرجات فوق عامة المواطنين ، وهو فوق القانون لا يخضع لأحكامه — كان بوسع خلفائه في الواقع أن

يزعموا أنهم هم مصدر القانون — ويتميز نفخامة وأبهة ملبسه (إذ كان يضع على رأسه تاجاً أو إكليلاً مثلثاً ويرتدى حلالاً من الأرجوان أو الحرير المطرز ويتعلل هذا مرصعاً بالأحجار الكريمة) وهو لباس لا يدانيه بحال لباس رعاياه ، ويقم في قصر يتميز بالضخامة والتعقيد ، ولا يظهر لشعبه إلا في القليل النادر ، كما لا يمكن الدخول في حضرته إلا بعد المرور بطبقات الحجاب والأغوات والمآبير ، ثم لا تكون تحيته إلا تحية خشوع ورهبة تكاد تقرب من خشوع العابد لربه . ذلك لأن قسطنطين نقل وطور مراسيم البلاط الملكي ذات الأبهة والجلال التي دأب أسلافه الأباطرة على اقتباسها من بلاد الفرس في عهد الأسرة المالكة الساسانية ، كما أسبغ على البلاط وأقسامه طابعاً قريب الشبه من طابع التقديس الديني . كما أن أسماء القصر نفسه ، ومجلس الدولة الأعلى والحزاة وحرس الإمبراطور الخاص ، كانت تكرم بأن تقرن بصفة التقديس . ولا نحسب أن هذه المظاهر لم يكن لها ما يمد لها ، فقد ورد في أشعار صغار الشعراء خلال القرن الأول تعبير « الإمبراطور دوميشيان المقدس » ، أو « يديه المقدستين » ، بيد أنه لم يكتب لهذه العادة في ذلك العهد الذبوع والانتشار لحسب ، بل أصبحت جزءاً لا يتجزأ من لغة الحياة اليومية . والحقيقة أن تقاليد بلاط قسطنطين التي تطورت على يد شرملة والإمبراطورية الرومانية المقدسة ، قد أصبحت الأصل الذي نشأت عنه جميع المراسيم الدبلوماسية والحكومية في العصر الحديث ، سواء في ظل النظم الملكية أو الجمهورية . وربما قيل إن مثل هذا الضرب من الحكم الفردي المحاط بمظاهر الأبهة والعظمة ، كان لازماً للتأثير على الجند المتمردين ولإلقاء الرعب في نفوسهم أو إثارة عجب أهل الريف البسطاء ، بيد أنه ليس من شأن هذا الزعم إلا أن يكشف عن مدى ابتعاد النظام الإمبراطوري في عهوده المتأخرة عن مبادئ المدينة الدولة الخاصة بالحرية الفردية والاستقلال في الرأي . أما عن الحرية الفردية فلم يبق من معالمها إلا القليل ، كما أوشك أن يندثر ذلك المستوى العالي للرأي العام المثقف الذي كان سائداً في وقت ما في حواضر الولايات ،

لأنه لم يتسع وقت أباطرة القرن الثالث، كما لم يكن لديهم الميل إلى تلقين شعبهم الذى نال الحقوق السياسية مؤخرأ ، المسئوليات الكاملة المترتبة على حقوق المواطنة الرومانية .

بيد أنه ليس من الإنصاف فى شيء أن ننحى باللائمة فيما انحدرت إليه الأمور على قسطنطين ، لأن ذلك معناه أنه كان قادرا على النظر إلى مشا كل عصره بمنظار القرن العشرين . إن ما كان يرمى إليه قسطنطين ، وما سعى إلى تحقيقه بكل الإمكانيات التى توفرت لديه ، هو تهيئة أسباب الاستقرار والقوة ، فى جميع النواحي ، لمجموعة البلاد الخاضعة للحكم الرومانى ، وحمايتها من تلك الأخطار التى تكشف عنها أنياب القرن الثالث ، ولكى يحقق هذا الهدف لجأ إلى أحدث أساليب عصره الفنية وأقدرها على تحقيق الغرض المنشود .

فى الميدان العسكرى طور نظم دقلديانوس الخاصة باستخدام القوات الإقليمية التى يتم تجنيدها محليا بقصد حراسة الحدود وتلقى الصدمة الأولى للهجوم ، مع الاحتفاظ بجيوش صغيرة متنقلة مدربة ، فى الوقت ذاته ، لى يهرع بها إلى النقطة المحددة بأعظم قسطنطين من الخطر (أو حيث نفذ العدو) . كما استخدم القوات المدربة على الأسلحة الخاصة على نطاق واسع ، فكان هناك رماة السهام والمقاليع وجماعات الهجاة والرماحون والفرسان ذوو الدروع الثقيلة (catafractarii) والحفارون والمتسللون ، على حين أن المهندسين الرومانيين توصلوا إلى تصميم منجانيقات رهيبة (انظر الفصل التاسع) . وختم قسطنطين هذه التطورات والإصلاحات بالخطوة المنطقية الحتمية ، ألا وهى تعيين قائدين فى القيادة العليا بسميان رئيسيين Magistrii . وكان دقلديانوس قد أطلق سلفا هذا اللقب على رؤساء الديوان الإمبراطورى ودواوين الدولة ، مثل ديوان المحفوظات والعدل والمراسلات . أما الآن فيبدو أن قسطنطين قد عين رئيسين عسكريين أحدهما رئيس للشاة Magister Peditum والآخر رئيس للفرسان Magister Equitum وكانا يعتبران ، نظرا لما كان لهما من سلطة عليا على حكام

الولايات وعلى الموظفين العسكريين الأدنى منهم رتبة ، بمثابة رئيسين لأركان حرب الإمبراطورية (ويليان في المرتبة الإمبراطور مباشرة) . ولعله من الطريف أن نذكر أن هذا اللقب كتبت له الحياة إلى وقتنا هذا في المنصبين المعروفين في إنجلترا باسم « أمين السجلات » *The Master of the Rolls* و « أمين العتاد الحربي » *The Master of Ordnance* . أما في ميدان خدمات النقل والحراسة ، فقد روعي لإجراء تدريبات مستمرة للأساطيل الإقليمية — وهى أساطيل بريطانيا والبحر الأسود وموريتانيا — والأساطيل النهرية الصغيرة ، كما تقرر إنشاء محطات للصيانة (*reliquatones*) في المواقع المناسبة . وكانت الطوائف المشتغلة بأعمال النقل النهري تنظم في نقابات لضمان وصول الإمدادات للجيش دون انقطاع . كما طبق نظام النقابات على مهن ، أخرى ، بيد أن المقصود به كان دائماً ضمان تدفق الأيدي العاملة بلا انقطاع إلى المرافق والمنشآت الهامة . وبدا كما لو أن استخدام العبيد في زراعة الضياع الواسعة هو الحل القريب للمشكلة التي تتعلق بكيفية زيادة محاصيل الغلال وغيرها من المواد الغذائية . واكتسحت العملة الجديدة المؤلف من قطعتين ذهبيتين هما *aureus* والـ *solidus* وقطعة فضية ثالثة ، وهى التي كانت بمثابة تعديل لإصلاحات دقلديانوس النقدية (انظر الفصل التاسع) اكتسحت العملات المحلية والإقليمية اكتساحاً تاماً ، وكاد يراد بها نظراً لوحدها ودقة وزنها أن تهبط وسيله ثابتة للتعامل بعد التدهور والانحيار المفجع الذى طرأ على العملة في القرن الماضى .

أما في الدين فقد سار موكب الإصلاح والتجديد بطيئاً شيئاً ما . كان مسطنين قد اكتشف — في اعتقاده — الإله الواحد الحق ، إلهما استطاع أن يؤيد أتباعه بنصر مؤزر لا يهانه ما يمكن أن يمنحه إله كجوبيتر أو هرقل فلا شك في أنه كان يحرص على نيل الخلاص لنفسه وروحه — وقد رأينا

كيف أنه أرجأ معموديته حتى اللحظة الأخيرة — بيد أنه كان أشد حرصاً من ذلك على صون الدولة الرومانية *res Romana* وعلى أن يوفر لها أسباب السلامة والأمن . ورأى أن ذلك لابد وأن يتحقق لو أمكن إقناع السكان في كافة أنحاء الإمبراطورية بنبذ الآلهة القديمة واعتناق الدين الجديد . ولكنه على الرغم من أن قسطنطين كان يأمل في بلوغ هذا الهدف ، إلا أنه كان أحصاف من أن يفرض رغباته على شعبه طرفة واحدة . وتتفق نظراته في هذه النقطة مع ما أعرب عنه أحد معاصريه وهو هيلاري *Hilary* أسقف بويتيرز *Poitiers* وربما كان قسطنطين هو الذي أخذ برأى هيلاري ، إذ احتج هذا الأسقف بشدة وجراً على إجبار جماهير الرجال والنساء على الإيمان جماعياً بالعقائد الديلية وقال : « إن الله أباح الطريق إلى معرفته للبشر جميعاً ولكنه لم يطلبها منهم قسراً » . ثم جهر بقوله : « وهو يأبى الإيمان الذي يأتي عن طريق الإكراه والقسر » . وبغض النظر عن ذلك ، فإن الحكمة والمنطق رسماً لقسطنطين طريق التأييد ، وحذراء من مغبة إشاعة الانقسام في الإمبراطورية . ذلك لأن ثمة صفة كانت تميز فيما يبدو جميع أباطرة ذلك العصر — على اختلاف طلباتهم — وهى الولاء الصادق والانكباب التام على صون الإمبراطورية . إن الإيمان بالدولة الرومانية *res Romana* والرغبة في خلودها أبهى الدهر كان في الواقع هو الديانة الحقيقية لدى هؤلاء الأباطرة وإلى جانب هذا الهدف يتضاءل كل شيء .

خاتمة

مع أنه لم يقدر لقسطنطين أن يستولى على السلطات الواسعة التي تتمتع بها أوغسطس الميمون الطالع أثناء حكمه ، إلا أنه تولى ، قبل وفاته عام ٣٧٧ ، مقاليد الأمور فترة من الزمن أتاحت له أن يترك الخلافة على الإمبراطورية من بعده هادئة مستتبة وأن يضمن استقرار نظام حكمه الجديد . فقد باتت مقاليد الحكم في يد طبقة محدودة العدد عظيمة المراتب والدربة ، لم تكتسب خبرتها بالدراسة الأكاديمية النظرية بقدر ما اكتسبتها بالممارسة والتطبيق العملي ، وجمعت أطراف معارفها في مدرسة الحملات وميادين القتال وما أشقها من مدرسة ، فضلا عن أن الحكومة كانت تؤثر طريق القسر والإجبار على لين أساليب الجدل والإقناع . وحظيت هذه الطبقة بتأييد المثقفين الرومانيين واليونانيين ، ومؤازرة رجال الدين المسيحي Olorioi ، الذين كان من بينهم من استوعب أروع ما حوته الثقافة القديمة .

كان نظام الحكم الجديد هذا يبشر في أول عهده بآمال عراض ، بيد أنه لم تمض خمسون سنة حتى لقي الجيش هزيمة منكرة على يد القوطيين عند أديانويل Adrianople ، وفي خلال مائة السنة احتلت واستيحت روما القديمة ، نفسها ، وفي خلال مائة وخمسين سنة (برغم أن « روما الجديدة » ظلت تنعم بالأمن وترفل في مظاهر الأبهة) كان آخر إمبراطور روماني على الغرب قد خلع عن عرشه على يد البرابرة . ولنا أن نتساءل عما بقي بعد ذلك .

ربما كان الحديث عن اللغة هو البداية الموفقة لإجابتنا على هذا السؤال . فاللغة اللاتينية ، اللغة الرسمية للإمبراطورية ، كانت قد رسخت وامتدت جذورها في الولايات الغربية ، إلى حد كفيل لها البقاء كأساس للغات الحديثة في فرنسا

واسبانيا والبرتغال ثم إيطاليا وجزرها بطبيعة الحال (١) . أما في بريطانيا فإن اللغة اللاتينية قد طلعت على (أو أضافت إلى) اللغة الكلتيّة البريطانية القديمة بالدرجة التي سمحت بتخلف نسبة ضئيلة من المفردات اللاتينية في لغة الحياة اليومية في كل من ويلز Wales وبريتاني Brittany . أما في شرقي سويسرا والتيروول Tyrol فإن اللهجات الحديثة اللغتي ريتورومانس Rhaeto-Romansoh ولادين Ladine ، تنحدر مباشرة عن اللغة اللاتينية . واندثرت اللغة اللاتينية في شمال إفريقيا في نهاية الأمر ، ولكنه ما زالت هناك في بعض قرى في دلماشيا وفي رومانيا الحديثة إلى الشرق لغة رومانية ، يتألف نصف مفرداتها تقريباً من جذور لاتينية . وبالنظر إلى أن اللغة تحمل معها أننا انتشأها التقاليد والأفكار التي ترتبط بها ، فإنه يمكن القول بأن أوروبا الغربية هي سليلات الإمبراطورية الرومانية ، بل إن انجلترا نفسها التي أدت غزوات الساكسون لها إلى نحو اللغة اللاتينية بها ، تلقت أيضاً من هذه اللغة عن طريق الغزو النورماندي ، ولذلك فإن أبناءها ما زالوا يعيشون في ميادين الفلسفة والقانون والتعليم والدين في عالم لاتيني .

أما في النصف الشرقي من الإمبراطورية ، حيث كان مقدم اللغة اللاتينية متأخراً ، فلم تلبث هذه اللغة أن انمحت تماماً ، ولو أنها بقيت في رومانيا . بيد أن اللغة اليونانية ظلت لعدة قرون متصلة راسخة في كل من جنوب البلقان والأناضول وسورية ومصر . ولم ينقطع جلها إلا في القرنين السابع والثامن ، حين اجتاحت فتوحات العرب مصر وسورية . وكان انقطاعها انقطاعاً لا رجعة فيه ، فأخذت اللغة اليونانية في الانحسار شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في الساحل الغربي من آسيا الصغرى والقسطنطينية وشمال بحر إيجه

(١) ويقال إن فعل « أحب » يجرى بصريفه في سردينيا حتى يومنا هذا بالصورة التي يصرف بها في اللغة اللاتينية القديمة أي :
أحب ، تحب ، يحب — (مفرد) متكلم ، مخاطب ، غائب — amo, amas, amat

ثم في وطنها الأصلي . ومع ذلك فإنه على الرغم مما يقال من أن قائداً عربياً دفعته غيرته على الدين إلى أن يشعل النار فيما بقي من مكتبة الإسكندرية ، فإن الباحثين العرب انكبوا فيهم بالغ على دراسة أعمال الفلاسفة والأطباء والعلماء القدماء ، وهذا هو السبب في أن العلم لدى العرب قد أينع وازدهر ازدهاراً مشهوداً ، في وقت كانت فيه أوروبا لم تزال تتخبط في ظلمات الجهل .

والحقيقة أن جانباً عظيماً من أوروبا الغربية ظل لعدة قرون يعيش على لغة مشتركة وتقاليد مشتركة ، كما كان على اتصال دائم ، أثناء ذلك ، باللغة العظيمة الأخرى ، ألا وهي اللغة اليونانية . ولم تكن كارثة أديانويل عام ٣٧٦ أو تخريب روما عام ٤١٠ هما الحادّتان اللتان قطعتا هذه الحلقة المتصلة ، بل إن السبب في ذلك هو وقوع غارتين ، الأولى : عندما استولى أحد ملوك الفاندال ويسمى كيزريك Caiseric — وقد بدأ حملته من قرطاجنة التي اتخذها قاعدة له — في منتصف القرن الخامس ، على كل من صقلية وسردينيا وكورسيكا على التوالي ، ومن ثم أغلق طريق البحر الأبيض المتوسط الذي يقطع المسافة من أقصاها إلى أقصاها ، والثانية : عندما قطعت الغزوات المتلاحقة التي شنها الهانيون Huns والأفاريون Avars والسلافيون Slavs على ولايات الدانوب ، الطريق الرئيسي الذي كان يربط في وقت ما بين بحر المانش والبحر الإدياتيكي وخليج البسفور .

ومع ذلك فإنه وإن كانت الوحدة الجغرافية واللغوية قد انفصمت تماماً ، فقد كتب البقاء لوحدة الشعوب ووحدة المبادئ . ولندقق النظر فيما تعنيه هذه العبارة . أما عن الشعب وهو الأمم ، فلنا أن نذكر ثلاث فئات منهم المزارعون والصناع والإكليروس clerical . فقد احتفظ المزارعون وسط دوامة الغزوات وويلاتها واختلاف السادة على كراسي الحكم ، كما ورثوا لجيل بعد جيل المهارات والمعارف الضرورية لرعى الأغنام والماشية ، والمباشرة

زراعة الغلال والكروم ولدراسة الأحوال الجوية والازمنة والمواسم . وعلى هذا النحو أيضا عاشت مهارات مختلف الصناعات ، من نجارين وبنائين ، ومن صناعات للمجالات والعربات ، ومن النقاشين ومغلفي الكتب والموشين بالذهب والصباعين والنساجين والقصارين وسباكي المعادن المختلفة والديباغين وصناع الجلود ، إن هؤلاء جميعاً وكثيراً غيرهم لم تنقطع حاجة الملوك والقصور والبارونات الأثرياء أو الكنائس العظيمة والمجتمعات الدينية لإلهم قط ، ذلك لأن الكنيسة قامت بإحياء تلك الفنون الجمالية مثل الصباغة (سواء للجلود أو الأقمشة) والطلاء والتليص والتقوية بالذهب وأعمال الفسيفساء ونقش الزجاج . ومن بين أطراف النصوص التي آلت إلينا والتي تعد بالمثلثات نص يحمل عنواناً محلياً بحثاً يقول : الملف ٤٩٠ ، لوكا ، ويحوى ما يزيد عن مائة إيصال عن أعمال فنية مثل الطلاء بالذهب والصباغة والتليص وأشغال الفسيفساء إلى آخره . أما الطبقة الثالثة : وهم الإكليريوس فقد أمدوا الحكام لفترة طويلة من الزمن بالكتابة الماهرة والصناعات الحاذقة أو أمتجوا بالعمل المتأثر الجاد في قاعات النسخ بالأديرة نسخاً من الكتاب المقدس ومن مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين العظيمة أيضاً . وهكذا توارثت الأجيال معارف الفنون والحرف والعناصر الروحية التي يحيا بها البشر ، فكتب لها البقاء .

بيد أن ثمة أشياء أخرى قدر لها أن تحيا في صورة ذكريات وأفكار وتقاليد . فرغم أن روما الإيطالية لم تعد بعد عاصمة الإمبراطورية . ورغم أن روما الجديدة ، التي زينها الحكام الواحد بعد الآخر وزادوها اتساعاً على أنساع قد ورثت جانباً كبيراً من الصيت والمجد الذي كان لساقتها ، فلم يكن هناك ما يحرم المدينة القديمة من مجدها المؤثر ، كما أنه ما إن ازداد نفوذ أساقفة روما (منذ عهد البابا جريجوري Gregory عام ٦٠٠ تقريباً وما تلاه) حتى اكتسب لقب : المدينة الخالدة ، القديم قوة ومعنى جديدين . وكان بوسع البرابرة أن

يشاهدوا في كل ناحية من أنحاء المنطقة التي كانت تحتلها الولايات في القديم (والتي أصبحت الآن ممالك غربية ناشئة) أسوار وآثار المدن الكبيرة والطرق والكبارى ومجارى المياه العالية التي تشهد بمجد غابر . إن ما أثار إعجاب هذه الأجناس الجديدة الفتية هو روعة نظام الحكم الرومانى وإحكامه . لقد صرح أحد رؤساء العشائر القوطية ويدعى أثولف بقوله : « كنت أتوق إلى أن أحطم الإمبراطورية الرومانية وأفوض بليانها ، ولكنى لم ألبث — بعد أن أثبتت لى التجارب أنه ليس بوسع القوطيين أن يخترعوا القانون لوحشيتهم التي لا حد لها — أن آليت على نفسى بدلا من ذلك أن أسعى لأنال شرفا رفيعا بأن تسترد روما مكانتها الأولى وأؤيدها وأدعمها بقوة القوطيين ، آملا في أن تعرف عني الأجيال التالية أنني منقذ روما » . كان هذا هو سحر الإمبراطورية الذى أسر ألباب البرابرة ، ولم يكن مرد هذا السحر عظمتها وجلالها فحسب بل قوانينها ونظمها أيضا ، إذ كانت هذه قد بلغت ذروة الكمال والنضج على حين أنها لم تسكن لديهم إلا جنينا في دور التسكين . ومن بين الأركان الأساسية للدولة ، دور المحاكم ، حيث يقضى بالعدل قضاء مقسطون بموجب قانون عالمى معروف ، تتحدد فيه المخالفات والجرائم على نحو صحيح قاطع . لقد كانت روما تفاخر وتزهو بأن عدالتها صارمة منصفة مباحة للجميع ، وإن قراءة سفر أعمال الرسل أو قراءة ردود تراجان على بلىنى (فى الكتاب العاشر من رسائله) لتقدم البرهان الدامغ على ذلك ، وعلى نزوع لرومانيين الفطرى أيضا إلى النظام والوقار والاحتشام . لقد شهد القرن الثانى تطورا كبيرا لفكرة المساواة والإنسانية ، اقترن بالتأمل فى ماهية القانون الطبيعى ، وأسس القانون الدولى ، أما القرن الثالث فكان عصر أئمة المشرعين . وإن ما يشير فرع المؤرخ الحديث هو اختفاء المحاكم القانونية وسط هرج القرن الثالث واضطراب أحواله ، وإبان القرن الرابع أيضا حين زعم أن

الأمور قد عادت إلى مجاريها ، بالإضافة إلى ظهور اتهام جديد يسمى *stellionatus* كان على درجة من الغموض تكفل الإداة العاجلة المؤكدة ، شأنه شأن اتهام « الوقاحة التامة » الجامع المطلق الذى كان يلفق زمنا ما فى الجيش البريطانى . ورغم ذلك ، فقد كان فى وسع الحكام البرابرة أن يعولوا على خدمات رجال المتبرسين فى تطبيق القانون ، لهم القدرة على تحديد نقط الخلاف وحسمها على أسس قانونية صحيحة .

وعندما وضع جستينييان *Justinian* فيما بعد (٥٢٧ - ٥٦٥) مجموعة القوانين الرومانية ، أصدر الملوك القوطيون فى الغرب مجموعات القوانين تقوم على أساس الخبرة القانونية الرومانية ، وذلك لصالح مواطنيهم وصالح رعاياهم الرومانيين أيضا . ولعلمهم قد تشرّبوا مع هذه القوانين بجانب من الخلتين اللتين تحلى بهما الرومان وهما المساواة والـ *humanitas* وهى تعنى الاحترام المتبادل بين الإنسان باعتباره كائنا عاقلا وبين أخيه الإنسان ، وتشير إلى الفكرة القائلة بأن المقصود من القانون هو حماية حقوق المواطن لا السيطرة عليه . والخلاصة أن يقدس البشر بعضهم البعض .

والواقع أن من أطرف الموضوعات الجديرة بالبحث موضوع المعارف التى أخذها البرابرة عن الرومان ، فقد كان الكثيرون من أمثال هؤلاء الجرمانيين والماركومانيين *Marcommani* والساكسونيين والسكوتيين *Scotti* جنودا بالجيش الرومانية ، تعلموا فيها فنون التحصين والمعمار ، والمعتقد أن آثار المتاريس والخنادق التى عثر عليها فى الدايمرك وشمال إيرلنده تدل على إلمام بالطرق الفنية الرومانية . كما لقن الرومان سكان أوربا الغربية أثناء احتلالهم لها مناهج فنية حديثة وجلبوا أنواع جديدة من النباتات وأشجار الفاكهة ، وتدل مصطلحات البناء والمعمار فى اللغات الولشية والفلسنكية والمالانكسية والبرتغالية على انحدارها جميعا من أصل واحد ، كما هو الحال

أيضا ، بالنسبة لأسماء عدد من أشجار الفاكهة والخضروات . ومن المؤكد لدينا أن الرومان هم الذين نقلوا شجرة الكريز إلى إنجلترا ، وربما كان الإنجليز يدينون أيضا للرومان بالفضل في جلب أنواع أخرى من الفاكهة . ولم يقف تأثير الرومان عند حدود دولتهم فحسب ، بل خلفوا آثارا تتجاوز هذه الحدود نظرا لانتشار تجارتهم وصادراتهم . فقد اسمدت الألفاظ التي تهي في اللغة الأيرلندية القديمة : قرمزي ، وذهب ، ونيينذ وغيرها من أصول لايتينية ، كما أخذ نظام الموازين والمقاييس القديم في الترويض عن النظام الروماني ، كما أن اللفظة الهندية الدالة على قطعة النقود الفضية « دينار » أخذت عن اللفظة اللاتينية *denarius* .

ولما كانت الممالك الجديدة حريصة على أن تضفي على نفسها صفة شرعية ، فقد زعمت أنها سليلات الإمبراطورية شرعاً أو أنها قد تفرعت عن أصلها ، كما واصلت استخدام شعارات الإمبراطورية الرومانية وألقابها . كما خلع أحد ملوك لومبارديا Lombardia على نفسه لقب فلافيوس Flavius ، لأن ذلك سيربطه بالأسرة الفلافية التي كان ينتسب إليها الإمبراطور العظيم قسطنطين ، وزعم أحد الملوك الإنجليز في القرن الثامن ، بعد أن عظم سلطانه واتسع ملكه ، بأنه برتفالد Bretwald^(١) ، حتى أنه كما يقول بيد Bede : « كان يتقدمه حامل الراية ويلبس غطاء الرأس يسمى ثوف thuf في رحلاته الملكية » . وكان الثوف غطاء للرأس يلبسه الأباطرة البيزنطيون ، وقد أراد ذلك الملك أن يضفي على نفسه صفة شرعية بارتداء هذا الغطاء . كما رأى الحكام الأنجلوساكسونيون

(١) وهذا اللقب نفسه « برتفالد » مأخوذ عن اللاتينية بطريق الإنجليزية ، لأن برتفالد هي اللفظة الأنجلوساكسونية للفظه الهطانية Prædein-Wledig (أمر حاكم بريطانيا) وهم

الأوائل أو رأى صيارفتهم أن من الأوفق تصوير الرمن الرومانى الشهير وهو الذئبة وتوأماها على عملاتهم . وهنا تكمن التقاليد ويمكن الخلود .

وكانت نظم التربية والتعليم الرومانية فى القديم من الحكمة بحيث حرصت على المزج بين الخبرة المدنية والخبرة العسكرية ، فلا يبلغ المواطن رتبة البريتور إلا ويكون قد أسهم فى بعض الحملات الحربية ، وتقلب فى عدد من الوظائف الإدارية الصغيرة ، وشهد بعض المحاكمات فى دور المحاكم الرومانية ، كانت هذه هى النظم التى تخرج عليها رجال من أمثال يوليوس قيصر وقسباسيان وأجريكولا وتراجان ، بيد أنها ما لبثت أن اندثرت واختفت شيئا فشيئا نتيجة لطغيان الناحية العسكرية على الناحية المدنية ، وما إن حل عهد سبتيميوس سيفيروس حتى أصبح للجيش اليد الطولى . وقد تلقى الإباطرة المقاتلون الذين تولوا الحكم فى أواسط القرن الثالث وأواخره ، الجانب الأعظم من تعليمهم داخل المعسكرات ، ولم تكن لهم خبرة بالشئون المدنية ، صحيح أنهم لم يفقهوا شيئا فى القانون أو الاقتصاد لكنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة كيف يتغلبون على العقبات فى ضراوة وشراسة . لقد كان العصر يتطلب عملا عاجلا حاسما ، وكان هؤلاء يضيئون بأساليب التدرج وعبارات الإغراء والإقناع ، فليس فى وسعهم إلا أن يلجأوا إلى القوة وأن يقابلوا مداورات القوم ومراوغاتهم بمزيد من الموانع والقيود . واضطرت الإمبراطورية شيئا فشيئا إلى أن تعيش فى حالة طوارئ ، دائمة يتلقى الجميع فيها أوامره من شخص واحد هو الإمبراطور وهو الشخص الذى يتخذ القرارات العاجلة الحاسمة ، والشخص الذى يجب أن يطاع أمره ، فقد كان من الطبيعى أن يعلى من شأن مركزه وسمو مكانته ، وتتعاقب الأجيال أصبح ينظر إلى الإمبراطور ، على اعتبار أنه هبة العناية الإلهية Providentia Deorum . فركزه وفضائله هى من عند الله ، وما كان أيسر أن تتخذ بعد قسطنطين الخطوة التالية وهى أن يحكم الإمبراطورية بعناية الله

Dei Gratia . وحين يكون الإمبراطور خليفة لله على الأرض ، فلامفر من أن تكون سلطانه سلطات استبدادية مطلقة ، ومن من الناس يجرؤ على التعقيب عليه ؟ وقد اضطلمت الكنيسة المسيحية فترة من الزمن ، بعد أن نالت على نحو مفاجيء رضا الأباطرة وحمايتهم ، بمسئولياتها كاملة ، وكان لأمثال القديس هيلارى أو القديس أمبروز أو الأسقف سينيسيوس المرأة على توجيه عبارات اللوم أو التقدم بالنصح إلى حاكم مستبد لم تكن تقع على سمعه غير كلمات الإطراء والمديح من جانب الحاشية والمتآمرين وطلاب الحاجات . بيد أن مثل هذه الحرية والاستقلال والجرأة لم تكن لتبقى طويلا ، لأن الدولة ستسعى بطبيعة الحال إلى أن تجعل من الكنيسة (بما لها من سلطان كبير على نفوس البشر) أداة لتنفيذ أغراضها ، وما لبث رجال الكنيسة أن أحسوا بأنه لا سبيل إلى مقاومة سحر السلطة الدنيوية الطاغى وأن لا مفر من التحالف مع هذا النصير القوى .

بيد أن قصة العلاقة بين الدولة والكنيسة لا ترجع إلا إلى عصر متأخر ، أما خلال القرن الرابع فقد أدى رؤساء الدين المسيحى والمتحدثون باسمه دورهم في شهامة وجسارة . فالكنيسة تستحق الحمد والثناء لسبيين بالذات : فهي التى شجعت مراحل التعليم الأولى في الأقاليم ، ودعمت اللغات والآداب الوطنية . لأن فرص التعليم في العهد القديم ، كانت قاصرة في الغالب على أبناء الطبقة القادرة على تحمل نفقات التعليم ، وكان التعليم لا يهتم بالجواهر بقدر ما يهتم بالمظهر ، بيد أن المعلمين المسيحيين شعروا بأن كلمة الله يجب أن تصل إلى مسامع الجميع دون استثناء ، وبأن إبراز جوهر الرسالة أعظم وأهم من انتقاء الأساليب المنمقة التى تغفلها ، فإذا ما عرف ابن الريف كلمة الخلاص فلا عليه أن يتخرج من لهجته القروية الفجة (rusticitas) حتى وإن كان يحادث ساكن المدينة . وهذا الشعور نفسه بالمبشرين إلى تشجيع اللهجات واللغات المحلية حتى يتمكن أهل

الولايات جميعها ، مهما كان بعدها أو تخلفها الحضارى ، أن يتعرفوا بلغاتهم على آيات الله العجيبة . فينبغى أن يسمع الكابادوكيون والغالليون والأسبان والمصريون البشارة بلغاتهم الخاصة ، وما زالت اللغة القبطية وآدابها وكذلك اللغة الأرمنية وآدابها حية إلى اليوم . ولما كان من الواجب أيضا أن تتم هداية البرابرة الشماليين إلى طريق المسيح ، فقد اتجه أفليلاس (الذى تعلم اللغة القوطية وهو فى الأسر فى صباه) صوب الشمال وترجم الإنجيل إلى اللغة القوطية ، على حين بعث بياتريك Patriok سنة ٤٣٢ من روما ليرسم أسقفاً على المسيحيين الموجودين فعلا فى أيرلنده ، وأن يقوم بالبشارة والدعوة إلى الدين المسيحى فى هذا البلد برمته ، حيث وجد الدارسون واللاجئون فيه الملاذ والملاجأ إبان عهود البرابرة المظلمة .

وثمة خطأ يجب أن نتحرز منه . فعلى تلك الفئة التى تتحدث بذلاقة عن « الإمبراطورية المسيحية » أو تعتمد إلى التنديد بالحكام والرعية لأنهم لم ينقلبوا إلى قديسين بين عشية وضحاها ، أن تعلم أنه لم يكن من الميسور أن يطاح بالعقيدة الوثنية طفرة واحدة ، ثم إن التردد على الكنيسة ليس فى ذاته طهرا وورعا . وليست العبرة بحال أن تدخل الألوف المؤلفة فى المعمودية أو أن يتبع أفراد قبيلة من القبائل شيخهم فى اعتناق الدين الجديد ، أو أن يرتفع عدد المسيحيين ارتفاعا مذهلا . فلم يكن الاشتراك فى الأعياد الكبيرة ، أو التعبد للإله نفسه الذى يتعبد له الإمبراطور (لا لآلهة الإمبراطور العديدة فى هذه المرة) إلا مجرد تعبير عن الولاء للحاكم . بيد أن أمر النشبع بالروح الجديدة والتخلص من العادات والخرافات القديمة قد يتطلب قرونا وقرونا . فقد ظل الإيمان بالآلهة القديمة — وإن لم تكن فى الغالب آلهة « الدولة » العظيمة مثل جوبيتر ومارس وهرقل بل آلهة الريف والبرارى مثل بان Pan وسلفانوس والحوريات والآلهة المحلية — بعد أن أعلن الدين المسيحى ديناً رسمياً للعالم

الرومانى بزمن طويل — راسخا ثابتا فى جميع أنحاء باستثناء المدن والمواصم التى كانت فيها يبدو قومية الإيمان . قد يحتج رجال الكنيسة ويعلمون استنكارهم وقد يهدد الحكام ويتوعدون ، بيد أن أهل الريف لم يكونوا ليقلموا عن الابتهاال لمينيرفا Minerva قبل النسج وعن صب التقدّمات عند مدفاة الدار أو تكديس الحجارة كما كانت عادتهم على كومات الحجارة التذكارية ، أو إيداع النذور لدى المعابد المقامة على جانبي الطريق . والأمر لا يختلف عن معتقدات الهنود المايا Mays Indians الذين يمارسون طقوساً دينية هى خليط غريب بين القديم والحديث إذ قال بعضهم رداً على سؤال سائل : إن الإله العظيم والعذراء وابنها والقديسين كلهم صالحون ، ولكن هنا فى الغابة قد يكون للآلهة القديمة بقية من سلطان . وهذه حالة ذهنية معروفة ، تظهر بشكل واضح وقت الكوارث والأزمات ووقت سيطرة الذعر والهلع على النفوس . وما من شك فى أن شمس القرن الرابع الغاربة خلفت وراءها ظلة ووحشة شديديتين ، وعم التساؤل تحت وطأة الهزيمة والانكسار عما إذا لم يكن من الخطأ أن تهجر الآلهة القديمة إلى تلك العقيدة المسيحية المستحدثة ؟ فما من شك فى أن الآلهة المهجورة على هذا النحو كانت تنتقم إذاك لنفسها من قوم ضالين متقلبين . ولقيت هذه المشاعر ، نظراً لاتفاقها مع الطبيعة البشرية ، ذيوفا وانتشاراً كبيرين ، إلى الحد الذى دعا القديس أوغسطين أن يطلب من صديق له اسمه أوروزيوس Orosius أن يدحضها بالاحتجاج بأن أرزاء الوقت الحاضر جميعها لا تقاس بالبلايا التى نزلت خلال العهود الوثنية الماضية . فلم يعم أوروزيوس ، وهذا الغرض النبيل نصب عينيه ، أن ألف سمع كتب عن « التاريخ حيال الوثنيين » مليئة بذكر الفيضانات والحرائق والمجاعات والكوارث والمحن التى اجتاحت البشرية فى العصور الماضية ، رغبة منه فى أن يجد فيها أهل عصره شيئاً من العزاء ، ولو أن ذلك كان أملاً بعيداً .

ولكن الحديث عن ذلك إن هو إلا تطلع إلى أفق بعيد فى مؤلف ينتهى

بقسطنطين . لقد مرت الإمبراطورية ، في ظل نظام الحكم الجديد الذى وضعه أوغسطس . وفي خلال ثلاثة قرون ونصف قرن ، بتقلبات عدة ، وبدا في القرن الثالث كما لو أنها قد أصيبت بضربة قاضية ، بيد أن إرادة حكامها التى لا تقهر وبسالتهم وضراوتهم أيضا أثبت أن تعترف بالهزيمة ، فإلئت أن أعادت للإمبراطورية كيائها ومجدها . وكان لقسطنطين أن يفخر بأنه وضع اللبنة الأخيرة في صرح التجديد والإصلاح ، وهنا ينبغي أن نحتتم قصتنا . ولكننا نود قبل أن نفعل ذلك أن نلقى نظرة عابرة على أوجه النقد التى رमित بها الإمبراطورية . قيل إن الإمبراطورية قد أقيمت بحد السيف ، وهذا حق فقامت بالفعل إلا على الحرب والسلب والنهب وبمعاونة الأيدي العاملة من العبيد . وعلى الرغم من أنه قد ظهرت خلال القرنين الأول والثاني شواهد تدل على زيادة في الأيدي العاملة الحرة ، إلا أن إمبراطورية القرن الرابع والمستصلحة ، لم تلبث أن شعرت باضطرابها إلى الارتداد إلى نظام العمل الإجبارى الذى تتوارثه طوائف بعينها . وقيل إن الإمبراطورية لم تكن تتألف من عناصر متجانسة بالقدر الكافى ، وإن نظام حكمها لم يكن نظام حكم الشعب بالشعب ، وإن حكامها وقادتها لم يكونوا يفقهون الشئ الكثير عن مبادئ الاقتصاد . وبعض هذه الانتقادات صحيح لا غبار عليه ، بيد أنه لم يكن هناك مفر من وقوع تلك الأخطاء في مجتمع إنسانى كبير ، كان مضطرا — حتى ذلك الحين — إلى الالتجاء عندما تعوزه الحيلة إلى القوة والبطش . كتب فوشيه Fouché إلى ولنجتون Wellington عام ١٨١٥ يقول : إن من يخذعون أنفسهم ويتوهمون أن فى الوسع حكم البشر بالعبارات المنمقة وبالتشديق بالمبادئ النظرية المجردة ، ليجملون طبيعة النفس البشرية ومنايع السلطة أيضا . ربما كانت الإمبراطورية تفتقر إلى التجانس بين عناصرها ، بيد أنه كان فى مقدور وحدة المشاعر (وهى الوحدة التى حققها روما) أن تتغلب على هذا النقص ، وليس أدل على ذلك من نجاح الإمبراطورية الباهر فى استعادة كيائها ومجدها خلال القرن الثالث . فضلا عن

ذلك ، فع أن العالم القديم برمته لم يكتشف « حقوق الإنسان » (رغم أن بعض الفلاسفة قد رسموا لها صورة إجمالية مهوشة بعض الشيء) فإن الحضارة اليونانية كشفت عن « حقوق المواطن » ، فجاءت الإمبراطورية الرومانية فشذبت هذه الحقوق وطورتها وبرهنت على أنه من الميسور أن يجمع الفرد بين المواطنة المحلية ومواطنة الإمبراطورية . أما عن الأسس الاقتصادية فلم يكن الأباطرة ينفقون في الواقع منها شيئا ، ولعل مرد ذلك إلى أن هذه الأسس لم تكن بعد ، قد وضحت وتبلورت .

ولعلنا نلاحظ أن جميع هذه الانتقادات تمنح إلى النظر إلى الإمبراطورية كما لو كانت دولة معاصرة تقاس الحياة فيها بمقاييس القرن العشرين ، وليس هذا الحكم حكما جائرا بحسب ، بل إنه يتنافى أيضا مع القواعد الصحية للنظر إلى التاريخ ، وما أحسب أن هناك نظرا للإمبراطورية ، أعظم من أن تكون هذه هي نظرة هؤلاء المؤرخين الذين انبروا لمناقشتها الحساب . ذلك لأن الإمبراطورية هي التي مهدت الطريق لقيام العالم الحديث ، بمعنى أنها رسمت وحددت الإطار الذي كان على أوروبا أن تنمو وتتطور داخله ، وبذلك خلقت لوريثاتها وخليفاتها بعض المثل العليا التي لا أمل في حياة العالم الحديث بدونها .

ساحس قائمة بأسماء الأباطرة الذين ورد ذكرهم في النص

Augustus	٢٧ ق ٠ ٢٠ - ١٤ م	أوغسطس
Tiberius	١٤ - ٣٧	تيريوس
Gaius (Caligula)	٣٧ - ٤١	جايوس (وكنيته كاليجولا)
Claudius I	٤١ - ٥٤	كلوديوس الأول
Nero	٥٤ - ٦٨	نيرون
Vespasian	٦٩ - ٧٩	فباسبان
Titus	٧٩ - ٨١	تيتوس
Domitian	٨١ - ٩٦	دوميشيان
Trajan	٩٨ - ١١٧	تراجان
Hadrian	١١٧ - ١٣٨	هادريان
Antoninus Pius	١٣٨ - ١٦١	أتونينوس بيوس
Marous Aurelius	١٦١ - ١٨٠	ماركوس أوريليوس
Commodus	١٨٠ - ١٩٣	كومودوس
Septimius Severus	١٩٣ - ٢١١	سبتيميموس سيفيروس
Caracalla	٢١١ - ٢١٧	كاراكالا
Philip	٢٤٤ - ٢٤٩	فيليب
Decius	٢٤٩ - ١٥١	ديكيوس

— ۲۲۸ —

۲۶۰ — ۲۵۳	Valerian	فالیریان
۲۶۶ — ۲۵۳	Gallienus	وابنه
۲۷۰ — ۲۶۸	Claudius II	جالیانوس
۲۷۵ — ۲۷۰	Aurelian	کلودیوس الثاني
۲۷۶ — ۲۷۵	Taotus	أوریلیان
۲۸۲ — ۲۷۶	Probus	تاکیتوس
۳۰۵ — ۲۸۴	Diocletian	پروبوس
۳۰۵ — ۲۸۵	Maximian	دقلدیانوس
۳۰۶ — ۲۹۲	Constantine Chlorus	ماکسیمیان
۳۱۱ — ۲۹۳	Galerius	قسطنطین کلوروس
۳۱۲ — ۳۰۶	Maxentius	جالیریوس
۳۲۳ — ۳۱۱	Licinius	ماکسنتیوس
۳۳۷ — ۳۰۶	Constantine	لکینیوس
		قسطنطین

الفهرس

مقدمة	٥
تمهيد	٧
الفصل الأول : الإمبراطور — شخصه — مركزه — معاونوه	١٨
• الثاني : الدفاع — الجيش والأسطول	٣٨
• الثالث : الشعوب والولايات	٦١
• الرابع : العمل والضرائب	٨٠
• الخامس : فروع المعرفة — البحث العلمى — العلوم الوهمية	١٠١
• السادس : التربية والأدب والفن ووسائل الترفيه	١٢٠
• السابع : ثروة الإمبراطورية — التجارة والأسفار	١٤١
• الثامن : دين الدولة ودين الفرد — السحر — المسيحية	١٦٠
• التاسع : سنوات الخطر	١٨٢
• العاشر : العمل من أجل الوحدة — قسطنطين	٢٠٣
خاتمة	٢٢٤
الفهرس	٢٣٩
فهرس أبجدى	٢٤٠

فهرس أبجدى

أوريبيان ١٥ ، ١٨٦	(١)
أوغسطس ١٢ ، ١٨ ، ١٨٩ ، ٣٥ ، ٣٦	إبيكتيتوس ١٠٢ ، ١٢٦
أوغسطس (القديس) ٢٣٤	أثينا ١٣٠
إيزيس ١٧٢ ، ١٧٣	إجناتيوس ١٨٠
أيسلاند ١٥٦	أونيميدوروس ١١٨ ، ١٦٤
(ب)	أريان ٦٢ ، ١٢٦
الباحثون ، الرحالة ١٣١	أفلاطون ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٥
بارثيا ١٨٥	أفلوطين ١٠٨
البرايتورز ٩	أكسيريخوس ٩٧
بروبوس ٩٨ ، ١٨٧	الأيثورية (فلسفة) ١٠٣ وما بعدها
بريطانيا ٣٩ ، ٤٠ ، المنتجات الطبيعية ١٤٦	الأسطول ٥٣
بطليموس ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٣	الأسكندرية ١٠١
البلاغة ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٧	الاسكندر من فورت أبوني ١١٧ ، ١٢٦
بلوتارخ ١٢٥	أليان ٣٢ ، ١٠٢
بليني (الأكبر) ١٢٧ ، ١٢٨ ، الأصغر ١٧٦	أناتوليوس ١٨٨
بواديكا ٩٢	أتونيوس بيوس ١٤
بولس (الرسول) ٦٢ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٧٦	أنثونا ١٠٠
بومبي (مدينة) ٦٨ ، ٩٠	أودوزيوس ٢٣٤
بومبي الكبير ١٠	أوريجن ١٧٩ ، ١٨٨

اصلاحات دقلديانوس ١٩٩٠، ١٩٨

قواد المائة ٥١

الغذا ٤٩٠

المستشفيات ٤٩

الفرسان المدرعة ١٩٢، ٥٦

الضباط ١٩٢، ٤٧، ٤٦

(ح)

الحدائق ١٣٦، ١٣٥

الحرس البريتوري ٤٣، ٤٢

حقوق المواطنة الرومانية ٩٣، ٦٢، ٦١

الحكام : السلطات والمهام ٢٦ وما بعدها

مرسوم اتنيسيوس رستيكيوس

١٤٢، ١٤١

الحمامات ١٣٢، ٤٩

(خ)

خرايط ١٠٨

خرافات ١١٦ وما بعدها

خريستوبوليس (معركة) ٢١٠

(د)

دقلديانوس الفصل السابع (جهات

متفرقة) ١٠٠، ٩٨، ٥٧، ٥٦، ١٧، ١٦

(ت)

ناكيتوس (الإمبراطور) ١٢٤

ناكيتوس (المؤرخ) ١٢٤، ١٢٧

التجارة الفصل السابع (جهات متفرقة)

تراجان ١٤

ثر توليان ١٧٨، ١٧٩

التعليم ١٢٠ وما بعدها

تمبريس (ضيقة) ٩٦

التدين ٧٣، ٧٤

التيبر ٩

تييريوس ١٢

تيتوس ٢٥

(ج)

جاليانوس ١٥، ١٩٢

جاليريوس ٢٠٣ وما بعدها

جايرس (كاليجيولا) ٢٢، ٢٥

الجامعات ١٠١، ١٢٢

جويتر ٩، ١٦١

الجيش الفصل الثاني (جهات متفرقة)

القوات المساعدة ٤٤

التدريب ٤٦

المرتبات ٥١، ٩٥

(ش)	دوميشيان ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ديكيوس ١٥
شرق إفريقيا ١٠٩ الشعور المعادى لروما ٦٥ وما بعدها	(ر)
شيشرون ١٢٢ ، ١٢٥	الوق ٨٥ ، ٨٦
(ص)	الرواقية ١٠٢ وما بعدها الرواية (اليونانية) ١٢٨ رومولوس ٩
الصناعات ٨٤	(ز)
الصين ١٥٢ ، ١٥٥	الزجاج (والمصنوعات الزجاجية) ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢
(ض)	الزراعة ٨٤
الضرائب ٩٠ ، ٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ وما بعدها	(س)
(ط)	سبتيميوس سيفيروس ١٤ ، ١٨٢ الاستكشافات الجغرافية ١٠٨ ، ١٠٩ الأفلاطونية الحديثة ١٠٦ وما بعدها
الطرق ٥٧ وما بعدها	السحر ١٦٧
الطعام ١٣٤ ، ١٣٥	الأسعار (المرسوم الخاص بها) ٢٠٠
(ع)	الأسفار ١٥٠
عبادة الإمبراطور ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٦٤ وما بعدها	الأسواق ١١٣
العراقة ١٦٤	سورية (منتجات) ١٤٩
العقوبات ٣٢ وما بعدها	

الفولميون ١٥ ، ٤١٠ ، ١٨٤

القنوت ١١١

(ك)

الكبارى ١١٠ ، ٥٩

الكتب ١٢٢ وما بعدها

كارا كالا ٦٢ ، ٩٤٠ ، ١٦٢ ، ٦٨٣

الكتيون ٨

كسوس ١٧٩ ، ١٨٣

كلوديوس الأول ١٣ ، ٨٨

كلوديوس الثاني ١٥ ، ١٨٧

كليمنت الاسكندري ١٧٩ ، ١٨٨

كليمنت من روما ١٨٠

كومودوس ١٤ ، ٢٢٠

(ل)

اللاتينية (اللغة) ٧٤ ، ٧٥ ، ١٢٢

لوكيان ١٢٦

ليني ١٢٥

ليكينوس ٢٠٧

لونجينوس ١٢٦

مارس ٩

ماركوس أوريليوس ١٤ ، ٢٦ ، ٠

١٠٣ ، ١٠٢

(غ)

الغال (المنتجات الطبيعية) ١٤٦ ، ١٤٧

غالين عن المسيحيين ١٧٧ ، ١٧٨

عن تحقيق النصوص ١١٣

عن الغذاء غير الصحى ٨٣ ، ٨٤

(ف)

فاليريان ١٥

الفخار ١٣٨

فرجيل ١٢٣ ، ١٢٥

الفرنجية ١٨٤

فسبسيان ١٣

أفلاطون ١٢٥

الفلك ١١٦ ، ١

١٣٦ ، ١٣٨

(ق)

القانون والتشريع ٣٠ وما بعدها

قسطنطين الفصل العاشر (جهات

متفرقة) وما بعدها

القسطنطينية ٢١٢

القناصلة ٩

النقود (العملة) ١٩٨ ، ١٥٦ ، ٩٥

نومًا ٩

نوماجن (نقوش) ١٣٦ ، ٧٢

نونيوس داتوس ١١٠

نيرون ١٣ ، ٢٢ ، ١٨٧

(هـ)

هادريان ٣٦ ، ٤٠ ، ٨٩

الهند ١٥٤ ، ١٥٥

الهندسة المدنية ١١٠

الهندسة المعمارية ١١٢

هومر ١٢٤

(لا)

لاكشمي ١٥٥

الإمبراطور من كزه ٢١ وما بعدها

(ى)

اليهود (والديانة اليهودية) ٦٧ ، ٦٩

٧٧ ، ١٧٤

يوريليديس ١٢٤

يوليوس قيصر ١٠

الثونانون ٢٨ ، ٦٤ الفصل الخامس

(جهات متفرقة)

ماكسيميان ١٩٥

المباريات (كل مائة سنة) ٢٣

المدارس والمدرسون ١٢٠ وما بعدها

مدونة (فرقة من الجنود) ٥٠

المسارح ١٣٠ وما بعدها

المستشفيات (العسكرية) ٤٩

المسرحيات الإيمانية ١٣٠ ، ١٣١

المسيحية : نشأتها ١٧٦ المدافعون

الأوائل ١٧٦ يليني عنها ١٢٨

الأدب ١٣٩ ، ١٤٠

الاضطهاد ٢٠٣ ، ٢٠٦ رجال

الدين ٢١٢

مصر ٦٥ ، ٦٧

المصارعون ١٧٠

المكتبات ١٢٣ ، ١٢٥

مكسيتيوس ٢٠٦

الملايو ١٥٢

ميراس ١٧١ ، ١٧٢

ميلفيان بريدج (معركة) ٢٠٧

المنجانيقات ١٩٣

(ن)

نظام دور النبلاء ٨١

٨٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٧٣٣

I.S.B.N 977 - 01 - 6164 - 0



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولا موعد تبدأ أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل -
للشباب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاظم ومازالت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن
مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والد
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

Bibliothèque Alexandrina



0410538



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩